
من تُراث
الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى
أول مُعلم للعربية في البلاد الروسية
تقديم
دكتور حسين الشافعى
الناشر
أنباء روسيا

من تُراث

الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى

أول مُعلم للعربية في البلاد الروسية

تقديم وتحقيق

دكتور حسين الشافعى

الناشر

أنباء روسيا

الناشر




رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير
د. حسين الشافعى
h.elshafie57@mail.ru

Tel. & Fax:
+ (202) 24 77 38 70 & 71
E-mail:
secertary_ert@yahoo.com

المراسلات
القاهرة - مدينة العبور
44719 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي
ص. ب. 72

الإخراج الفني
أمير يوسف أحمد

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور - القاهرة
Tel. & Fax:
+ (202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى
2013

تتقدم دار نشر أنباء روسيا بشكرها العميق للدكتورة يافعة يوسف جميل أستاذة اللغة العربية بجامعة سانت بطرسبرج الحكومية - والتي عمل بها الشيخ عيّاد الطنطاوي معلماً للعربية. على عونها في موضوع الكتاب، ووعدها بأن تمدنا بدراسات وصور ومخطوطات ذات صلة.
كذا تتقدم الدار بشكرها للمركز العربي الروسي للثقافة بمدينة بطرسبرج - ومديره الهمام - مسلم شعيطه - على تأسيسهم لمدرسة لتعليم العربية بمدينة سانت بطرسبرج الروسية إحياءً لذكرى الشيخ الطنطاوي.
والشكر مقدماً قبل ذلك وبعده - للعاملين بجامعة سانت بطرسبرج الحكومية لإحتفائها الدائم بتراث الشيخ الطنطاوي، وجهود علمائها الحثيثة لإستمرار التواصل الثقافي العربي الروسي.

إهداء

إلى روح العلماء الأجلاء شيوخ الأزهر وقد حملوا - مبكراً - شُعل التجديد والتنوير والثقافة.

إليهم .. وقد كانوا - فى حينهم ومنذ زمنٍ - قادة للتنوير والتواصل الثقافى.

وإلى خلفائهم .. ونحن نأمل منهم أن يكونوا كذلك ، بعد أن إرتفع اللغط، وعلت الأصوات بالأسواق ترجو المدد من غياهيب الماضى والجهل متمسحة بغطاء الدين ، والدين منهم براء.

وإلى عموم الشعب " وقد فزعهم هذا الخطاب الرجعي والمتخلف رغم ما يحمله من شعارات متاجرة بالدين واللعب بمشاعر البسطاء بدعاوي ما أنزل الله بها من سلطان ".

إلى كل هؤلاء ...

إستحضِروا أرواح أئمة المسلمين في عصرنا الحديث الشيخ محمد عبده ، والشيخ رفاعة الطهطاوي والشيخ عيَّاد الطنطاوي ومن حمل معهم رسالة صحيح الدين ، دفاعاً عن المعرفة ، والعلم ، والحريات.

قاوِموا بكل ما أوتيتم من قوة بواعث الإنغلاق والتكفير من قوم عادوا من صحراء الجهل والتخلف ليمارسوا قطع الطرق على كل القوافل كما فعل أسلافهم.

فالمستقبل قَدره بيد صانعيه ، ولن يعود بنا الحال لزمانٍ مضى وإنقضى.

يناير 2013

مقدمة

د.حسين الشافعى

رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير أنباء روسيا الطبعة العربية

مؤتمر دولى حول الشيخ المعمم القادم من أزهر مصرً

صيف العام الماضي ـ 2012ـ سافرت إلى مدينة سانت بطرسبورج ـ العاصمة الثقافية لروسيا ـ في زيارة لعدة أيام. طوال أيام تواجدي لم يكن ثمة حديث مع المستشرقين والجالية العربية المقيمة إلا وقاسمه المشترك الشيخ "محمد عيَّاد الطنطاوى"، ذلك الشيخ المعمم الذي قَدُم من أزهر مصر معلماً للعربية بمدينة سانت بطرسبورج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد كانت آنذاك مدينة سانت بطرسبورج عاصمة للإمبراطورية الروسية.

ما أثار هذه الذكرى هو صدى ما نظمته جامعة سانت بطرسبورج الحكومية من مؤتمر علمي كبير بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لمولد الشيخ "محمد عيَّاد الطنطاوي" (1810ـ 2010).

عقد هذا المؤتمر بالجامعة ودُعى للمشاركه فيه ممثلوا الدوائر العلمية والمثقفين من دول عديدة، وإستمرت فعالياته على مدى يومين.

ثلاثة وسبعون بحثاً في المؤتمر حول الشيخ الطنطاوى

قُدمت في المؤتمر العديد من البحوث والدراسات بلغت ثلاثة وسبعون بحثاً قدموا من عديدٍ من دول العالم: من روسيا (ومثلتها أكاديميات العلوم ومعاهد الإستشراق في مدنها الكبرى ـ موسكو وسانت بطرسبورج وقازان وداغستان ـ ومن دول عديدة منها فنلندا وتركيا وألمانيا وأوكرانيا وفلسطين المحتلة * و أوزبكستان وكازاخستان ومصر.

---

* شــارك في أبحاث المؤتمر ممثلاً عن فلسطين المحتلة الباحث - جاد جلبار - بقسم تاريخ الشرق الأوسط - جامعة حيفا.

- أعمال المؤتمر الدولي حول "روسيا والعالم العربي" - جامعة سانت بطرسبورج الحكومية

International Conference: Russia & the Arab World : Dedicated to the 200th Anniversary of shaikh Muhamed Ayyadh at Tantawi . (1810 - 2010) , November 2 - 3,2010 - St. Petersburg

فيلم وثائقى عن الشيخ الطنطاوى

بمناسبة هذا المؤتمر كانت جامعة سانت بطرسبورج قد أعدت فيلماً عن " محمد عيَّاد الطنطاوي ، عُرض خلاله وأظهر الحفاوة التي توليها الجامعة لهذا المُعلم ، سجلت فيه أحاديث للشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر السابق ، والدكتور على السمان والشيخ فوزي الزفزاف رئيس اللجنة الدائمة للحوار مع الأديان والمحامي أحمد القشيري ، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الدكتور تيسير مندور .

المساهمة العربية في المؤتمر منعدمة، عدا بحث واحد مصرى

عودة للمؤتمر بمناسبة الإحتفال بالذكرى المائتين لمولد الشيخ "محمد عيَّاد الطنطاوي " ، والتي كانت المساهمة المصرية الوحيدة فيه بحثاً قدمته الدكتورة ماجدة النعيمي * من جامعة الأسكندرية - وهو جهد علمي مشكور - لكنه لم يتطرق بشكل مباشر لأعمال الشيخ الطنطاوي ، وكأنه لا كرامة لعالم من بني وطنه، فلم يكن ثمة مشاركة مباشرة في دروس آثار الشيخ " الطنطاوي " أو إدراك لقيمته .

من هو هذا الشيخ "محمد عيَّاد الطنطاوى "

الشيخ محمد عياد الطنطاوى (1810 – 1861) أحد الأعلام المصريين فى اللغة العربية وأدبها . وهو علم مغمور لانه سار عكس الاتجاه الذى سار فيه كثيرين من جيله من أعلام مصر ، ففى حين يهم هؤلاء شطر فرنسا ، دفعت الظروف بالشيخ لان يرحل الى بطرسبرج بروسيا (سانت بطرسبرج اليوم) ، حيث أمضى حياته أستاذاً للغة العربية فى حامعتها وتوفى ودفن هناك، واندمجت ذريته من بعده فى المجتمع الروسى . والواقع أن الدراسات العربية قليلة العناية بالشيخ الطنطاوى ، فلم يكتب عنه أحد سوى أحمد تيمور فى مجلة المجتمع العربى فى دمشق ، ومحمد عبد الغنى حسن عبر مقالة تضمنها أحد سوى مؤلفاته ، ولعل أوفى مصدر

* د. ماجدة النعيمي جامعة الإسكندرية

East and West Rrading of ibn Tufayl's Hayy Ibn Yaqzan

أعمال مؤتمر روسيا والعالم العربي - بمناسبة الذكرى 200 لمولد الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوي - سانت بطرسبورج - 2010 .

عن الشيخ الكتاب الذى وضعه عنه الروسية المستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكى عام 1929 تحت عنوان (حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى) الذى يحوى صوراً طبق الاصل عن رسائل متبادلة بين الشيخ الطنطاوى والمستشرق (النمساوى) كوسقارتن ، ورسالة للطنطاوى عن نشأته أرسلها إلى المستشرق الروسى فرين ، فى رسالة كتب فيها :

من محلة مرحوم إلى الخواجة فرين

الى حضرة الجناب الوقور الخواجة فرين يقول الفقير محمد بن سعد سليمان عياد الطنطاوى : ولدت بقرب طنطا بقرية تسمى نجريد سنة 1225 (هـ) ، وكان أبى تاجراً للاقمشة والبن والصابون ونحو ذلك فكان ذلك يأتى بالبضائع الكثيرة ويفرقها على التجار ، وكان له بيت بطنطا وبيت بنجريد وبيت بالصافية. وأنا ولدت بنجريد مع ان أمى من الصافية واصله (أى الاب) من محلة مرحوم وهو بلد كبيرة بجوار طنطا ، وكانت منذ ثمانين سنة أثرى وأكثر سكاناً من طنطا ثم بنى على بيك جامع البدوى ، وبنى حوله القيسارية (أى سوق التجارة ودكاكينهم) أخذت طنطا فى العمارة وزادت إلى يومنا هذا . وسبب ثروتها أن السيد البدوى، أحد الاقطاب الاربعة ، الذى مزاره له مولدان : مولد صغير، ومولد كبير ، وفى كل مهما يأتى أهل مصر والصعيد وساير النواحى ، فيبيعون ويشترون ، وبها علماء وفقهاء وقراء. وتعليم القرآن بطنطا أحسن من مصر (أى القاهرة) بخلاف العلم ، ولذلك يقال فى المثل ما قرآن إلا أحمدى ولاعلم إلا أزهرى : أحمدى نسبة لمجتمع سيدى أحمد البدوى ، وأزهرى نسبة للأزهر.

وقد سافر أبى وأمى إلى الحجاز وعمرى نحو أربع سنين وتركونى بالصافية عند اخوالى ثم لما ترعرت ذهبت إلى طنطا فى بيتنا هناك ، وذهبت إلى المكتب وعندى نحو ست سنين فحفظت القرآن مرتين بداية وعيادة كما هو العادة ، ثم بعد حفظى القرآن لم اخرج من المكتب بل حفظت فيه متوناً كثيرة ألفية ابن مالك فى النحو الخ ..

ثم لما كان عمرى عشـر سـنين ابتدأت فـى تعليم العلم فحضرت على المرحوم الشـيخ محمد الكومى شرح ابن قاسم فى الفقه مدة سـنة ثم مرة ثانية فى سنة ثانية على المرحوم الشـيخ السـيد محمد ابى النجا عالم شهير مصنف ثم حضرت عليه شرح الخطيب فى الفقه فى السنة الثالثة .

رحيل الشيخ إلى مصر

ثم يسـتكمل الشيخ الطنطاوى في رسـالته للخواجة فريـن " ومع ذلك فما كنت ألعب كثـيراً ولم احضر نحواً إلا نحوثلاثة دروس قبل سفرى ، لأن النحو قليل فى طنطا " ثم فى آخر السـنة الثالثة عشر سنة 1238 (هـ) من عمرى رحلت مع عمـى إلى مصر وبعد ذلك تركنا المسـكن فى طنطا لكن كنت أذهب إليها فى المولد . وقد اتفق إننى درست فيها كتاباً فى علم المجاز وكتاب مولد النبى صلى الله علية وسلم .

قبل السفر بـ 4 أيام

" وفى السـنة الخامسة من مكثى فى مصر مات والدى فى طنطا وقد تكدرت بسـبب ذلك نحو سـنتين . وكنت قد ابتدأت فى التدريس فيها وأول ما درسـت فى العروض ، وكان ذلـك فى السـنة الماضية وقرأت شـرح الملوى فى المجاز ، وشـرح الملوى فى المنطق ، وقرأت تفسير الجلالين وقرأت الشفا وهو آخر الازهر، فأنى ختمته قبل السـفر بأربعة أيام ، ثم تراجع الأمر وألجأنى الدهر إلى الكسب ، فعاشرت بعض الإفرنج المقيمين فى مصر ، وأول من عاشرته حضرة الخواجة فرين، وهو يحب اللغـة العربية بالطبع فـكان يحثنى دائماً على الاشـتغال ، وهو الآن قنصل جدة (القنصل الفرنسى فى جدة).

وبسـببه تقويت فى العلوم الأدبيـة لأننى كنت أقرأها معـه وهـو كان من أهـل التحقيـق والتدقيق ، ولـه توقفات حسـنه وبنات أفكار جميلة . وقد كتب رسائل فيما كان يقـرأ معى كترجمة الشـنفرى وأيـام العـرب وألخ .. ، ونوه بذكـرى فيها ، ثـم رغبنى فـى اللغة الفرنسـاوية ولعامين ، ولكن قصر الزمان عاق التمام .

ثـم إجتمعـت علـى غـيره مـن الخواجـات بسـببه . كالخواجـة وائـل النمسـاوى والخواجـة بورنـير الحكيم بالقصر العينى سـابقاً - وهو رجل حسـن الأخلاق والطباع ، يشـفى ويبشـر المريض قبل علاجه ، والخواجة بيرون مدير القصر العينى الآن وقد قرأ معى كثير من ترجمات الأغانى، وأنساب العقد .

وكنـت اعمـل فى مكتـب الإنكليز فـى مصر وذلك سنة قبل سفرى .

دُعيت لخدمة الباشا في مكتب الترجمة ، ولم أجد ميل إليها

وأمـا خـدم (خدمـة) الباشـا أو (الدولـة فـى مكتب الترجمـة) فإنـى دعيـت إليهـا كثيراً ومـع ذلـك لم أجد فى نفسـى ميل إليها وذلك لأسباب ، منها ان من ذهب إليها لا يـقدر أن يـكون له درس فى الأزهر . ثم من جملها من قرأ على الرنج الخواجة موخن المسـكوبى ثم الخواجة فرين المسـكوبى ثم سـألانى الذهاب إلى بترسبورج (بطرسبرج) فأجبت من بعد إنقضاء الزمان اللازم لتوفيه هذا الأمر حضرت إلى بترسـبورج فى ذراكم وتحت حماكم " (انتهى نص الرسالة) .

أثرنا إيراد رسـالة الطنطـاوى بحرفيتها ، لما لها من دلالة على التنشئة والشخصية وعلى نشوء المدنية حول قبر الوالى الصوفى وعلى التنشئة الثقافية الشائعة فى تلك المرحلة .

إنصرف لتحصيل المعاش من تدريس العربية للأجانب في القاهرة .. محج المستشرقين

ومنهـا علمنـا أن الطنطـاوى لم يتـم علومـه الأزهريـة بكاملهـا وإنمـا إنصـرف إلى تحصيـل المعـاش بعـد وفـاة أبيـه فـكان أغلب معاشـه من تدريـس العربيـة إلى جانب المستشـرقين وللذين كان بعضهم يفوقه فى السـن ،وكان المعلم يفيد من تلاميذه معرفة مناهج البحث التى تسلحوا به من علومهم الأوروبية ، فى تلك المرحلة كانت القاهرة محجا للمستشـرقين يأتون إليها ليعدوا أنفسهم إعداداً لغوياً عربياً وكان أغلـب هؤلاء من المهيئين لتسـلم مهمات كانت تحتاج إليهـا الدول الأوروبيـة الناهضة فى مهمتها الإسـتعمارية فى الشرق .

وقد شـهد كـثـير من المستشـرقين للطنطـاوى ، ويبدو إن الشـيخ محمد عيـاد الطنطاوى قـد كـان أيضاً على صلة

صداقة بالشيخ رفاعة الطهطاوى (1801 - 1873) واضع "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"، ولعل الطنطاوى قد تأثر برفاعة الطهطاوى حين كتب رسالته التى لاتزال مخطوطة تحت عنوان " وصف روسيا ".

مارس تدريس العربية ومواد أخرى بالأزهر للتلاميذ

وفضلاً عن تعليمه العربية للمستشرقين الأجانب فقد مارس الطنطاوى أيضاً تعليم بعض المواد فى الأزهر - على ما جاء فى رسالته - وكان له تلاميذ مصريون وعرب تأثروا به، ومنهم يوسف الأسير (1889 - 1915) الذى أمضى فى الأزهر سبع سنوات تتلمذ خلالها على يد الطنطاوى.

إن علاقة الطنطاوى بتلاميذه المستشرقين كانت وطيدة ، وفى أحيان عدة كان يجرى تعاون بينه وبين بعضهم فى تحقيق بعض الكتب التراثية العربية ، ومن بين تلاميذه المستشرقين الروسيين : رودلف فرين ونقولا موخين، اللذان طلبا منهم السفر إلى روسيا لتدريس اللغة العربية هناك إذ كان لهما شأن سياسى فى بلدهما .

إستقبله محمد على وحثه على درس الروسية ووعده بعطفه

يقول كرتشكوفسكى "المكاتبات الرسمية الخاصة بسفر الطنطاوى إلى روسيا استغرقت وقتاً ليس بقصير ، كان يلزم السماح بالسفر من قبل باش مصر محمد على ، ودعا هذا الأخير الطنطاوى وحثه على دراسة اللغة الروسية وإتقانها ووعده بعطفه وعنايته به .

دعاه القيصر في 1840 ليتعلم العربية وأدابها

وأخيراً تمت كل الرسميات كما هو مدون فى سجل الخدمة وقد كان بالفعل أن تسلم فضيلة الشيخ الطنطاوى دعوة من القيصر سنة (1840) ليأتى من مصر معلماً لتعليم اللغة العربية وأدابها فى القسم التعليمى لوزارة الخارجية .

وقائع السفر

غادر الطنطاوى القاهرة عبر نهر النيل تصحبه ام حسن، فوصل إلى الأسكندرية ، واضطر أن يبيت خارجها لأن أبوابها كانت مقفلة . وفى اليوم التالى زار قنصل روسيا فى المدينة ، وركب باخرة نمساوية رست فى جزيرة كريت ثم فى أزمير ، ثم وصلت الباخرة إلى أسطنبول بتركيا حيث أقام فى الحجر الصحى ثم قابل السفير الروسى الذى كلف

المترجم موخين بمرفقة الشيخ (وهو أحد قدامى تلاميذ الشيخ) ثم غادر الطنطاوى إسطنبول نحو اوديسا بادئاً تعلم اللغة الروسية ، وأتيح له أن يتجول فى المدينة فزار واليها وحضر" رواية الشيخ محمد " فى أحد المسارح الواقعة هناك فى أوديسا (أحد موانى أوكرانيا) ، وحضر حفلات رقص وسمع العزف على البيانو فى بيروت مع الأهالى ، ثم توجه الشيخ نحو بطرسبورج وكان قد مضى على سفره عند وصوله إلى بطرسبورج نحو ثلاثة أشهر ونصف الشهر .

حضر روايه مسرحية ، وحفل رقص وسمع البيانو ثم مضى

بدأ الطنطاوى إلقاء محاضراته فى بطرسبورج ، وقد وصفه أحد تلاميذه سافيليف فى رسالة إلى جريدة "فيدوموسّى " بطرسبورج قائلاً "من هذا الرجل الجميل فى لباس شرقى وعمامة بيضاء وله لحية سوداء كجناح الغراب وعينان تشعان بإشعاع غريب وعلى وجهه سمات الذكاء وقد لفحت الشمس بشرته ، وليست بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة - لقد رأيته مرتين يسير بخطوات وئيدة على بلاط شارع نيفسكى فى جبهته المضاءة بالشمس وقد لفت هذا الرجل نظرى كما لفت أنظار زائرى هذا الشارع فى أيام الجو الطيب . وتريد أن تعرف من هو ، وهو ضيف جديد من ضفة النيل الشيخ محمد عياد الطنطاوى . إن إسم الشيخ محمد الطنطاوى معروف لدى كل من يدرس اللغة العربية مع انه لم يؤلف شيئاً ، لكن كل الذين انتفعوا بخدماته والمدينين له بنجاح أبحاثهم ، يذكرونه بالشكر ويكنون له المودة ، مذيعين شهرته فى أوروبا .

المعلم القصير العمر

رجل جميل في لباس شرقي وعمامة بيضاء ولحيه سوداء وعينان تشعان ووجه ذكى

وبعد ما إطلع الشيخ الطنطاوى على الرسالة ، أوضح أن له بعض المؤلفات ، ومنها أشعار وكتاب فى البديع وآخر فى أسماء البشر والخيل وثالث فى الصرف والبلاغة وقد زار الطنطاوى مصر بعد أربع سنوات من إقامته فى بطرسبورج لفترة وجيزة ، وقد وصف ذلك فى مخطوطته " وصف روسيا " ثم عاد إلى عمله ويقول كراتشكوفسكى أن الشيخ كان فى البدء يعلم اللغة العربية عن طريق التفاهم مع

زار مصر بعد ذلك مره واحدة ثم عاد لعمله ، وعين أستاذاً في 1847

التلاميذ باللغة الفرنسية ، ثم أعتمد على اللغة الروسية بعد إتقانها لها . . ثم إتسع نطاق عمله فعين أستاذاً فى الجامعة عام 1847م .

من دفاتر الجامعة

وفى دفاتر الجامعة أن الطنطاوى كان يجمع فى تدريسه بين الطرق العملية والنظرية ، فيدرس قواعد اللغة ويشرح أمثال لقمان الحكيم ويقرأ مقامات الحريرى ، كما يقوم بتدريس الترجمة من الروسية إلى العربية وتعليم الخط العربى ، ومنذ العام 1855 زاد على ذلك تدريس التاريخ العربى .

نال شكر الامبراطور وأهداه ولى العهد خاتماً مرصعاً

بقى الطنطاوى منتظماً فى التدريس خلال 15 سنة . ونال رسالة شكر من القيصر ، وأهداه ولى العهد خاتماً مرصعا (بسبب مساهمته فى زخرفة الغرفة التركية فى جناح الكسندر فى قصر إيكاترينا فى ديسكى سيلو ، وفى ترصيع قصائد للطنطاوى كتبها بخط يده) . وقد رسم الفنان مرتينوف صور للشيخ الطنطاوى وعلى صدره وسام من القيصر ، فى عام 1855 م .

نكب الطنطاوى بصحته فأصيب بشلل فى رجليه ، ونال اجازة من الجامعة ووصل المر إلى حد أن يداه لم تعد تطاوعه .

أُحيل للتقاعد في 1861 وتوفى بعدها

وفى العام 1861 أحيل إلى التعاقد ، لكنه توفى فى نوفمبر من العام نفسه وصُلى على جثمانه فى مسجد بطرسبورج (لايزال قائماً إلى اليوم) ودفن هناك ، وقد كتب على شاهد القبر بالروسية كما كتب باللغة العربية الآتى :

"هنا مدفن الشيخ العالم محمد عيَّاد الطنطاوى الذى كان مُدرساً للغة العربية فى المدرسة الكبيرة الإمبراطورية ببطرسبرج المحروسة ، وتوفى فى شهر جمادى الثانى عام 1278 هجرية عن خمسين سنة " .

تراث العالم الأزهري النابغ

من إدراكنا لقدر هذا العالم الأزهري النابغ ، وضلوعه في علوم القرآن والفقه وتبحره في اللغة العربية وفهمه لدقائق الأدب العربي قديمه وحديثه ، وجمعه لمخطوطاته

وشِعره نجد أنفسنا أمام عالم جامع بين العلم والأدب والدين متقناً لعدة لغات : الروسية والفرنسية والألمانية والفارسية والتركية ، كان هذا هو دافعنا الرئيسى لمحاولة إلقاء الضوء على تراثٍ هام له ، وها هو كتابنا "من تُراث الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوي " أول محاولة جادة لنشر بعضاً من آثاره إعتماداً على المخطوطات التي تركها لنا الشيخ الطنطاوي .

محتويات كتاب من تراث الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوى

يقع كتابنا " من تراث الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوى " في عدة أجزاء :

الجزء الأول - بعد مقدمتنا هذه - ويشمل النص الكامل لكتابه الأهم "تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا " ، وهو كتابه الذى أصدره عام 1850 ميلادية - 1266 هجرية ولم يترجم للروسية حتى الآن ، بل ولم تصدر له طبعة عربية - سوى في طبعة محدودة لبنانية صدرت عن مؤسسة الرسالة ببيروت بالتعاون مع دار النشير للنشر بالأردن عام 1992 وقدمها محمد عيسى صالحية .

الجزء الثاني - ويشمل منتخبات من كتب الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوى "أحسن النخب في معرفة لسان العرب" والذي صدر في طبعة واحدة عام 1848م - 1264هـ - ما يزيد عن مائة وخمسة وستون عاماً ، وطُبع في مدينة لبسيا بمطبعة ولهام فوغل .

تلى هذا الجزئين عدد من الأبواب التي تضمنت على التوالي :

الوثائق والمخطوطات .

مؤلفات الشيخ عيّاد الطنطاوى .

مؤلفات وأعمال عن الشيخ عيّاد الطنطاوى .

السيرة الذاتية للشيخ محمد عيّاد الطنطاوى

- حررها الشيخ محمد عيَاد الطنطاوى .
- ومسيرة الشيخ الطنطاوى كما يرويها كراتشكوفسكى أغناطيوس .

الجزء الأول من كتابنا "من تراث الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى" تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا

كتاب تحفة الأذكياء هو رواية لرحلة الشيخ محمد عياد الطنطاوى إلى بلاد روسيا التى بدأت فى 24 محرم 1256 هـ / 26 مارس 1840 م من القاهرة حتى وصوله إلى بتربورغ فى 30 حزيران 1840 م، 11 جمادى الأولى 1256 هـ، حوت تفاصيلها في 52 صفحة من الكتاب، ثم عقد ثلاثة أبواب، إتصل الأولى منها، بمنشأ الروس وولاية نوفغورد Novgord.

حكى عن رحلته، ودور بطرس الأكبر وإنجازاته وإصلاحاته

والباب الثانى تعلق بتاريخ بتربورغ الطبوغرافى والاثنوغرافى والطبيعى والبشرى، فكان دراسة تاريخية، جغرافية جيولوجية، وقد جعل فى الباب الثانى ثلاثة فصول ركزت فى معظم مادتها على حياة بطرس الأكبر وإنجازاته وإصلاحاته، ودوره فى نهوض روسيا وتقدمها فى المجالات العسكرية والسياسية والإجتماعية والثقافية، ثم عرضاً للأحوال السياسية والعسكرية والإجتماعية فى بتربورغ خاصة وروسيا عامة فى عهد خلفاء بطرس الأكبر.

أرّخ لعادات الروس وأخلاقهم ودينهم

وأما الباب الثالث فقد أرخ فيه لعادات الروس وأخلاقهم وملابسهم ودينهم وعادات الزواج والتعميد والدفن ومراسم الولادة والأعياد والتنظيمات الإجتماعية ودور المرأة فى ذلك المجتمع وتقدم الروس فى العلوم والفنون والسكن وأنماط المعيشة ثم ختم الباب بفصل عاشر تناول فيها اللغة الروسية وقواعدها وكيفية الترجمة منها وإليها.

حرص الشيخ محمد عياد الطنطاوى فى بداية كتابه على توضيح البواعث التى دعته لتصنيف كتابه.

سأله الأصدقاء أن يسطر كتاباً يودع فيه ما يقف عليه من حال البلاد .. ففعل

عندما سألته جماعة من الأصدقاء والمعارف أن يسطر فى سفره هذا كتاباً، يودع فيه ما يقف عليه من حال البلاد التى يزورها من عجائب وغرائب، مع ما صادف ذلك من ميل أدبى، فسجل فى كتابه بدائع البلاد التى رحل إليها وغرائب عادات أهلها مع شذرات علمية ونكات أدبية وطرف استحساسية اختراعية ليضفى على الكتاب لمسة ظرف طرداً للملل وجذباً للقارئ، فقد أورد العديد من النكات

اللغوية واللطائف والمواقف الغرامية.

بدأ رحلته، وتحدث عن البلاد والعباد بعين فاحصة وناقدة

بـدأ كان خـط سـير الرحلة مـن القاهـرة إلى جنينة شـبرى ومرورا بزاوية رزين فالأسكندرية حيث إنتقل إلى باخرة نمساوية وصف درجاتها ونظام الإقامة فيها والخدمات التـى يقدمها العاملون فيها ثـم إلى جزيـرة جريد (كريت) العثمانيـة حيث تحـدث عن مبانيهـا ووصـف بناياتها وعدد سـكانها ومنها إلى مرسـى كنى وجزيرة سـير ثم إلى أزمير وقد اطنب فى الحديث عنها، فبحر مرمرة حتى إستانبول التى اقام بها أياما، ووصف ما شـاهده فيها بعين فاحصة ناقدة، من قباب ومؤسسات ومساجد وخاصة أيا صوفيا وغلطة ومصانع الـورق والمنتزهـات فيهـا ثـم إقامته قبـل ذلك فى الاسـكدار ورحيلـه إلى أوديسـا والإجـراءات الصحية بسـبب الطواعين التى كانت متفشـية فى بلدان العـرب وخاصة مصر، ومن ثـم ركب عربة تجرهـا الخيول بعد تزويـده بتذكرة مرور ومرافقة مترجم روسي خاص.

وصف الطريق إلى بتربورغ، وقارن أدق الأشياء وقارنها بحال مصر

وقـد وصف الطريق إلى بتربورغ فمر بنهر بوخ وكييف والغربول وموهلوف وبودن وسـكندرية الأخرى وفينيسـك وتسارسـكيا سـلو حتى وصل إلى بتربـورغ، وخلال عرضه لما شـاهده كان يحـرص علـى وصـف أدق الأشـياء ويقارنها بحـال مصـر، فالخبز نظيـف والماء عـذب والمتنزهـات تغطيها الأشـجار والورود والرياحين تشـرح الصدور وتنسـى الهموم، النـاس فرحون، نوبـات الموسـيقى تعزف والراقصـون يبهرون الأنظـار والأطفال يمرحون ويلعبون فـى الحدائق وقد أعدت لهـم وسـائل الكتب والتسـلية والمـدارس كثيرة ومنتشـرة فى البلاد الروسـية وخاصـة في مدارس البنـات، و المعامل كثـيرة لصناعة الطوب والقطران، والمرسـتانات والتياترات، حتى إستقر به الحال فى البلاد الروسية لمدة عشر سنوات.

الموسيقى تعزف والراقصون يبهرون الأنظار والأطفال مرحون يلعبون

باشر الشـيخ الطنطاوى عمله فى التدريس، ومن خلال دراسـاته لتاريخ تلك البلاد وما شاهده عيانا وما خبره تجربة سـجل من خلاله أحـوال البلاد الروسـية. وجـاءت فى ثلاثة أبواب، إحتوى الباب الأول على تاريخ روسـيا القديم، وتاريخ

تاريخ السكان الأوائل لروسيا القديمة

الصقالبة السكان الأول لتلك البلاد . وقد وصف الشيخ الطنطاوى معتقداتهم الوثنية وطرائق عيشهم وانتجاعهم من مكان إلى آخر وعشقهم للحروب وبراعتهم فى صنع السلاح ، القسى والحراب والسهام والسيوف ، وأورد الرواية الرومانية التى تفيد بأن أصل السكان سكيفى وصرماطى ومن ثم قام على بقاياهم الصقلب ، ومن ثم اتصلت تلك الشعوب باليونان عن طريق التجارة .

بناء نوفغورد وتقاليد الأهل في السياسة والإجتماع

كما أرخ لأصل ولا ية نوفغورد Novgrod وظروف بناء المدينة وعادات وتقاليد أهلها فى السياسة والاجتماع ، ومن ثم انضوائها ضمن الروسيا وسجل أصل ولاية كييف kiev، وراوية بنائها من قبل أخوة ثلاثة ، أطلق إسم الأكبر منهم على المدينة ثم انتقالها من الخضوع للخزر إلى الروسيا(1) ، ومن ثم كيفية اختيار فلاديمير سنة 988م أحد ملوك الروسيا للنصرانية وإعراضه عن الإسلام الذى سبق وأن عرض علية ، وذلك بسبب تحريم الإسلام للخمر ، والروسي حسب رأى فلاديمير لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصر، ولكن الشيخ محمد عياد يورد رأياً آخر يتصل بقرب بلاد الروس من بلاد الروم ، وفي ذلك تقوية للروس إذا ما اتخذوا ديانة النصرانية ، وسهولة وتمتيناً للروابط التجارية والعلمية (2) .

إختيار النصرانية ديناً للدولة

الأوضاع الجغرافية ووصف الطبيعة وبيوت الجليد

أما الباب الثانى ، فقد خصصه لدراسة أوضاع مدينة بتربورغ من الناحية الجغرافية والطبوغرافية والسكانية ، ووصف طبيعة مناخها وتجلد مياها حتى أن العربات تسير عليها وهي متجلدة ، وينحت فيها بيوت من الجليد ، ومن ثم تقدمها فى العلوم والفنون وطرز البناء واتخاذها عاصمة لبلاد الروسيا (3) ، وقد قُسم الباب إلى ثلاثة فصول :

---

(1) Levitsk , hikiev , a short guide , mistetstvo pudlishers . Kiev progress pudlishers , Moscow , 1780, pp, 25-34

(2) تحفة الأذكياء .

(3) تحفة الأذكياء ، 59 .

أصل كلمة بتربورغ

كان الفصـل الأول منها لأصل الكلمـة المكونة من مقطعين، بتر يعنى بطرس بانيها وبورغ يغنى بلد أومحل، فهى مدينـة بطرس بانيها ومتخذها عاصمة بلاده ، وقد فصل فى موقعها وخطوط طولها وعرضها وارتفاعها ، واتصالها بالأنهار، ووصـف بناياتهـا وأشـجارها ومياههـا وحدائقهـا وبسـاتينها وقصورها ورياحها وتجلد نهر والنيفا والفيضانات التى وقعت فى المدينة وما سـببته من كـوارث وأضرار ، وتحدث بأفاضة عن طول الليل والنهار فيها ودوام هطول الأمطار ، ولكـن كل ذلك لم يحل دون مداومة الناس على اشـغالهم واجتهادهم فى إنجاز أعمالهم (1) .

لم تحل الرياح والجليد دون مداومة الناس على أشغالهم

الجليد المنشور المنحوت المصقول

وقد تحدث بإفاضة عن بيـت الجليد الذى بنى على نهر النيفا أمام القصر في كانون الثاني 1740م حيث اسـتخدمت صخـور مكعبـة مـن الجليـد ، وعلى السـقف بنى ممشـى مربعة مزينة بكبوش مصورة ، وأمامه أعمدة عليها تماثيل وأبوابه وشبابيكـه مرخمة وملحق به حديـقة أشجار عليها طيـور وثـمـار وغيرها كـثير . كل هذه من الجليد المنشـور المنحوت المصقول (2) .

الحروب والخطط الروسية لروسيا

أمـا الفصـل الثانـى فكان فـى أسـباب اتخـاذ بتربورج عاصمـة روسـيا بـل وقاعـدة أوروبـا ، وحروبها مع السـويد ومجريـات ووقائع تلك الحروب والخطط الروسـية والتى أدت إلى النصر بفضل فطنة و كياسـة وقيادة القيصر(3)، وبعد إسـتقرارالأحوال أعمـل القيصر جهده فى تحسـين وتوسـيع وتنظيم المدينـة وتنمية العلاقات التجاريـة الخارجية ، ثم إلتفات بطرس لتمدين الروس بالتَقَدم فى العلوم، وأصدر عدة فرمانـات اتصلت بالعمارة فى بتربـورغ والإقامة فيها وتنظيم

تمدن روسيا بتقدم العلوم

(1) المصدر السابق ، 69 .

(2) انظر ، وصف البيت فى ص 71 – 73 من التحفة .

(3) حول الحروب ، انظر :

Marquis de custine , empire of the c zar cajoumey through etermal Russia (1839) U. S. A 1989. PP,115-135.

خطة القيصر في تنظيم الدولة : رعاية التعليم وإنشاء المكتبات

الجمارك ورعاية بعثات التعليم إلى أوربا للإطلاع على تمدنها وتقدمها ، وتأسيسه معاهد التعليم العليا وأكاديميا الملاحة وأكاديميا العلوم ومدارس التجارة والحرب وأكاديميا التصوير والمكتبات وإقامة المسارح، والتياتر، المتاحف ، وخاصة للتاريخ الطبيعي ، وأقام المكتبات لمطالعة الجمهور ، كما اهتم القيصر بطرس باحداث ضابطه سياسية للمدينة ، مثل اللوائح التنظيمية، الأبنية والشواطئ والخلجان والسرقة والنظافة والأسواق ومراقبة البيوت المتهمة واللعاب المحرمة وإلقاء القبض على المشاغبيين والبطالين ، ووضع لوائح تنظيمية للجمعيات وخاصة المختلطة ، حيث تراعى قوانين لاجتماع الرجال والنساء ، وحدد شروط وواجبات صاحب الدعوة والأصول التى يجب أن يراعيها عند التئام الجمعية (الاجتماع) فى بيته ووقته والأداب التى يجب أن تراعى (1)، ومجمله أن الفصل تناول أعمال ومنجزات وتنظيمات بطرس الأكبر ممدن روسيا ، ورائد نهضتها .

خلفاء بطرس الأكبر في الحكم

اما الفصل الثالث ، فقد جعله لخلفاء بطرس ، فترة حكم كترينا وبطرس الثانى ، والقيصرة حنا يوحا نوفنه، ثم القيصر نقولا الأول ، وقد تناول ما أنجزه كل واحد منهم من عمارة ومنشآت ومباني وتنظيمات اجتماعية واقتصادية وثقافية وجهود علمية والآثار التى خلفوها وتحكي جهودهم في تقدم الدولة .

عوائد الروس وأخلاقهم وأعيادهم وتقدمهم في العلوم والفنون

الباب الثالث في كتاب "تحفة الأذكياء في تاريخ بلاد الروسيا" هو أمتع ما فيه ، لأنه يزود القارئ والباحث بمعلومات اجتماعية عن عوائد الروس واخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون، ويعتقد الباحث بأن أهمية هذه الفصول تأتي من كونها هى المادة الرئيسية الثانية فى التراث العربى التى تناولت

---

(1) تحفة الأذكياء ، 125 – 12

بلاد الروس بعد رسـالـه ابن فضلان الشـهيرة والتي وقعت سـنـة 309هـ / 921هـ. هذا إذا استثنينا الإشـارت التـى وردت فى المراجـع العربيـة والتي جمعهـا الكسندرسـييل فى كتابه "أخبارأمم المجوس". من الأرمان وورنك والروس ، والملتقطة من مروج الذهب للمسـعودي وتاريـخ الأندلس لأبى بكر محمد بـن عمر بن عبد العزيزالمعروف بابـن القوطية ، ومن المقتبس والمسالك والممالك ونزهة المشتاق والإستبصار والمطرب فى اشعار أهل المغرب لابن دحية والكامل فى التاريخ ، وكتاب بسط الأرض لابن سعيد المغربي وأثار البلاد ، والبيان المغرب والمختصر فى أخبار البشـر ونهايـة الإرب والعبر ونفح الطيـب ، والبلدان لليعقوبي والأعلاق النفسية لابن رسته ونظم الجواهر لسعيد بـن البطريق وكتـب البلدان وخاصة معجـم ياقوت وغيرها مـن المؤلفات التى اكتفت بإيـراد نصوص محدودة ، بل لعلنا لانبالـغ إن قلت "كان كتاب الشـيخ الطنطـاوى هو الأكثر تفضيـلاً في تناولـه للجوانـب الإجتماعيـة و الإقتصاديـة للمجتمع الروسي من خلال مشاهداته و خبرته الطويلة فقد عاش هناك أكثر من عشرة أعوام ، وسجل ملاحظاته بدقة متناهية. و قد تناولت دراساته الإجتماعية الأمور التالية :

كتاب الطنطاوي هو الأفضل في تناوله للجوانب الإجتماعية والإقتصادية للمجتمع الروسي

ـ عوائد الروس

الروس كُرماء حسنى المعاشرة

ذهـب طنطـاوى إلى أن عـادة الـروس عامـة الكـرم والإنفاق و حسـن المعاشرة ، و هم يميلون إلي الفخر و الكبر ، وقـد عزا ذلك إلي تقدم الروس في التمدن و العلوم زمن بطرس و لكنـه أورد هنا مقالـة للعلاء بن صاعـد ، صاحب طبقات الأمـم ، ليذكر بمـا كانو عليـه قبل عهد بطـرس الكبير، فقال "مقتبسـاً من ابن صاعد " أخلاق الروس موصوفة بحسن الشـكل و بيـاض اللون و قابلية الصنائـع و لطافة الخدمة و إطاعة السيد ، و قلة العبادة و قلة الصلاح و كثرة الأباق"[1]، وقرر الطنطاوى بأن الروس كانوا في القديـم مشهوريـن بالجبن

إبن صاعد: الروس موصوفون بحسن الشكل وقله العبادة

(1) تحفة الأذكياء ، ق 151 .

المجتمع الروسي ليس من مرتبة واحدة ، ولكل مرتبة إمتيازاتها

حتي إستعبدهم التتار ، أما الآن فإنعكست القضية ، و الناس في المجتمع الروسي ليسوا متساويين و لا من مرتبة واحدة ، بل هم مراتب ، و لكل مرتبة إمتيازاتها و حقوقها و لايجوز لأحد أن يتخطى مرتبته إلا في النادر ، و هذه المراتب هي :

المرتبة الأولى :

مرتبة الأعيان يرثها الإبن عن والده

الأعيان ، المتوارثة ، حيث ان الرتبة يرثها الإبن عن والده ، و هؤلاء يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد ، ولا يحرمون من مجالس الشرف ، وإن تزوج أحدهم بإمرأة دون مقامه رفع رتبتها و تسمت بإسمه ، غير أن هذه الرتبة تنقسم بدورها إلى درجتين :

ـ أعيان الأعيان : وهم من كانوا أعياناً قبل زمن بطرس الأكبر . وأسماؤهم محفوظة في الكتاب الثالث .

ـ وأعيان : وهم من كانوا بعد زمان بطرس الكبر . وأسماؤهم في الكتاب السادس .

تربية البنات في الدير بإذن من القيصر

والتفاضل بينهم يكون إذ يسمح للفئة الأولى بتربية بناتهم فى دير أسمولينى بدون إذن القيصر ، فى حين أن الأعيان لا بد لهم من الإستئذان من القيصر نفسه حتى يمكن لبناتهم الإلتحاق بتلك المدرسة .

كما إنه إذا انضم أحد أعيان الأعيان إلى النظام (الهيئة السياسية) عُين برتبة وكيل ضباط (تحت ضابط) وبعد سنتين يترقى إلى رتبة ضابط .

المرتبة الثانية :

الأعيان الذين لا تتوارث رتبهم ، وهم الغرباء والمستخدمون الذين أنعم عليهم القيصر بالأوسمة ، حتى إذا ما أنعم عليهم القيصر بالرتبة عدوا من الأعيان المتوارثة رتبهم ، ولهم إمتيازاتهم فى الأرض وشراء العبيد .

المرتبة الثالثة :

التجار ، وهم لا يعدون من الأعيان ، ولو ملكوا الملايين ، حتى إذا تزوج من الأعيان حط رتبتها ، ويمكن أن يرقى لرتبة الأعيان إن فعل وقدم خدمات جليلة للدولة ، ولكنها نادرة، وهم لا يدخلون النظام إلا طوعا ويكون وكيل ضابط وبعد ثلاث سنوات يترقى ، ولهم الخروج من النظام متى شاءوا وإذا أفلس التاجر أصبح من أولاد البلد ولكن سمح للتاجر بعدم حلق ذقنه ، إذ أن العادة بأن اطلاق شعر اللحية لا يكون إلا للأعيان وأعيان الأعيان والأمراء والأسرة القيصرية .

التجار ليسوا الأعيان ولو ملكوا الملايين .

ولا يطلق اللحيه إلا الخواص

المرتبة الرابعة :

أولاد البلد ، وهم عامة الناس ، وبأمكانهم الترقى إلى رتبة التجار ، فاذا دخلوا النظام فلهم حكمهم .

أولاد البلد.. عامة الناس

المرتبة الخامسة :

الفلاحون ، ويبقون كما هم إلا إذا أخذوا فى النظام فلهم حكمهم وإلا فلا يترقون إلى المرتبة الأولى .

المرتبة السادسة :

العسكر ، إلا إذا ترقى العسكري إلى رتبة يستحق فيها كسوة الأكتاف بالقصب صار من الأعيان ، وبعد خدمة خمسة عشر سنة ربما يترقى إلى وكيل ضابط (تحت ضابط) ، إذا كان حسن السلوك ثم إلى مرتبة ضابط أو يمكنه التقاعد .

للعسكر كسوة الأكتاف بالقصب

المرتبة السابعة :

الأرقاء ، ولا يجوز شراؤهم إلا من قبل الأعيان مع الأرض وليس لهم سوق يباعون فيه كما عند العرب ، ويجوز اعتقاهم أويشترون أنفسهم والرقيق حتى ولو اغتنى لايصير عيناً إلا إذا صار عسكرياً وترقى .

ليس للأرقاء سوق يباعون فيه كما عند العرب

نظام لتربية وتعليم الأعيان

وقد وضع نظام دقيق لتربية وتعليم الأعيان ، فمن درس فى المدرسة الإمبراطورية الكبرى ووصل إلى درجة النجيب " كايذيذان" يكون من الصنف العاشر ، ان أحسن البحث والإجابة ، والإ فيعطون درجة "التلميذ المجتهد" ، وإن قصر فلا يستحق شيئاً أما إن درسوا فى المدارس الصغيرة ، فلا يستحقون رتبة إلا إذا أعطت لهم ، وتكون الرابعة عشر ثم إلى رتبة الجنرالات .

من أحسن الدرس صار من الصنف العاشر

من أعمل الجد والإجتهاد أعطى رتبة مجستير

وأما ابن التاجر إذا درس فى المدرسة الكبيرة ووصل مرتبة النجيب ثم أعمل الجد والإجتهاد فى البحث والمناقشة ، أعطى رتبة مجيستر يعنى "عالم" ويكون من الصنف التاسع ثم إذا اجتهد أيضاً ، وعمل بحثاً ونوقش فيه ومهر وصل إلى رتبة الدكتور وتعنى "فاضل"، ويكون من الصنف الثامن ثم إذا خدم وصل إلى مرتبة "السابع" ومن الممكن أن يترقى إلى رتبة الجنرال .

أما فى الملابس :

منذ عهد بطرس غدت ملابس الروس كالأروبيون

فقد وصف الطنطاوى ملابس الروس ، قارن بين أزيائهم القديمة والجديدة ، ففى القديم كان لباسهم مقتصراً على قميص افرنجى ، من الشيت أو البفت أو الجوخ ثم جبة طويلة محزوقة ، وأما القسس فلهم جيب طويلة عريضة الأكمام مثل الفرجيات عند علماء مصر ، ولكن منذ عهد بطرس، غدت ملابس الروس كما ملابس الأوربيين ويتكون من قميص أبيض ، غطى جيبه بقطعة بفت عريضة ثم الصديريات المفتوحة ثم السروال الضيق والجبة الافرنجية.

لكل فئة ملابسها

ولكل فئة من فئات المجتمع ملابسها الخاصة ، فالضباط يلبسون بدلة بطوق قصب بحسب الرتبة ، ومنهم من تكون بدلته كلها مقصبة .

للمناسبات ملابس خاصة

وللمناسبات عند الروس ملابس خاصة ، فبدلة الرقص هى الولبة ، ولغطاء الرأس أشكاله من القبعات (البرانيط) ، ومنها المسنمة الريشة أو بلا ريش ، أو القبعة السوداء المدورة

العالية بحواف عراض ، مستطيلة أومربعة ، وتلبس النساء مثلها - وفى آخرها مثل الدبوس فوقه كرة وشرابة من شعر الخيل .

لباس النساء وفساتين الرقص

وأما لباس النساء فتتكون من القمصان والألبسة والإزارات المربوطة على الوسط ، إضافة إلى الفساتين المعمول لها الكرسيت (1) ، أوفساتين واسعة الجيوب ، ويربطن على أعناقهن مناديل ،وأما فساتين الرقص فتكون بلا أكمام ونصف صدورهن تكون مكشوفة ، وفي الأيدي توضع الكفوف . والفلاحات يلبسن السرفات وتضعن على رؤوسهن قبعات عريضة .

عادات الزواج

أما عادات الزواج عند الروس : فتكاد أن تكون كما هو معروف .

إن وقع العشق كانت الخطبة .

والروس لا يحجبون نسائهم عن المجالس

فالروس لا يحجبون نسائهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه . فيتم الإختيار المباشر بواسطة الخاطبة . وحيث أن الطلاق عسر ، فلا بد من معرفة الطباع ، فإن وقع العشق ، كانت الخطبة وتقديم خاتم الذهب ، ويتم الزواج ومراسيمة بحسب أصول الديانة النصرانية ، والإحتفال كما هو معروف ، لكن الانتقال لا يكون إلا بعربات الملك ، ولكن فى اليوم الثانى يقوم العروسان بزيارة الأقارب حيث تعقد حفلات الرقص ، وإذا ما اختلف مذهب العروس والعريس فإنه يتم عقد القران مرتين ، مرة عند قسيس الطائفة التى تنتمى إليها العروسة ومرة أخرى عند القسيس الذى ينتمى إليها العريس ، وأما المهر وكل ما يتعلق بالأثاث والبيت فتعطيه الزوجة . وقد تحدث الشيخ الطنطاوى عن حالات الغش والخداع بين العشاق ، حتى إذا ما نال الشاب إربه اختفى من حياة الفتاة المخدوعة . وأشار إلى إفتراق العديد من الأزواج عن زوجاتهم واختيار كل واحد معشوقة ليساكنه .

---

(1) خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفع الخصر .

وأما عادات التتر فى الزواج فكما عند المسلمين ، وليمة فعقد نكاح بخطبة نكاح ووكيل وشهود ومهر يدفعه الزوج ، ومن ثم تقديم الهدايا للضيوف وأخذ النقطة من الضيوف .

وتناول الطنطاوى عادات الروس فى التعميد والإحتفالات التى تقام بالمناسبة ، كما شرح الأعياد التى يحتفل بها الروس ، والأيام التي تعطل فيها المدارس والمعاهد والجامعات وكان عددها 28 مناسبة .

أما (الفصل التاسع) فقد اشتمل على وسائل التسلية العامة للناس ، ومنها التياتر والنوبة والرقص والمسخرات ولعب الورق وجري الخيل ، حيث سجل تاريخ نشأة التياتر وكيف وصل إلى روسيا سواء من إيطاليا أو فرنسا أو انجلترا أو النمسا ، حتى غدا دارأوبرا تعرض فيه الفنون الروسية والأوروبية الأخرى ، كما فصل فى تكوين الفرق الموسيقية ، (النوبة) ، وتحدث عن آلاتها ولاعبيها وقارنها بمثيلاتها فى مصر ، وعلق الطنطاوى على الرقص ، ووصفه بانه مجرد حركات خالية من الفحش وهز الأرداف ، وفيه يجتمع الرجال بالنساء ، حيث يتكلف الرجل فى مخاطبة المرأة مالايتكلفه فى مخاطبة الرجل ، وذهب طنطاوي إلى أنه لو لم يكن من ثمرات اجتماع النساء بالرجال إلا قصرالنظر عليهم وعدم التعلق بالغلمان لكفى ، كيف وفيه فوائد اخرى من العشرة وحسن الأدب وغير ذلك ، وقد قال في ذلك شعراً :

من ثمرات إجتماع النساء بالرجال قصر النظر عليهم ، وعدم التعلق بالغلمان .. وهذا يكفي

ولو أن النساء تبدو بمصر ما سمعنا تغزلاً في غلام

ولو أن النساء تبدو بمصر	ما سمعنا تغزلاً فى غلام
كل هيفاء كالغزال بوجه	ساطع نوره بغير لثام
قلبت برقعاً بعقرب صدغ	أفمن لدغه الخدود دومي
ولكل امرئ جليس أنيس	فاتقوا الله يا أولي الأحلام
أي عذر في عشق رب عذار	في هوي الغانيات أي ملام

وأما أنواع الرقص التي كان يمارسها الروس ، فالفلس، والقادريل الفرنساوي والمازورق وقد وصفها وصفاً دقيقاً ، ويبدو منه أن الشيخ كان راقصاً متفوقاً وفصل في وسائل وأساليب المسخرات ولعب الورق وأنواعه و كيفيته وجري الخيل وطرائقه وأنواعه حيث خلا من المراهنات والخسارة المادية وقام علي المهارة في أداء حركات الفروسية .

وأفرد فصلاً لتقدم الروس :

إنشاء الأكاديميات وأثره في تقدم العلوم والفنون

تقدم الروس في العلوم والفنون وله أثر في إنشاء الأكاديميات مثل العلوم والتصوير والطب وغيرها وتأسيس المدارس الكبري مثل المدرسة القيصرية الكبري حيث يدرس فيها الطلبة أربع سنوات بعد المراحل الأولي ، و يتلقون فيها علوم الفقه والدين والرياضيات والأدبيات والمنطق وعلم المعادن الطبيعية والجغرافيا والتواريخ والألسن حتي الألسن الشرقية ، كالعربي والتركي والتاتاري والفارسي والأرميني و الكرجي و غيرها .

حلقات البحث للترقيه ، ومكاتب للأطفال

و يعقد لهم في نهاية كل عام حلقة بحث لكل موضوع ، فإن أجاب رقي إلي السنة الثانية : وكان في روسيا ست مدارس كبري و 230 مكتباً للأطفال ، يتعلم فيها الصبيان والبنات ؛ النحو والمنطق والرياضيات والأدبيات والجغرافيا و التاريخ والألسن و الرقص والتصوير والموسيقى و الخياطة و شغل الطارة والإبرة والنسيج للبنات ، والأطفال يزاد اللاتيني والروماني القديم كما للصم والبكم مدارس ، وقد حضر الشيخ الطنطاوي حفلة رقص للصم والبكم ، حيث كان العازف على القانون أعمى والراقصون صم بكم ، وأدي العزف نوبة راقية ورقص الصم والبكم بحركات و تعبير أدهشه .

الشيخ حضر حفلاً راقصاً للصم والبكم فإندهش !!

للقطاء بيوت للتربية ، وهو ما لم يكن في ديار الإسلام

وحتي اللقطاء فلهم بيوت للتربية ذكوراً كانوا أم إناثاً، وقد قرر بأنه حتي تاريخه لم يكن هناك بيوت للقطاء في ديار الإسلام .

كما نبه إلي أنه لا حرج من أخذ الأديب أو العالم أجراً إضافياً عما يكتبه في الجرائد والمجلات ، و ضرب مثالاً بما تقاضاه الأديب مسيو سكريب حيث بلغ دخله الإضافة 1832م ، 48.000 فرنك .

المجلات والجرنالات تحوي نبذاً من العلوم والحكمة

و فصل طنطاوى في المجلات و الجرائد التي كانت معروفة عند الروس مثل الجرائد اليومية وهي ، نخل الشمال، السقط ، أخبار بتربورغ ، والشهرية مثل ، ابن الوطن، والكتابة الوطنية و المعاصر ، وكازيطية (مجلة) الأدب، وخزانة الكتب ، ثم الجرنالات الشهرية للأطفال والتي تحوي نبذاً من العلوم والحكم والحكايات المسلية .

كما قدم الطنطاوي في الفصل التاسع وصفاً لسكن الروس و معيشتهم ومركوبهم مما لا يختلف كثيراً عما هو معروف في أوروبا بصفة عامة ، ووصف أنواع الطعام التي يتناولها الروسي عند الإفطار و الغذاء و عند المساء ، وعادات التدخين وحتي إستخدام النرجيلة ، وكذا العربات بأنواعها التي تجرها الخيول أو عربات الزحلقة .

لمحة سريعة عن اللغة والنحو والإشتقاق

وختم كتابة بإعطاء لمحة سريعة عن اللغة الروسية و قواعدها النحوية و كيفية إشتقاقها من اللسان الصقلبي والتاتاري والفرنساوي و النمساوي ، وإلي هنا حبس عنان قلمه قائلاً :

يراعي كفي الخوض فالبحر زاخر

ولا تتجاري قد جري منك يا كفي

وضع مدينة الروس وتقدمهم أمام أولى الأمر

لقد قام الرائد الشيخ الطنطاوى رحمه الله بوضع مدنية و تقدم الروس أمام أولي الأمر سواء في مصر أو الدولة العثمانية ، فكأن كتابه جاء تقريراً مطولاً يهدف إلي التنوير والإصلاح ، يحاول من خلاله أن يحذو حذو الشيخ الطهطاوى فهل كان لتقريره الأثر المنشود .

ما بين تخليص الإبريز فى تلخيص باريز
وتحفة الأذكياء ، بأخبار بلاد الروسيا

ما بين تخليص الإبريز للطهطاوى وتحفة الأذكياء للطنطاوى

ليس هناك ثمة شك فى أن رحلة الشيخ محمد عياد الطنطاوى إلى بلاد روسيا لم تحظ بذات التأثير فى التراث الثقافى العربى الحديث مثلما حظت رحلة الشيخ رفاعة الطهطاوى إلى بلاد باريز ، بل يمكن القول أنه لم يسلط أى ضوءٍ على رحلة الأول لبلاد روسيا على مدى ما يزيد عن مائة وستون عاماً ، فى حين أن ما نالته شهرة "تخليص الإبريز" وإصداراته وترجماته أعطت لهذه العمل قدره .

ولعل مرد ذلك يعود لعدة أمور منها :

روسيا .. بلاد آخذه في النهوض

أولاً: كانت رحلة الطهطاوى لبلاد تقدمت فى مجمل مساراتها الدستورية والتعليمية والاجتماعية ، ناهيك عن إزدهار الصحافة والحريات والثقافة بشكل عام ، أما رحلة شيخنا الطنطاوى فقد كانت لبلادٍ آخذة فى أسباب هذه المدنية وتسعى للنهوض بمجتمعاتها .

رحلة الشيخ لروسيا قطعت أوصاله بالبلاد

ثانياً: عاد الطهطاوى بعد رحلته لباريز لبلده مصر ووضع ماشاهده وخبره وصادفه فى كتاب ليكشف به عن معالم الحياة فى فرنسا ، وإنخرط على إثر ذلك فى الحياه العامة محرراً ومترجماً للسان العربى ، بينما قطعت رحلة "الطنطاوى" لبلاد روسيا أوصال شيخنا ببلده إذ عاش مغترباً ما بقى له من عمر ، ولم يزر مصراً إلا لمدة قصيرة ، وظل معلماً للعربية بالبلاد الروسية .

الطنطاوى سار على نهج الطهطاوى

ثالثاً: سار الشيخ "الطنطاوى" على نهج الشيخ "الطهطاوى" ، فقد بينت الرسالة المتبادلة بين الشيخين : الطنطاوى والطهطاوى تشابه المناهج فى وصف رحليتهما ، فتضمنت رواياتهما الوصف الجغرافى والسكانى ونظام الحكم والملبس والبشر ومعالم نظم الصحة والتعليم والتربية والثقافة ، كما أهتمتا بالوسائل الاثنوجرافية من مواقع المدن ومناخاتها وطبيعة تربتها وطبقاتها ، إلى جانب

الرحلة هى دراسة مقارنه لموضوع المرأة والسفور

المظاهـر الحضاريـة المتمثلة فى فـرع المعرفة ، وأسماء المعاهد والجمعيـات الثقافيـة والعلميـة وأسمـاء المكتبات والمتاحف والحدائق ، إلى جانب مقارنـات – فى صلب نصوص الروايـتين - بـين واقع الحـال فى هذه البلـدان بالمقارنة بالحـال فى مصر خصوصاً فى موضوع المرأة والسـفور ، بل والحريات بشـكل عام.

رسالة الشيخ إلى رفاعة الطهطاوى

من رسـالة الشـيخ محمـد عيـاد الطنطـاوى إلى زميله رفاعة الطهطاوى :

يـكتب الطنطاوى إلى زميله الطهطاوى فيقول :

مشغوف بمعيشة الأوربيين ، وانبساطهم وحسن إدارتهم وترتيبهم وبتربورغ لا تنقص عن باريز في ذلك بل تفضلها في أشياء

أنا مشغوف بكيفية معيشة الأوربيين وانبساطهم وحسن إدارتهم وترتيبهم خصوصاً ريفهم ، وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار إلى ذلك مما شاهدتهم قبلى بمدة فى باريز إذ بتر بورغ لا تنقص عن باريز فى ذلك ، بل تفضلها فى أشياء كإتساع الطرق ، وأما من قبل البرد فلم يضرنى جداً ، إنما ألزمنى ربط منديل فى العنق ولبس فروة إذا خرجت وأما فى البيت المدافئ المتينة معده لإدفاء الأوض ، وطالما أنشدت عند جلوسى قرب النار :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه فى الشتاء فليصطل

الرحلة تُعد عملاً أدبياً خرج للنور ليكشف الحال

رابعاً: تعد رحلة الشيخ الطنطاوى عملاً أدبياً ذو قيمة كبيرة خرج للنور فى النصف الثانى من القرن التاسـع عشـر ليكشـف لنا حال لغتنـا ، والمصطلحات التى كانت سـائدة آنذاك . تعرض الرحلة للعديـد من التورية والتلميح والنحت والإشتقاق والإقتباس وتزدان بمواويل وطُرف ولطائف عديـدة ونراه ينهج منهجاً علميـاً إذ يُرجع كل معلومة يذكرها - أو جـل ما ذكـره - إلى مصادره الأساسـية ، وكأنه يؤكـد

حرفية ومرجعية ما ذكر.

رحلة الشيخ الطنطاوى لم تحظ بما تستحق من شهرة

لم يشهد أي بلدٍ عربى صنوفاً روس غير مرغوبٍ فيهم

خامساً: رحلة شيخنا الطنطاوى - ولعلك بعد قراءتك لها عزيزى القارئ - ستتيقن من أنها لم تأخذ ما تستحق من شهرة، وما تستحقه من قدر، ففضلاً عن أن لم يتم نشرها كاملة فى بلاد النيل من قبل، لم يحظ كاتبها بأى من الاهتمام من دوائر بلاده الثقافية والعلمية. قد يكون مرجع ذلك قليل إهتمام من ذوى الصله ببلاد روسيا بعد أن إنحاز البصر، والفكر من أولى الأمر لبلادٍ غير بلاد روسيا ... وكيف لا ؟ وقد ملئت سماواتنا العربية هوىً بكل قصِى عداهم، بل قد يكون الأمر أمر استعمارٍ عاث فى بلاد العرب فساداً ما بين مستعمرٍ أوربى أو أمريكى، بينما لم يشهد أى بلد عربى ضيوفاً غير مرغوب فيهم من بلاد روسيا.

مشروع الأرشيف الإلكترونى

ما تركه الشيخ هو تراث معرفى ثقافي يلزم أرشفته

حول مشروع الأرشيف الإلكترونى* لمخطوطات الشيخ محمد عياد الطنطاوى بجامعة سانت بطرسبورج الحكومية ومكتبة روسيا الوطنية بسانت بطرسبورج

ينتسب التراث الثقافى الذى خَطّه الشيخ محمد عياد الطنطاوى خلال رحلته فى الحياة، ينتسب إلى التراث المعرفى والثقافى العالمى إذ أنه يشهد ومنذ وقتٍ مبكر على رغبة العالم العربى فى الإنفتاح على العالم المتمدن والتواصل معه، ويشهد أيضاً على إهتمام العالم المتمدن - منذ أمدٍ - بمد جسور هذا التواصل، والترحيب والإحتفاء به.

---

* دراسة حول مشروع الإصدار الإلكترونى للأعمال المخطوطة الكاملة للشيخ محمد عياد الطنطاوى.
كتب الدراسة عن جامعة سانت بطرسبورج ماتفييف ا. س. & تشورنوف ا. ف وعن مكتبة روسيا الوطنية بسانت بطرسبورج يستريبانوف أو. م ويشرف عليه البروفيسيور ن. ن. دياكوف، منشورة ضمن أعمال مؤتمر "روسيا والعالم العربى – احتفاءً بالذكرى 200 لمولد الشيخ محمد عياد الطنطاوى – نوفمبر 2010 - جامعة سانت بطرسبورج الحكومية – روسيا.

جامعة سانت بطرسبورج لها دور فعال لدفع التواصل

من هنا فالشكر والتقدير واجبان للجامعة العريقة "جامعة سانت بطرسبورج الحكومية" بمدينة سانت بطرسبورج الروسية على ما تقوم به من دور فعال فى إعداد أجيال من الروس يتحملون مسئوليات دفع التواصل بين الشعبين العربى - والروسى فى المجالات الثقافية والأدبية والعلمية .

الجامعة تتبنى مشروع الأرشفة الألكترونية لأعمال الشيخ

تبنت جامعة سانت بطرسبورج الحكومية بالتعاون مع مكتبة روسيا الوطنية بمدينة سانت بطرسبورج مشروعاً للأرشفة الإلكترونية لمخطوطات وأعمال شيخنا "محمد عياد الطنطاوى" إعتماداً على الكم الهائل من أصول هذه المخطوطات والأعمال المحفوظة بسجلاتها .

كاظم بك أول من جَمّع المخطوطات

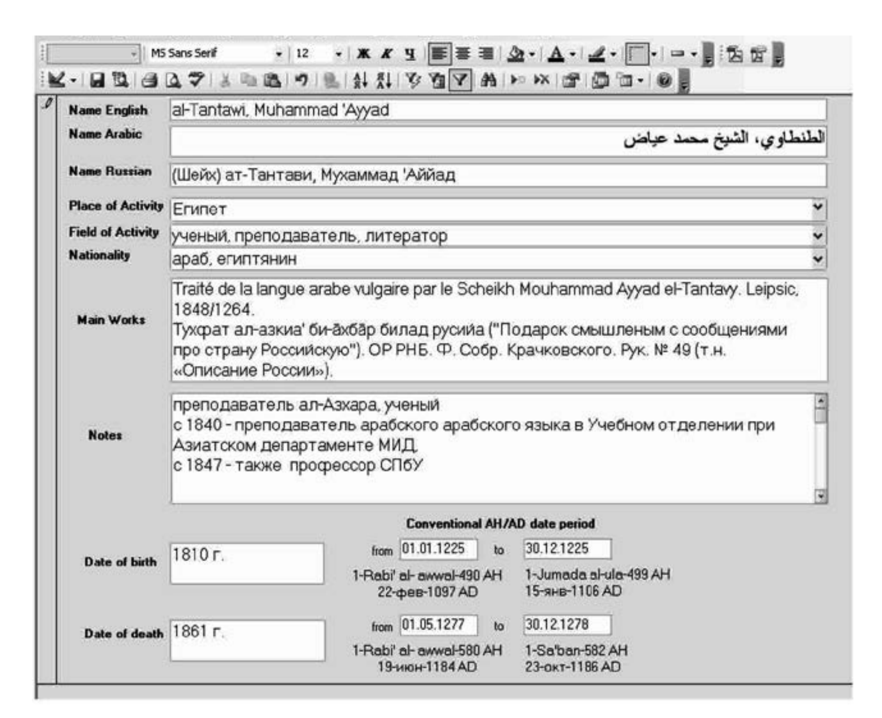
بدأت عملية جمع مخطوطات الشيخ عياد الطنطاوى بالإضافة لأعمال ومخطوطات أخرى ذات صلة ، وحفظها بجامعة سانت بطرسبورج الحكومية منذ عام 1971 ، إستجابة لمشروع كان قد وضع إطاره أول عميد لكلية اللغات الشرقية بالجامعة كاظم بك (1802 - 1870) . حيث تم جلب ما بالمكتبة الروسية الوطنية من مخطوطات بسانت بطرسبورج - وهو ما يمثل قرابة ثلث هذه المخطوطات ـ ، وقد بلغ عددها ما يقارب 256 وحدة تأخذ الترقيم من 684 إلى 839 ، منها أشعار ومواويل تربو على 300 مخطوطة .

السمة الموسوعية للمخطوطات هى دافع الجامعة

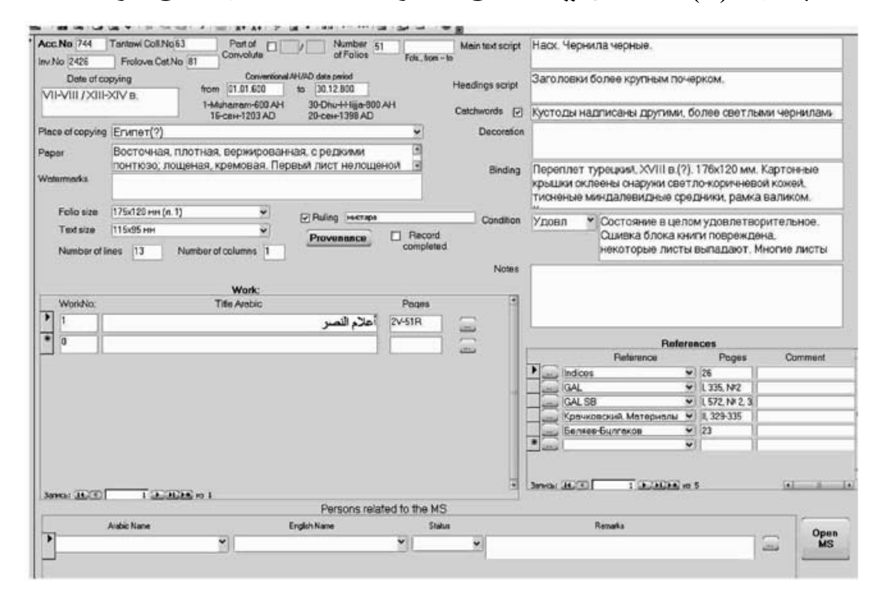
السمة الموسوعية للإهتمام العلمى بهذا العمل كانت هى دافع الجامعة الروسية لهذا العمل ، وهى ما يسمح ليس فقط بالحفاظ على قيمة هذه المخطوطات التاريخية والثقافية ، وإنما يمتد ليشمل فهماً أكثر وعياً وتأصيلاً لمساهماته وغيره من العلماء ، ويمنح قدره تحليلية عميقة لها .

الأرشيف الألكترونى سَيُتاح للدارسين

لهذا تطمح الجامعة بعد نهو هذا المشروع إلى جعله متاحاً للدارسين والمهتمين . وقد تم بالفعل إنشاء قاعدة البيانات التى تسمح بالتفسير والقراءة والتحليل للمخطوطات (والحاضرة بصور منسوخة لها) .



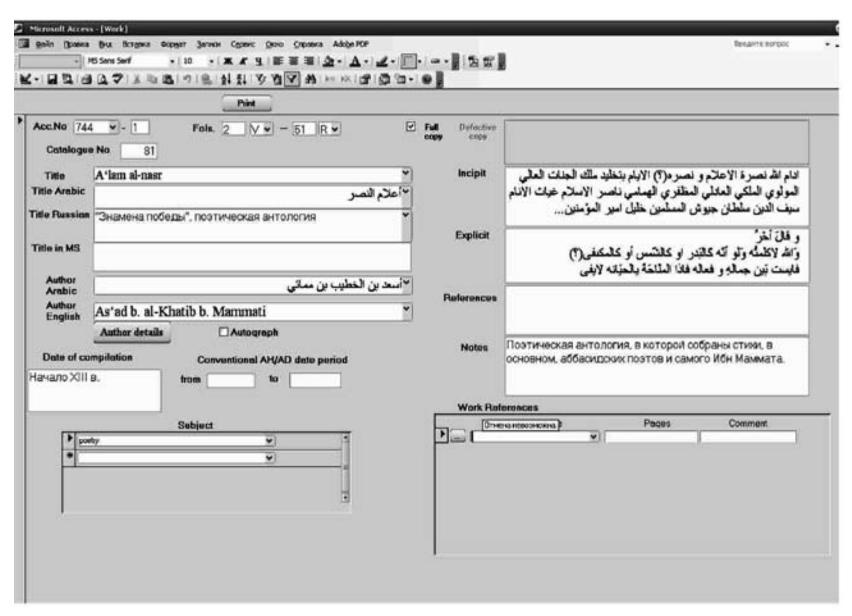
جدول (1) شكل يتضمن معلومات مختصرة عن المؤلف



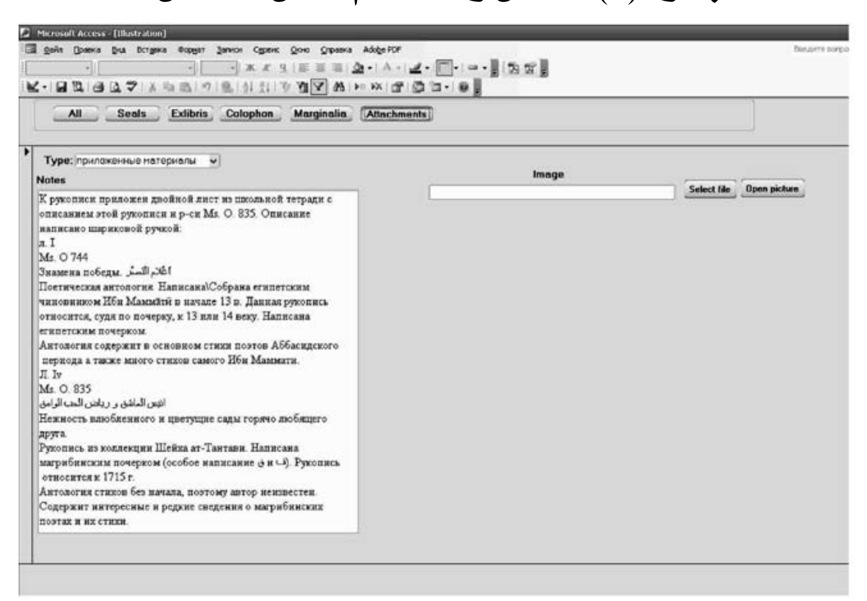
جدول (2) شكل وصف عام للمخطوط

المراجع :

* بعض الجداول القياسية لشروح مخطوطات الشيخ "محمد عياد الطنطاوى" فى مشروع "الأرشفة الإلكترونية لمخطوطاته التى يشرف عليه البروفيسور ن. ن. دياكوف – من جامعة سانت بطرسبورج الحكومية .



جدول (3) شكل وصف عام لعمل منفصل



جدول (4) شكل وصف عام لمواد توضيحية إضافية (مراسلات , أختام ملكية , ملحقات , وأشياء أخرى.)

قصة العثور على مخطوطة « تحفة الأذكياء* »

قصة العثور على مخطوطة « تحفة الأذكياء»

روى كراتشكوفسكى فى كتابه مع "المخطوطات العربية"* خبر عثوره سنة 1924م على نسخة من مخطوط "تحفة الأذكياء" ، ذلك أن أحد مستشرقى الألمان أشار فى فهارسه التى صنعها لمكتبات استانبول "وجود نسخة من "تحفة الأذكياء" فى خزانة مسجد رضا باشا ، والعنوان يقول " تحفة أولى الألباب فى أخبار بلاد روسيا للشيخ محمد عياد الطنطاوى" كتبه بخطه سنة 1850م / 1266هـ وأهداه إلى السلطان عبد المجيد ، وقد تسلم كراتشكوفسكى نسخة منه سنة 1927م ، ذهب بعد فحصها إلى أن المخطوط ليس بخط الشيخ الطنطاوى وإنما بخط أحدهم ، ولما كان كراتشكوفسكى يميل إلى هذا الرأى ، فإن الإجازة رقم 317 المحفوظة فى دار الكتب المصرية تدعمه فيما ذهب إليه ، فالإجازة بخط الشيخ الطنطاوى.

حملوا إلى كراتشكوفسكي كومة أوراق قديمة فإذا بها المخطوطة بخط الشيخ

ثم حكى كراتشكوفسكى أنه قد حمل إليه أحد تلاميذه كومة أوراق إشتراها من بائع كتب قديمة ، عليها عبارة "أ.ن" ، عرف كراتشكوفسكى لذى تصفحها بأنها مسودة كتاب تحفة الأذكياء كتبها طنطاوى بخطه وعليها تصحيحات وتعديلات ، وأما الأحرف أ.ن ، فترمز "لا يرينى نوفل الطرابلسى" الذى خلف طنطاوى فى التدريس بالقسم التعليمى للغات. "تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا" تحفظ نسخة منه فى دار الكتب لجامعة استانبول، ونسخة أخرى منه تصان فى مكتبة الخزانة الشرقية فى لينينجراد ، ونُوه بجهود كراتشكوفسكى بهذا الصدد ، والذى تحدث عن اكتشافه لهذا الأثر.

المراجع :

* كتاب "مع المخطوطات العربية" - صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر - تأليف كراتشكوفسكي - تعريب الدكتور محمد منير مرسي ، الناشر دار النهضة العربية - القاهرة 1969 - ص 169 - 177 محفوظ بمكتبة الإسكندرية تحت رقم 0140044

من حسن الطالع إستقرار النسخة في جامعة استانبول

يبدو أن النسخة كانت محفوظة فعلاً فى خزانة جامع مسجد رضا باستانبول ، وبعد ثورة مصطفى كمال أتاتورك ، نقلت محفوظات المساجد ، ومنها محفوظات خزانة مسجد رضا ، ووزع ما سلم منها على المكتبات العامة فى جميع أنحاء الجمهورية التركية ، ويبدو أنه من حسن الطالع إستقرار النسخة أخيراً فى مكتبة جامعة استانبول.

لم تطبع بالعربية خلا ما استعان به منها كراتشكوفسكى في كتاباته

ولما كانت لا تتوافر معلومات بأن رحلة "تحفة الأذكياء" قد نشرت بالعربية أو أن أحداً قد أطلع عليها خلا كراتشكوفسكى الذى استعان بها لوضع كتاب فى سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، ثم إن الكتب الروسية الأربعة التى اتصلت بالمخطوطات العربية المحفوظة فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى قد خلت من ذكر كتاب "تحفة الأذكياء" .

النسخة الروسية محفوظة في أرشيف الجامعة بسانت بطرسبورج

النسخة الروسية من الكتاب لا تزال محفوظة فى خزانة الشيخ محمد عياد الطنطاوى الكائنة فى مكتبة كلية الاستشراق بلينجراد ، وهى إحدى كليات جامعة سانت بطرسبورج الحكومية والتى تلفت بعض محتوياتها فى حادث وقع سنة 1989م ، كما بحثها الأستاذ حسين على محفوظ ، والذى عمل مدرساً للعربية فى نفس المعهد الذى درس فيه الشيخ الطنطاوى من ربيع سنة 1961 حتى أوائل صيف 1963م ، والذى حين أشار إلى تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا ، أحال القارئ إلى مجموعة كراتشكوفسكى المجلد 5 ص 289 - 290 ، وأضاف ، تراجع تعريف كراتشكوفسكى بالكتاب فى مجموعته "المجلد 1 ص 166 - 174 .

النسخة الوحيدة من كتاب تحفة الأذكياء بجامعة استانبول

وتحتفظ مكتبة جامعة استانبول بنسخة وحيدة من كتاب "تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا "مسجلة تحت رقم 766 عربجة ، نقلت إليها من مكتبة مسجد رضا وجاءت النسخة فى 194 صفحة ، مسطرتها 23 سطراً .

الجزء الثانى من كتابنا "من تراث الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي" مقتطفات من كتابه "أحسن النخب في معرفة لسان العرب"

يضم كتابنا "من تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي" في جزئه الثانى مقتطفات من كتابه "أحسن النخب في معرفة لسان العرب"، وهو ألفاظ وجمل وأمثال وحكايات وملحقات ورقاع وصكوك وموايل وأشعار ورسائل تبورلت بينه وبين عدد من أصدقائه في مصر من بينهم :

نقيب الأشراف محمد خليل صاحب زاده الفاروقي والشيخ محمد العدوي والشيخ إبراهيم الدسوقي والشيخ يوسف الصيداوي ، والشيخ عبد السلام الحلبي الترمانيني ، وهى رسائل كتبت مابين أعوام 1212هـ حتى 1257هـ.

وقد تم طبع الكتاب طبعة واحدة عام 1264هـ. 1847م .

وكان شيخنا "محمد عيَّاد الطنطاوي " قد حكى في رسالته الشهيرة إلى الخواجة فرين معترفاً بفضله عليه في ترغيبه في دراسة اللغة الفرنسية .

وهكذا .. فقد أفادته فرنسيته في أن تصبح مدخله لتعليم اللغة العربية للدارسيين الروس ـ قبل أن يجيد لغتهم، حيث قد عمل الشيخ طنطاوى لسنوات عديدة في القسم التعليمي بوزارة الخارجية الروسية كمعلم للعربية .

ولعله ـ وبسبب ذلك ـ قد ألف كتابه "أحسن النخب في معرفة لسان العرب" إذ حوى من ألفاظ وجمل وأمثال وحكايات مترجمة للفرنسية .

ولعل من أرق ماكتبه الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوى من أشعارٍ في هذا الكتاب ماسجله عن روسيا في قصيدته المشهورة *والتي قال فيها :

---

* أصل الكتاب - والموجودة نسخة منه لدينا - مكتوب باللغتين العربية والفرنسية، وقد إستخدمه الشيخ محمد عياد الطنطاوي في فترات عمله الأولى ببيتربورغ لمعاونته في دروس تدريس اللغة العربية - قبل أن يتعلم الروسية ويتقنها

للروســـيا فخر علي إخوانها بجـــنابه و لها الاياد طـويـلـه
ماكنت احسب أن قدري يرتقي حتى أشاهد ملكها وقبيله
الماجدون المحسبون المكرمون المنعمون الحـائـزون فضيله
الغالبون القاهرون المانعون الحافظـــون مبيته و مــقيله
ما أسعد البيت الـذي اطنابه شُـدت بكل مهذب و عقيله
ما أسعد البيت الـذي احبابه منصورة و عـداتـه مخذوله
ما أسعد البيت الذي من بطرس اثـــاره مـشــهـورة منـقوله
ما أسعد البيت الذي سطواتـــه راعت ملوك الأرض فهي مهوله
أناضيف قطركم وكم من عائد أولـيتمـــوا زوارة و نزيلـــــه
وبأرض قلبي كم زرعتم نعمة نبتت سنابل شكرها محموله
فالآن فاه لسان شكري قائـــلاً في حبكم هل تسمعون مقوله
ادعـــو الإله مهنئاً ومورخـــا للروســـــيا رغد يطلع نقوله

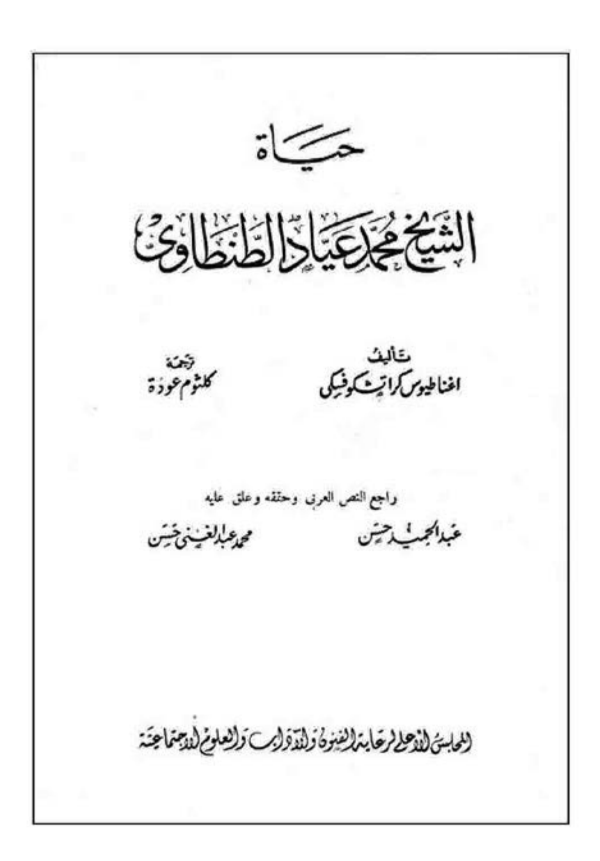
في أواخر أيامه عانى الشيخ من شلل بأطرافه

من الـوثـائـق الـرسمـيـة الـتـى أشـار إليها كراتشكوفسكى فى كتابه حول حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى ، أنه فى سبتمبر من سنة 1855 م ، عانى الشيخ الطنطاوى من شلل أصاب أطرافه السفلية ، ولما كان كراتشكوفسكى بصدد إنجاز كتابه عن الشيخ طنطاوى ، حمل إليه أحد العاملين فى مكتبة الكلية الشرقية كومة من الأوراق ، إتضح بعد فحصها أنها تخص الشيخ الطنطاوى، كانت كلها مملوءة بخطوط كتلك التى يجب أن يرسمها الأطفال ، بمساحات بيضاء خالية وبخطوط مكسرة غير واضحة ، وحين أعاد كراتشكوفسكى ترتيبها بدت أمامه الحقيقة المرعبة ، إنها تتضمن مجموعة

* قصيدة أوردها في كتابه " أحسن النخب في معرفة لسان العرب " وترجمها بنفسه وأسماها " تاريخ ولادة الأمير الكبير شاه زاده نقوله الكسندروفييج " .

من الأمثال باللهجة العامية المصرية ونماذج من التحايا والأغانى العامية ومواد مختلفة من البلاغة والنحو والألفاظ العربية مما يتصل بالشيخ الطنطاوى ، وبدأ واضحاً أنها كتبت بعد أن أخذ الشلل يسرى إلى يديه ، وبدا صراع الشيخ مع المرض يتمثل فى عدم قدرته على السيطرة على القلم ، فلم تطاوعه لا الريشة ولا القلم ، فبدت الثقوب فى الأوراق ، وكأنما الشيخ يجاهد ليكتب حتى إذا ما هاجمته الرعشة اللاإرادية ، انقبضت اليد فيجرى القلم دون سيطرة ، ومع اشتداد المرض زادت معاناة الشيخ فى الكتابة فالحروف تلتحم ، وتتمدد وتتطاول حتى قربت من كتابة أعمى غمس عصاه بدهان ليكتب به ، كانت يده هامدة

لم يعقه الشلل عن الجهاد ليكتب وزادت معاناته لكنه لم يتوقف عن التدوين



غلاف كتاب "حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى" المترجم للعربية لمؤلفه المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكى وأصدره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم الإجتماعية المصرية في الستينات .

على شاهده : مرقد الشيخ العالم مدرس العربية في المدرسة الإمبراطورية

ولكنه كان يحاول وبإصرار أن ينهض بعلمه ويدون فكره ، بعزيمة لا تعرف التقهقر أو الاستسلام ، حتى إذا كان يوم الثلاثاء 24 ربيع الثانى 1278 هـ ، انتقل الطنطاوى إلى رحمة ربه 29 أكتوبر سنة 1861 م ، ودفن فى مقبرة فولكوفو الإسلامية ، وكتب على شاهد القبر "هذا مرقد الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوى كان مدرس العربية فى المدرسة الكبيرة الامبراطورية ببطرسبورج المحروسة وتوفى فى شهر جمادى الثانى سنة 1278 من الهجرة عن خمسين سنة".

---

* إغناطيوس كراتشكوفسكي .

مستشرق روسي، أحد مؤسسي مدرسة الاستشراق الروسي. ولد في 4 مارس 1883 في فيلنيوس وتوفي في 24 يناير 1951 في لينينجراد.

لقد شغف منذ صغره بدراسة آراء المستشرقين ودراسة اللغة العربية. التحق عام 1901 بكلية اللغات الشرقية في جامعة سان بطرسبيرج ، فبدأ بالغة العبرية واللغة الحبشية، كما حضر دروس زوكوفسكي في اللغتين الفارسية والتركية التتارية. درس تاريخ الشرق الإسلامي على يد المؤرخ الروسي بارتولد، ثم اللغة العامة عند مليورانسكي. ومع انطوان خشاب، تدرب على لغة المخاطبة العربية بلهجة شامية. وذهب إلي الشرق فزار مصر وسوريا وفلسطين، فأطلع علي خزائن كتبها وتعرف إلي علمائها وأدبائها، ثم عاد إلى بلاده وعين أستاذا للعربية وحيث يرى الكثيرين إنه كان بمثابة مكتشف الأدب العربي الجديد بالنسبة للغرب ، وقد أصدر عدة كتب منها :

-كتاب حياة الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي - المنشور عام 1929، تعريب السيدة كلثوم عودة، ونشره المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بمصر عام 1964.

- كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" تعريب - صلاح الدين عثمان - الناشر . الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية - الطبعة الأولى من الكتاب 1957.

- كتاب "مع المخطوطات العربية - صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر" - تعريب د. محمد منير مرسي - الناشر دار النهضة العربية - 1969 .

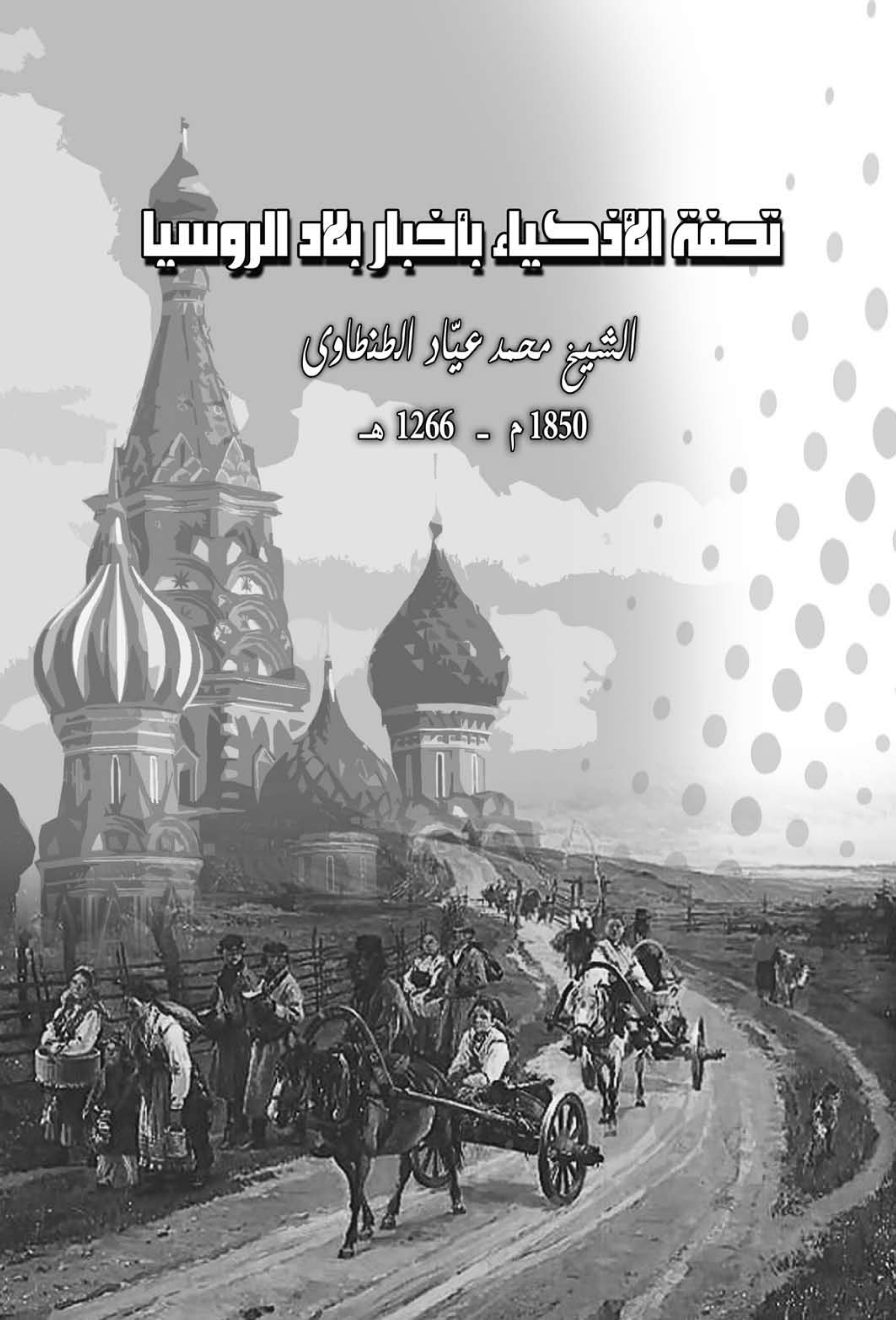
- ترجمة كتاب " البديع لعبد الله بن المعتز " - لينزجراد - 1935

إلى ما سبق .. فيحوى كتابنا " من تُراث الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوى " رصداً لسيرة حياته منها ما كتبه الشيخ بنفسه ، ومنها ما كتبه المستشرق كراتشكوفسكى عنه ، إلى جانب رصد لما أمكن حصره من أعمال الشيخ المُعلم محمد عيَّاد الطنطاوى من مؤلفات ، ورصداً لأشهر ما كُتب عنه . كما إزدان الكتاب بصور لبعض المخطوطات والرسائل بخط الشيخ المُعلم محمد عيَّاد الطنطاوى .

وقد قمنا بزيارة ضريح الشيخ محمد عيَّاد الطنطاوى في شتاء 2013 ، بمدفنه بمدينة سانت بطرسبورج لقراءة الفاتحة على روحه ، وكم كان مبدعاً أن ترى الزهور النضرة محيطة بمدفنه ، وإن دلَّ ذلك على شئ ، فإنما يدُل على مدى الإحترام والتقدير الذى مازال يَكنه الروس لذكرى عالم جليل ، لم يحل صقيع بلادهم ولا بردها القارص بينهمَ وبين أن يظلوا متذكرين أياديه البيضاء رغم ما يزيد عن القرن ونصف من الزمان قد مر على رحيله .

فإلى رحلته التاريخية إلى روسيا نترك كتابنا بين أياديكم ،،

يناير 2013


تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا
الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي
1850 م ـ 1266 هـ



الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى
١٨١٠ ـ ١٨٦١

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

٢/ حمداً لمن سيَّر سيرة العالم في أقصى أقطار العالم وقيّضَ ٢/ له أعواناً يعضدونه وأنصاراً يحمدونه، وصلاةً وسلاماً على سيدنا محمد من جفاه أهل بلده، وودّه الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء، وعلى آله المهاجرين والأنصار، آناء الليل وأطراف النهار.

أمّا بعد؛

فيقول محمد بن سعد عياد ـ أجراه الله على مناهج الرشاد ـ: العلم رأس مال الأكياس، والجهل لكل ضرر أساس، والعِلم لا حدَّ له ولا نهاية، وبحره لا سيفَ له ولا غاية، والمشتغِل به كل يوم يدرِك جديداً، ويستنبط بديعاً فريداً:

ما حوى العلم جميعاً رجل   لا ولو مارسه ألف سنه
إنّما العلم بعيداً نيله   فخذوا من كل شيء أحسنه

ويزداد بالسفار، وجَوْب البراري ووالبحار، ومعاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد، والنظر فيما أبدعوه من البدائع التي ليس لها نفاد، وأمّا مَنْ لازم وطنه، ولم يفك من أصر الدار رسنه، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحج، وكان ضيّق العِطن، قليل الحجة، كما قلت حين سافرت:

ومَن لم يغترب في كل قطرٍ   فكالطفل الذي في حِجر أمِّه
تراه ساذجاً لا عِلمَ يدري   ويبكي حيث فارقها لهمِّه

فلهذا رغب عقلاء الأمم على اختلاف أجناسهم في السفر، ولم يبالوا لفرط

اللبيب الماهر لتمثل العلامة الثاني السعد التفتازاني[1]، بقول الشاعر:

يوماً بجزوى ويوماً بالعقيق وبالعُذيب يوماً ويوماً بالخُليصاء

٣/ ويقول الحريري؛

أنا في العالم مُثله ولأهل العِلم قِبلهْ
غير أنّي كلَّ يومٍ بين تعريسٍ ودُخْله
وغريب الدار لو حلَّ بطوبى لم تَطِبْ لهْ

ولقول أبي الطيب، أحمد بن عبد العزيز المقدسي؛

يا واقفاً بين الفرات ودجلة عطشان يطلب شربة من ماء
إن البلاد كثيرة أنهارها وسحابها فغزيرة الأنواء
ما اختلت الدنيا ولا عدم الند ى فيها ولا ضاقت على العلماءِ
أرضٌ بأرضٍ والذي خلقَ الورى قد قسَّمَ الأرزاقَ في الأحياءِ

وقد أتاح الله لي السفر إلى بلاد الروسيا الواسعة، وأقطارها البعيدة الشاسعة، بسبب طلب دولتها لي أُعلِّمُ اللغة العربية في مدرسة الألسن الشرقية، فوافق ذلك ما عندي من الميل الحسن، وسرت لا ألوي على أهل ولا وطن، والعاقل أينما سار مع سكنه، والجاهل غريب في وطنه وما عاقل في بلدة بغريب، هذا مع شغف النفس بالأوطان، وتأسفها على فراق الأهل والخِلّان.

قال الأدباء: كان الناس يتشوقون إلى أوطانهم، ولا يفهمون العلة في ذلك إلى

---

(١) هو مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني، سعد الدين، ت ٧٩١ هـ/١٣٨٩م. انظر السيوطي، بغية الوعاة، ٣٩١، ابن حجر: الدرر الكامنة، ٣٥٠/٤، الشوكاني: البدر الطالع، ٣٠٣/٢.

أن أوضحها ابن الرومي في قصيدته لسليمان بن عبدالله، يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل، جبره على بيع داره واغتصبه بعض حدودها، فقال:

ولـي وطـنٌ آليتُ أن لا أبيعـه	وأن لا أرى لغيره الدهـرَ مالكـا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة	كنعمةِ يومٍ أصبحوا في ظلالكا
وحبَّبَ أوطانَ الرِّجال إليهمُ	مآرب قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذَكَروا أوطانهم ذكَّرتهمُ	عهود الصِّبا فيها فحنُّوا لذالكا
٤/فقد ألفَتهُ النفس حتَّى كأنَّه	لها جسدٌ إن بان غودرَ هالكا

وعند إبرام العزم على الظعن إلى هذا القطر الحسن، سألني جمع من الأصدقاء والمعارف، وجمّ من أهل المعارف أن أُسطّرَ في سفري هذا كتاباً، أودع فيه ما يَعذُب مذاقاً، ويطيب شراباً مِن بدائع البلاد، وغرائب العباد مع شذرة علمية، ونكات أدبية، وطُرَف استحسانية، ومُلَح اختراعية، فأجبت السؤال، وبادرت الامتثال، وشرعت في هذا التعليق البديع الأنيق، وسميته «تحفة الأذكياء بأخبار مملكة الروسيا»، ولما حان حين تمامه، وبدا بعد النقض حسن إبرامه، أردت أن أُشرف ديباجته، وأُزين فاتحته بذِكْر اسم مولانا أمير المؤمنين، وخليفة رسول رب العالمين، سلطان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، وارث تخت السلطنة كابراً عن كابر، الممدوح اسمه على أعواد المنابر، السائر عدله سير المثل السائر، والسائل كرمه سيل البحر الزاخر، حامل أعباء الخلافة على كاهله، ومجدد ما اندرس من معالم الدين ومناهله، الباني على ما شيد سلفه الصالح، الباني على ما يقوي الدولة من المصالح، حامي الدولة العلية، وناصر المملكة العثمانية، القائل عزمة الظافر، كم ترك الأول للآخر، والمنشد فخره بين الملأ، قول المعري أبي العلاء:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانه	لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

والمتمثل رعيته لما عمّها من الخصب والسهل، بقول ابن سهل: «جاءنا آخر

الـزمان كما تفتر عند الأصائل الأزهار». مولانا السلطان ابن السلطان المحفوف بعناية الملك المجيد، والملحوظ بحسن التأييد على التأييد مولانا السلطان ٥/ عبد المجيد:

لا زالَ للإسـلام أشـرف كعبـة لم تخْـلُ يومـاً من طوافٍ وفود

وقلت مقرظاً اسمه الشريف بقصيدة أوّل صدورها حضرة السلطان عبد المجيد خان، وأوّل أعجازها خلّد الله ملكها إلى آخر الزمان، وهي:

حمت بالـظبى هيفـاء بنت عيد خدود ورود عن ورود عيد
ضنيت أسىً من ميلها وهي بانـة لهـا حسن ثغـر كالجمـان نضيد
رنت بلحاظ فاعترى الظبي خجلة دهـتـه وآوتـه لبـلقـعٍ بيدِ
هفـا نحـوهـا قلبي فقـال رقيبها أتـهـفـو فقـلت الـلوم غير مفيد
أأنـقـاد غياً في هواهـا كمسلم لهـدي أمير الـمـؤمـنين رشـيد
لفخر بني عثمـان خاقـان أرضها لحـائـز مجـدٍ طارفٍ وتـليد
سليل الأسـاطين الكـرام وفـائق هصـور طويل البـاع أصيد صيد
له الله من ملكٍ محـا بحسـامـه مآثـر ظلم في الـعـبـاد شديد
طبـيب بأدواء الـخـلافـة عالـم لديه دواء الـجـبـر ليس بعـيد
أفـاض على الإسلام صيّب عدله كغـيث على قفـراء جس جيد
نمـا الخصب ما بين الـرعايا بوقته هنـيئـاً لتـنـظيم أشـاد سديد
علا درجـات ساميات إلى السهى إلـى حسـب عالـي النجـار عتيد
بنى وأقـام الـدين فازداد مجـده لهـذا دعـاه النـاس عبد مجيد
دعا الناس بالحسنى لما فيه خيرهم يسير إلـى اليمـين بكـل سعيد
أعـدَّ لنصـر الـدين كل سُميدع أفـاض عليه سابـغـات حديد
لعسكـره الجـرار صولـة زاخـر خضـم بأمـواج الـرداء مديد
مهيب شديد البأس في حومة الوغى رؤوف وحـيد الـعـصـر خير فريد

جرى مدحه في عالم الأدب الذي أتـــى بنــظام معـــجــز للبـــيد
يجـود على العـافي بجـزل رفـده لمــحســـوب ذياك الحمى ووصيد

٦/دنـوت بآمـالي إلى روض جنة زهـى حلا شِعــري به وقـصيدي
خدمت ببيت الشعـــر عالي بابـــه مريد الـعـلى فالبـــاب خير عميد
أتـــيت إلـــيه خاضـــعـــاً لعـــلوه أخـــوض غمـــاراً أو بطيء بريد
نعـــمـــنـــا ولـــلدنـيا به ورعـيتـــه نعـــيم فأيام الأنـــام كعـــيد

مقدمة

في سفري من مصر المحروسة إلى بتر بورغ المحمية، وما رأيت من البحار والجزائر، والبلاد البهية مع تحلية ذلك بما قلته من الأشعار المطربة في البدائع المستغربة، فأقول: فارقت وطني وأهلي وعيالي غروب شمس يوم السبت ٢٤ من محرم الحرام، افتتاح سنة ست وخمسين بعد الألف والمائتين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، الموافق ذلك ٢٦ مارس الافرنجي (يعني آذار) سنة ١٨٤٠م مسيحية بحساب فرنج مصر والقسطنطينية، الجاري على بلاد فرانسا والنيمسا ونحوها، وأمّا على حساب الروسيا فينقصون اثني عشر يوماً، فيكون ذلك اليوم عندهم رابع عشر مارس، ويسمى الأوّل الحساب الجديد، والثاني الحساب القديم، وينبني على ذلك بعض التواريخ والأعياد، كأوّل السنة وعيد الميلاد مما لا يتعلق بالقمر، أمّا ما يتعلق به كعيد الفصح، فإنه في يوم واحد عند جميع النصارى من الروس وغيرهم من حيث أني أذكر في هذا الكتاب ما يتعلق بالروس وأخبارهم فأبني على تاريخهم، فنزلت بعد التوديع والتشييع:

وكان أوّل عهد العين من جَزعٍ   بالدمع آخر عهد القلب بالجَلَدِ

في صندل على ظهر النيل، يسير مع تياره الجميل، والنيل هادىء، والقمر هادىء، والملاح حادي، والنوى شادي، فهبّت بعد برهة ٧/روائع الأزهار، فاستنشقها الأنف ولها القلب استطار، فأعلمتنا أننا أمام جنينة شبرى الفائقة على البساتين قدرا:

كهيفاء رامت تختفي في شعورها   فنمَّ عليها عَرفُها وسوارها

ثم في الصباح، تلاعَبَ الموجُ بالزورق حتى أسقط الشراع، فأرسينا عند بلد يقال لها «زاوية رزين»، وما رزن عندها بحر النيل ولا استطاع، فقلت مواليا:

في السبت فارقت أحبابي صفارى شمس
من كل أهيف رشيق من كل بدر وشمس
نزلت صندل ظريف لأجل أن أسلي النفس
غلب عليه الهوى زبّى وكثر الريح
وعند زاوية رزين البحر هاج بالنفس

وعندما أرسلت ذلك في ضمن مكتوب إلى مصر، قال الشيخ يوسف الصيداوي مجيباً في مكتوبه عن هذا المواليا بمواليا مثله:

فارقتنا والجوى في القلب منارس
والدمع منها انطلق والأسر راح في حبس
والعقل منا أتى له من فراقك مس
والفلك فيكم جرى والهم بي أرسى
مذ غبت عنا تحققنا مغيب الشمس

وقد ساعده الوقت على إحكام التورية، وقوله: والفلك فيكم جرى، معناه: إنكم بحر، وقد ينسى التشبيه كما في قول الشاعر:

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة في السما

ثم سرنا بعد هدوء الريح قليلاً، ولا زلنا في سير ووقوف، وجرايان وتجديف غروف، حتى وصلنا بعد اللتيا والتي ثغر الإسكندرية ليلة الجمعة بعد غلق الأبواب، فلم نستطع الوصول إليها بسبب من الأسباب، فقلت متغزلاً مشيراً لقصة زليخا مع يوسف لمّا غلّقت عليه الأبواب وقالت له (هيت لك)، وهذا يسمى في علم البديع التلميح:

وافيتها أزورها جنح الدياجي والحلك   فغلّقت أبوابها ولم تقل لي هَيْتً لك

٨/ثم دخلت في الصبح المدينة عند «الكونت ميدن» من أعيان دولة الروسيا وكبرائها، وكان إذ ذاك القنصل الجنرال، والآن هو سفير الدولة الروسية في بلاد أمريكا بعد أن كان سفيرها في بلاد الفرس، فأقمت عنده أسبوعاً بغاية الإكرام ووفور الاحترام، وهو الذي هيّجني حين كان في مصر على الذهاب إلى بلاد الروسيا، وذلك أنّ الأمم منذ تقدمت في التمدن، علمت فائدة ارتباطها بعضها ببعض، وأنشدت قول الشاعر:

النـــاس بالنـــاس فلا تنفــرد   وكـــن أخــا حزم وتــعــيش
ما لقــويٍّ عن ضعــيف غِنـى   لا بدَّ للســهــم من الــريش

فلذلك أنشأت مدارس للألسن الغريبة، وعلمت بعض رعاياها هذه الألسن لكي تكـون لها ترجمانات عند الحاجات، ولقوة الدولة الروسية، وكثرة ارتباطها بالدول الغريبة، فعلت ذلك وتقدمت فيه على غيرها، حتى أنه يوجد فيها من أهل الألسن المختلفة ما لا يوجد في غيرها، وقد اعتنى وزير الغرباء سعادة «الكونت نسل روض» بالألسن الشـرقية، فأنشأ لها مدرسة مخصوصة غير قانع بالمدرسة العمـومية لشدة الاحتياج إلى الألسن الشرقية، ففي هذه المدرسة معلمون لهذه الألسن، لا كما في الأوروبا، بل كل لسان له معلم من أبناء جنسه، ففيها العالم الفاضل الجنرال «مرزا جعفر» معلم اللسان الفارسي، ومربي التلاميذ والتراجمة الـروسية، ليس فقط في هذا اللســان بل وفي اللســان التـركي، وفيهـا الجنرال «ديمـزون» وهو وإن كان ليس مشرقياً، لكنه تعلم هذه الألسن بكفاية بحيث إنه يتكلم بها بالسهولة، ومن حيث إن سعادة الوزير مفتن بإحياء مدرسته، ولا زال في كل حين يجتهـد في تسهيل ٩/تعلّم التـلاميذ، فلهذا لما توجه جناب «الكونت ميدن» إلى الديار المصرية كلفه بالتفتيش على معلم عربي للمدرسة، ومن حيث اني تعرفت بجنابه بواسطة «مسيو فرنيل» الذي طالع معي كتباً عربية أدبية وتاريخية،

واكتسب في هذا اللسان مهارة ألمعية، بسبب كثرة صحبة العرب وألمعيته. طلب مني الذهاب، فأجبت ومِن مدة بضع سنين بالدخول في هذه المدرسة تشرفت، وبعدما رضيت استأذن لي جناب الكونت من حضرة الباشا عزيز مصر وممدنها، وحامي ذمارها ومؤمنها، فأذِن لي وطلب حضوري، فمثلت بين يديه، فأمرني بالجلوس، فامتثلت أمره المأنوس، ثم حضني على تعلم لسان الروسيا، ووعدني بالإكرام إذا تعلمته، لأنه مشغوف بجلب الألسن الغريبة إلى بلاده، ولهذا ترى في مدارسها نجابة التلامذة خصوصاً في اللسان الفرنساوي، وكتب لي مرسوماً بختمه كالالتزام بما وعد، وقلت متشوقاً لمصر وأهلي فيها:

فاض جفني بماء دمع حميم ... لتناءي صحابة وحميم
حيث فارقت غير قالٍ دياري ... ومباني علومها والفهوم
حيث نيطت عمائمي وألمت ... بي ثيابُ الصبا وبرد النعيم
تعتريني الخطوب منكدرات ... تتوالى وتارةً في نجوم
ولثغر الإسكندرية يممت ... لطرد العنا وصرف الهموم
بلد أهله حماة ذمارٍ ... لم يكونوا كمثل ذا من قديم
ودعاني عزيز مصر إليه ... وحباني بالعزِّ والتكريم
قال لا تُضع زمانك إلّا ... في اكتساب العلوم والتعليم
فيميناً لأرحلَنَّ سريعاً ... لبلاد الشمال أفق النسيم
أنا نجمٌ وكم بمصرَ شموس ... ومع الشمس كيف مرأى النجوم
١٠/فلهذا برزغت نحو بلاد ... أنا فيها شمس لكشف الغيوم
في سفين النيران قالوا ولكن ... هي عندي تدعى سفين النعيم
جنة جُنَّة تجود في البحر ... ولو هاج مثل خيل هيم
ما شراع بها فيخرقه الر ... يح وتلقى حملاً كحمل الدهيم
مثل ما قد عانيت في نيل مصر ... حيث كنا تحت العناء الوخيم
كم سفين هوت بما كان فيها ... لاعتساف الملاح من سوء خيم

ثم نزلت في سفينة بخار نيمساوية ٢٦ آذار وفيها ثلاث درجات ؛

الأولى: جهة الدفة، وهي مشتملة على عدة أوض: ديوان وسفرة للطعام، وفيها كتب لمن أراد المطالعة.

والثانية: جهة السِكّان وليست كالأولى.

والثالثة: في الوسط لا أوض فيها، وهناك مطبخ وكراد.

ووقت الغذاء مقرر، وكل مَن طلب شيئاً أحضره له الخدامون، ولو كان الثمن أغلى بسبب عدم السوق، وسرت في البحر الأجاج، المتلاطم الأمواج، وذلك أوّل ركوبي المالح، والوابور، فحصل لي دوخة وتقايآت، وضاقت نفسي، فذكرت قول ابن رشيق:

البحر صعب المذاق مرٌّ — لا جُعِلَت حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين — فما عسى صبرنا عليه

ثم هدأت ثاني يوم، فقلت إذ ذاك:

النيل غضبان عليّ كأنه — لصحبتي لا يرتضي بتنائي
وأرى الأجاجَ الملحَ عذباً سيره — فكأنّه متشوقٌ للقائي

وقلت:

وابورنا ونارُ كانونه — من هول هذا البحر نصران
أزرقُ فيهِ زبدٌ أبيض — كأنّه كشمير نصراني

١١/وفي ذلك اليوم لم نر أرضاً أصلاً كما قلت:

والبحر أزرق كالسماء ولا نرى — أرضاً كأنّا في طباق سماء

ثم وصلنا جزيرة جريدة ـ إحدى الجزائر المعتبرة في مملكة بني عثمان، يحفها

جبل عال متعرج بالغاب، وهي مخصبة بسبب كثرة الينابيع. والإقامة فيها أحسن ما يكـون في الـدنيا كما قيل، لأنها مملوءة بالمواشي والأثمار الطيبة، والنباتات المختلفـة، والمعـادن الكثيرة، وافـرة المحصـولات من الحنطة والخمر والزيت والخشب والكتـان والعسل والشمع والحرير والقطن والسمك والطير، وقد قاست كثيراً من التقلبات والفتن، ولولا ذلك لكانت من أحسن البقاع، وسكانها كانوا في زمان الرومان مليوناً ومائتي ألف، والآن نحو خمسماية ألف فقط، وفيها مسلمون من ذرية العرب الذين كانوا رؤساء الجزيرة، وروم، وبعض يهود، وأرمن.

وأرسينا في «كنى» أشهر مدنها، ومرساها جميلة يحيط بها البيوت المبيضة، فحكت لنا مباني الروم إذ كانت أوّل ما رأينا منها، وبها منارة توقد في الليل لاهتداء السفن، وقـد رأيناها موقودة لأننا وصلنا في الليل، وفي الصباح اجتمعت الناس أفواجاً على الساحل لمشاهدة الوابور، وتكاثروا لما سافروهكذا في كل البلاد. هذه الأعجوبـة لم تنقض جدتهـا ولا أظنهـا تنقضي. ومثلها في ذلك سكة الحديد البخارية، هذا ومخترع منفعة البخار الأول حُبس وعُدَّ كلامه كالهذيان، ومخترع سفينة البخار طلب من نابليون مالاً لعملها، فأعطاه ثم لمّا عملها وسيّرها أخبره، فلما حضر واجتمع الجمُّ الغفير للرؤية ما سارت، فقال: يلزم أن تسير لأنّي سيرتها البارح، ولكن بعض الحساد لعب في آلاتها، فما استمع له نابليون، فلما حُبس في جزيرة ألين، رأى سفينة بخار تجري، فتحسر زيادة على ١٢/حسرته، وعضّ بنان الندم. وقلت في سفينة نار كان بها كثير من الحجاج، وذلك عند سفري من إسلامبول إلى مصر مُوَرِيّاً:

هذي العجيبـة لا تَقَضَّى جدة ... هي جنــة قد صُوِّرَت من نار
فيهــا لبيت الله ساروا شُرّعــاً ... فغــدت منـافـع مسلمٍ ببخـار

وعسـر عليّ جداً الخـروج لرؤية هذه المـدينـة بسبب الـطاعـون المصري المقتضي حبسنـا في هذه السفينة ثم في الكرانتينة حتى نتطهر من هذا الحدث

الأكبر، فما خرجنا أبداً إلاّ عند اسلامبول، لكن جاءت زوارق كثيرة فيها برتقان وغيره للبيع، فيؤخذ بالاحتياط التام وعدم الملامسة، إذ مَن لمس انتقض طهره، ثم سرنا منها في بحر الروم وقد هاج وماج، فعاد لي ما قاسيته أولاً، فقلت:

يا راكباً لجج المياه مخاطراً لا تغترر إن مرّ يومٌ صالح
لا يُنضح الماعون إلاّ بالذي قد حلّ فيه وهو بحرٌ مالح

وقلت:

للروم بحر أزرق كعيونهم لي مُقلقُ
لكنه متشعّبٌ والطرف منهم ضيّقُ
لا تعجبوا إن خِفتُه فهو العدوُّ الأزرق
فلذاك قلبي نحو بحـ ـر النيل دوماً شيّقُ

وقلت عن طريق التخميس:

لما أردت إلى المعالي أرتقي
لم أخشَ من خطر السفار وأتقي
بل جبتُ فيه مغرباً مِن مشرقٍ
وركبت لجةَ بحر رومٍ أزرق من خَطْبه هيهات ما لي مشفقُ
أغبر عيشٍ بالتصافي أخضر
والعود من بعد اسوداد مقمرُ
وازور محبوب بديع أصفر
وقد حلا فيه الممات الأحمر وما رثى لي العدو الأزرق

فيه تلميح لقول الحريري، فهذا أغبر العيش الأخضر. إلخ. وقلت ١٣/:

يا ليتني مثل الحريري قد رثى له من الخُطَبِ العدو الأزرق

وقلت مواليا:

يا ناس على شان غزال البــر في الأبحـار
نزلـت أدور وفـي الحـــال خدت مركب نار
أنـــا ترابـي وجـــانـي الـضـــد ليل ونـهـــار
أهـين من البحــر أهين من الهـــوا والنـــار

وفي «الهوى» بمعنى «الحب»، وكذلك في النار تورية بمعنى العشق.

ثم أرسينا ثالث يوم عند جزيرة سيرة وبها محل الكرنتينة ككنى، وبقربها منارة، وتزودنا منها لسفينتنا فحم الحجر، فوقودها الحجارة لأنها سقر.

ثم سرنا ومررنا على عدة جزائر إلى أن أرسينا عند أزمير، وهي مدينة عظيمة من بلاد الأناضول، بها كثير من الأشجار والمباني، وهي شبه جزيرة لأن البحر لا يحيط بهـا من جميع النواحي، واعلم أن بعض علمائنا يطلق على شبه الجزيرة جزيرة كقولهم: جزيرة الأندلس، وهي تجوز بسبب المشابهة كما نبه عليه الشهاب الخفـاجي: «وهـا هنـا نكتـة لطيفة»، وهي أن بعض مترجمي مصر ترجم كلمة «بـريسيكل» بالفرنساوية بقوله: «بحيث جزيرة» وهذا من ضِيق العطن، لأن هذا التـركيب لا يحسن في العربية، وزاد ذلك تعسفاً بضم الباء التي هي حرف جر فيكـون تصغير بحث، وهـو خروج عن البحث وقد غربت عنه فصاحة استعمال حيث، فإنها لا تضاف إلى المفرد إلاّ نادراً، وأيضاً أراد الاختصار فوقع في الإطناب من حيث لا يشعـر، فإنـه ترجم بثـلاث كلمـات مع الـركـاكـة، فحقّ أن يقـال له: «حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء»، والذي ألجأه إلى ذلك أن كلمة «بريسك» تترجم تارة ببحيث، وقد كان يغنيه عن هذا كله أن يقول: شبه جزيرة كما قلنا:

١٤/ومكلف الأشياء ضد طبـاعها   متــطلب في الـــمـــاء جذوة نار

وهذا باللغة الروسية «بولواوستروف» أي: نصف جزيرة. وقد دخلت أزمير عند

رجوعي إلى مصر، فوجدتها بلداً كثيرة الزحام، نافقة المتجر، بها كثير من الروم والغرباء، ورأيت فيها بيوت الروم مبلطات بالرخام من أسفل، وعند رجوعي ثانياً من مصر كرتنت في بيت ظريف على خورها، محفوف بالكروم والأشجار، فأعقمنا هذه الأعنـاب، فلم يولد لها بنت تسحر الألباب، ثم مررنا على بحر مرمرة، وعندها ساعد اعتدال الهواء الماء والنار، وقرب الأرض المخضرة بالأشجار، فاجتمعت لنا العناصر الأربعة، وكم رأينا من بلاد وقلاع وجبال وتلاع، ورأينا سمكاً يطفو على الماء، وكذلك في الخليج القسطنطيني، ثم وصلنا مدينة الإسلام والتخت الشامخ على الدوام، مدينة قسطنطينية المحروسة ونعمنا بطلعتها المأنوسة، وكان ذلك ليلة السبت، فحصلت لنا الراحة والسبت. لكن أسفت جداً على الوصول ليلاً، بسبب عدم إبصار المواضع القريبة، وشكرت النار التي أخرجتني من الماء، إذ المراكب القلعية تمكث شهراً أو أكثر، فقلت حينئذ:

لم يَدرِ عُبّـاد السـعـير بنـفـعـهـا	بل أجَّـجـوهــا في هبـاء هواء
وأرى الفـرنـج درت بخـالص سرها	إذ سيّرت سفـنــاً بهــا في الـمــاء
مع أنــهـم لم يعـبــدوا فكــأنـهـم	قصــدوا التمــاس العـذر للقـدمـاءِ

ومـرسى اسـلامبـول أبهج المراسي، ووضعها أحسن الوضع، لأنها ملتقى أوروبا وآسيا بين البحر المتوسط والبحر الأسود، محدقة بريف مخصب، وقصبة مملكة واسعة عريضة، ويمر بها محصولات الشرق والغرب والجنوب والشمال، تتابع فيها قوافل آسيا ١٥/وسفائن أوروبا القلعية والبخارية بلا انقطاع مملوءة بأمم عديدة وطوائف شتى من الترك والأرمن والروم واليهود والفرنساوية وغيرهم، نافقة المتجر، بهية المنـظر، يظهـر عليهـا الخصب والخير والتـرف والمير، وزوارقها كالقسي. ونزلنا من الوابور في زورق في الخليج القسطنطيني إلى قصر الكرنتينة في اسكـدار، وهي مدينـة كبيرة من آسيا أمـام اسـلامبول على شاطيء الخليج القسطنطيني الأيمن، فيها نحو مائة ألف ساكن، مشتملة على عمارات وحدائق

ذات بهجة، وقرافات مملوءة بقبور الرخام في وسطها شجر السرو، فدهشت من حسن الأبنية على الطرفين خصوصاً من سراية حضرة مولانا السلطان، فإنه لا يفي بحسن نعتها قلمٌ ولا لسان، وإحكام شرفها يؤذن بشرفها، فهي حرية بقول من قال:

إنّ الملوك إذا أرادوا ذكرهم ... من بعدهم فبألسن البنيان

إنّ البناء إذا تعاظم قدره ... أضحى يدل على ارتفاع الباني

فقلت:

مذ لاحت اسلامبول وهي التي ... من يرها ودّبها مسكنه

علمت أني ضاع عمري سدى ... في مصر دار الذل والمسكنه

نسيت من حسن مشيداتها ... أني يُغدى بي إلى الكرتنه

فإن قلت: لِمَ قلت الكرتنة، وإنما هي الكرنتينه؟ لأن أصلها كرانتين كلمة أفرنجية من «كرانت» أي «أربعين»، لأنها كانت أولاً كذلك، وأمّا الآن فأربعة عشر يوماً، قلت: نعم لكن المصريين لما أخذوا هذه الكلمة اشتقوا منها فعلاً مع القلب فقالوا: كرتن يكرتن ومصدره الكرتنه. وقَصْرُ الكرنتينة باسكدار على الخليج، وبه أوض كثيرة للأمتعة والمسافرين، وفيه حنفيات كثيرة، عذبة للوضوء. ١٦/وغيرها من المرافق، فلا يحتاج للسقايين مع أنه على المالح بخلاف قصور مصر، فإنها محتاجة للسقايين ولو على النيل، وبقربه مقبرة للمسلمين وأخرى لغيرهم، فمن مات أيام الكرنتينه دُفن هناك، وعندما وافيناه كان هناك رجل مغربي معه جوارٍ ماتت إحداهن بالجُدري، فغسلت وكفنت ودفنت هناك، وقد أخبرني ناظر الكرنتينه أن الطاعون من مدة ثلاث سنين فقد من اسلامبول وإلى الآن هو مفقود فيها، فله نحو ثلاث عشرة سنة معدوم والحمد لله:

قالت وقد عزمت على ترحالها ... ماذا تود فقلت أن لا ترجعي

فمتى تُفقد مِن مصر هذه الطامة والداهية العامة التي تخرب البلاد وتهلك العباد، وقد أُصبت في طاعون سنة ١٢٥٢ هـ، ومكثت نحو عشرة أيام بلا نوم، وكان رأسي ثقيلاً جداً وخيف عليّ الهلاك وقت البحران، وغاب عني الإحساس والعرفان، ولكن الله سلّم، فانفتحت كرة الخطوب وبثرة الكروب، فهل سمعت قولي:

يكفيكِ يا كرةَ الخطوب إقامةً ... وتدحرجري ما للكرات قرار
وتفجري لو كنت أنتِ حجارة ... فلربما تتفجر الأحجار

فأحسست بالخفة، وبعد نحو أسبوعين التأم الجرح، وانضم الفتح، وكان لي وِرْدٌ أقرأه للحفظ صباحاً ومساءً، فلتنفيذ إرادة الله نمت ذلك اليوم مستأخراً، واستيقظت وبرجلي أثر خفيف، ثم تضاعف وأضعفني، وأُشيع في القاهرة موتي، فلما علمت بذلك قلت مضمناً:

تمنّى أُناس أن أموتَ وإنْ أمُت ... فتلك طريق لست فيها بأوحدِ
وإن أظهروا موتي فليس بمُنكر ... إذا أظهر الشيطانُ موت محمد

وهذا تلميح لإشاعة قتل الشيطان محمداً، يعني النبي ﷺ في بعض الغزوات. ثم إنّ قصر الكرنتينه تحت الجبل وكله أخضر بالأعشاب. ١٧/والجبل مملوءة بالخضرة والأشجار، وهكذا جبال الروم، فليست محلة كجبل الجيوشي بمصر، فما ألطف العبور في الزوارق في طول الخليج إلى البحر الأسود، فهناك الجبال محفوفة بالأشجار من الطرفين، مزينة بالبيوت الجميلة والبعيدة، مسكن الأمراء أيّام الصيف، ثم خرجت من الكرنتينة ونزلت غلطة، وهي بلدة كبيرة مشحونة بالفرنج وطرقها وعرة ضيقة في صعود وهبوط، متعبة في المشي، أمام اسلامبول، وبها قبة عالية سلالمها كالمنارة، لكن في وسطها اتساع وفيها قهوة فوق وشبابيك محدقة بها من سائر النواحي نظرت فيها المراكب والقصور واسلامبول والمنارات، فنظرت من ذلك أحسن منظر، وفيها ساعة دقاقة من حديد، ثم ذهبت في زورق

إلى اسلامبول، فوجدتها لطيفة جداً إلّا أن لطف الظاهر أبدع، ولعل بهمّة مولانا السلطان أن يكون ظاهرها عنوان باطنها يوماً، وغالب أسواقها ظريفة كخان الخليلي بمصر وأحسن، ومساجد كثيرة جميلة معتبرة، وكذلك قرافاتها خصوصاً قبور السلاطين، ففيها تأنّق زائد، وفيها حمامات عديدة حسنة البناء، وبها كثير من تجار العرب كالمغاربة والشوام، ويظهر على أهليها الغنى، وبها كثير من الأقمشة من كل جنس ومن الطرف المنسوجة والمطرزة والسيلانة الكشميري وغيرها، وأصناف الحلوى والعطر، وبها الخطوط الحسنة حتى في نقش الفصوص التي تختم بها وبيوتها مبلطة بالخشب وسقوفها مسنمة بالحجارة والخشب، لكثرة الأمطار، فالربيع بها كشتاء مصر، مع أن المطر لا يكثر بمصر كما فيها أيام الشتاء وعند هبوب الريح من البحر الأسود تغيم السماء وتمطر، وعند هبوبها من بحر الروم تصحو السماء، ولا يكون مطر، ومع وجود الكلاب في اسلامبول ومصر، فليس خطر، فلا يسمع أن أحداً مات من عضة كلب كما في بتر بورغ وأطرافها، فإنه ١٨/تارةً يتفق ولو نادراً وجود هذه المصيبة، وقد وجدت منذ سنين عدة كلاب بعضها كان بيتياً، وعض بنتاً صغيرة وماتت من العضة، وقد كانت عضت أختها، فبعد مدة تغير لونها، ثم ثار عليها هذا الداء وهو كريه جداً، لأنه لا يقصر على من عضه الكلب، بل كل من عضه المعضوض يصير مثله، وهكذا ولو حيواناً فيصير الإنسان أو الحيوان سعراناً، وكذلك كل من عضه وتارة يتأخر ظهور هذا المرض حتى يظن أنه ذهب بالكلية، ثم يظهر تارة بعد سنة. ولا يصدق الأوروبيون ما في كتبنا، بل ولا نصدق نحن أن دماء الملوك شفاء من الكَلَب، قال الشاعر:

بناةُ مكارمٍ وأُساةُ كَلْمٍ دماؤكم من الكَلَبِ شفاءُ

وعلى ذكر الكلاب، فينبغي أن يتنبه أنه لا يوجد في بلاد الترك الكلب المسمى «بالكلب التركي»، فهذا الاسم لعله مبني على خرافات لا أساس لها، ومثل هذا أيضاً الكَلَب المسمى الدانيماركي لا يوجد في دانيمارق، وقد تنسب بعض الأشياء

لبعض البلاد لنفاقها ورواجها. مثلاً يسمون تارة المطاوي التي تصنع في مصر مطاوي إنكليزي، والشفر ونحوها المشغولة في الروسيا نيمساوية، وبالجملة فليس كل اسم على مسمى، بل تارة تسمى الأشياء باسم ضدها تفاؤلاً كما سميت القافلة قافلة من القفول، وهو الرجوع تفاؤلاً أن ترجع، وكما سميت المهلكة مفازة تفاؤلاً بالفوز، وهذا باب واسع الذيل غزير السيل، والمسلمون في اسلامبول يغلقون دكاكينهم يوم الجمعة، كما أن اليهود يغلقون يوم السبت، والنصارى يوم الأحد بخلاف مسلمي مصر، فإنهم لا يغلقون حوانيتهم إلّا في العيد الصغير والكبير.
ولقد صليت ١٩/الجمعة بمسجد قريب من الخليج محكم، البناء، مفروش بالبسط، مقبب إلّا أن الخطيب تارة يتأنق في الخطبة زيادة عن العادة، وطوراً يسرع وتارةً يُسِرّ وأخرى يجهر، وهناك دكة صغيرة بالصدف يجلس عليها من يقرأ سورة الكهف، ومن تحتها موضع بدرابزين صغير يصلي فيه إذا نزل، وهذا لا يوجد في مصر، فإنّ مَن يقرأ سورة الكهف إذا نزل من الدكة كغيره، ولعل سبب اتخاذ ذلك الموضع أنه ربما كثُر الزحام، فلا يجد القارىء موضعاً إلّا بالمزاحمة، ولا توجد في هذه الجوامع ميضئات كمصر، بل حنفيات وأباريق، وكل ذلك الماء عذب.
وفي الطرق حنفيات كثيرة يستقى منها، ويملأ السقاؤون منها قربهم ويحملونها على ظهورهم، وربما ملأوا بالري على الخيل، لكن في غير الأسواق، وفي مصر السقاؤون يُحملون القِرَب على الحمير، والري على الجمال لكثرة الجمال والحمير هناك، وقِلّتها بالقسطنطينية، ولون البقر بها أغبش، والجواميس توجد بها قليلاً، لكن مع الغطاء في البرد بخلاف مصر، فبكثرة مع عدم الغطاء. ولون بقرها أحمر وأبيض ناصع وأسود. ومن المباني العجيبة بالقسطنطينية قبة أيا صوفية، وتسمى قبة السماء، كأنها هرم ما ضارّها قِدَمٌ ولا هَرَم، جامع متين، وأصله كنيسة لقسطنطين، خربت واحترقت، فبناها يوستينيان، وصرف فيها على ما قيل خراجَ مصر سبع عشرة سنة، وضاهى بها الباني المسجد الأقصى، وما علم أنها تنقلب بالإسلام في كعبة اسلامبول مسجداً أقصى، ففي سنة ٨٥٧ لما افتتح السلطان محمد الثاني

المدينة، دخل هذه الكنيسة راكباً على حصانه، وبعدما صلى فيها وأزال آثار عباد الصليب وصورهم، جعلها مسجداً يتلى فيه القرآن بدل الإنجيل، فجزاه الله خيراً على سعيه الجميل، ويرشد لذلك وضع القبلة ٢٠/والمنبر، فإن المنبر بارز في جانب القبلة خارجة من الحائط وبينهما مسافة والعادة في بناء الجوامع أن يجعل المنبر ملتصقاً بالقبلة، وتكون القبلة في حائط الجامع، وفي القبلة شمعتان كعمودين وبقربهما ألواح معلقة بالخطوط النفيسة، وفي هذا الجامع دواليب للمجاورين، كما في الجامع الأزهر، وبواسطة خابية كبيرة من رخام يستقى منها، وفيه كثير من العرب خَدَمَة وفقراء وبوابين، ورأيت فيه خمسة عميان وبصيراً يقرأون البُردة كما في مصر، وتلفظهم حسن، لأن أصلهم عرب، فأعجبني ذلك، إلاّ أنهم يلحنون، وهم معذورون لأن اللحن قد يتفق ممن يقرأها في مصر، بلد العربية، ويقول بعضهم:

مولاي صلِّ على مَن حلَّ في الحرم   محمد المصطفى المخصوص بالكرَم

بدل قول المصريين:

مولاي صل وسلم دائماً أبداً   على حبيبك خير الخلق كلهم

وهذا حسن لعدم إفراد الصلاة عن السلام المكروه عند البعض، ويقرأ الباقون بيتاً من البردة، وبين أيديهم محرمة لجلب الصدقة. وقبة البنية عالية، ومناراتها أربع سامية، وقد اعتنى مولانا السلطان بتعمير هذا البناء، فجوزي خيراً على هذا الاعتناء: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلاّ الله﴾.

لطيفة:

اعلم أن اسلامبول تسمى القسطنطينية بالنسبة العربية إلى قسطنطين بانيها، وكانت تسمى قبل ذلك كستنتنبول، أو نحو ذلك، يعني بلد قسطنطين، فلما

أخذها المسلمون، قالوا: اسلامبول ـ أي بلد الإسلام ـ ولم تبق التسمية القديمة إلّا عند النصارى، وتسمى بالتركية استانبول، وعوام مصر يقولون: اصطنبول، قيل هذا مأخوذ ٢١/من لسان الأروام، لأن استينبولي معناها «إلى المدينة»، وعند أخذ الترك هذه المدينة سمعوا مراراً عديدة الروم يقولون هذا اللفظ، فظنوا بسبب عدم معرفة اللسان أنه اسم المدينة، ومن أمثال مصر «جاء من اصطنبول في علبة» أي حضري غير فلاح، يقولون ذلك هزواً، ويقولون أيضاً: منديل اصطنبولي، أو بابوج اصطنبولي، وربما بدلوا الطاء صاداً وقالوا: اصتنبولي، أو: استنبولي، وقلت مواليا:

يا ناس على شان أشوف الأهيف المكحول
سافـرت اجـريد ورحت ازمير واصتنبـول
رأيت ملاح شكـلهم في كل شيء مقبـول
ما عنـدهم شي رزالـة زي ما في مصـر
علل على القـلب لكـن يلتـقـوا المعلول

وشرط المواليا الخلو من الإعراب، واستعمال اللحن كما في المستطرف، ولم أستنكر من اسلامبول إلّا قواويق[1] الأرمن التي هي كالبوش، وزي النساء في الأسواق، ومسألة الذوق لا حرج فيها، وكل حزب بما لديهم فرحون:

لا تعـذل الإنسـان في شهـواتـه   في الناس من يلتذ طعم الحُصرم

وكذلك صعوبة الطرقات في بعض الجهات بحيث يعسر فيها مشي العربات، ولذلك الغالب فيها المشي أو ركوب الخيل، فهي أجدر بأن تكون جحيم الخيل، وقلت في مدحها:

قد عاب اسـلامبول مَن لم يدرِها   وكـذا المليحـة عنـد ذي عُنّـة

---

(١) كلمة تركية معناها لباس الرأس.

ما ضارهـا إن كان بعض طريقهـا مثـل الـصـراط فإنّـهـا جَنّـة

وبالجملة فلا تعدم الحسناء ذامّاً، وقد ركبت حصاناً مرة من غلطة، وتوجهت إلى اسلامبول على القنطرة، وهذه القنطرة طويلة جداً، من رآها علم عرض الخليج لأنـه في المـرأى صغير، وذهبت إلى بالقلي ـ متنزه جميل ـ كبركة الشيخ قمر بمصر كل أرضه مخضرة، فيها أشجار، وكذلك كل الطريق خارج المدنية لينة سهلة ليست كلها حجارة، بل في وسطها لكثرة المطر، ٢٢/وبها كثير من الأشجار، وفي هذا المحل كنيسة الروم التي عمروها بإذن مولانا السلطان محمود عليه رحمة المولى المعبود، وكان ذلك ذريعة إلى استدعاء أرمن مصر تجديد كنيستهم لما نازعهم في ذلك علماء مصر، وقد أجيبوا، وفي هذه الكنيسة موضع ينزل إليه بسلالم فيه ماء يزعمون أنه قدسي، فيغسلون منه رؤوسهم ويشربون تبركاً، وقد وجدت فيها جآذراً وظباء، كما قال الأخطل في كنيسة الروم:

إنّ مَن يدخـل الكنيسـة يومـاً يلقَ فيهـا جآذراً وظـبـاء

وهناك ناس كثير يجتمعون كما في موالد مصر وسوامر للرقص بتقليب الأرجل بصناعة، لا بهَزِّ الأرداف كما في مصر، وهناك آلات الملاهي كالكمنجة والقانون، وخيام فيهـا القهاوي والشربات ونحو ذلك، وللصغار مراجيح كمصر، وقد رأيت بالاتفـاق بجـانب سامـر الـرقص، سامراً في وسطه ميت أرمني يراد دفنه، ووجهه مكشوف، وعليه قاووقه، ثم حفروا له حفراً عميقة، ونضوا قاووقه وألقوه مكشوف الرأس، ورمى عليه القسيس خرقة كأنها لستر وجهه، ثم رش عليه ماء، وهمهمَ بكلام لا أدري ما جنس هذا الماء والكلام، فهؤلاء كما قال الحريري: «لم يمنعهم الدفن عن الزقن»، وما رأيت أحداً بكى عليه ولا استعبر. وبجانب هذه الكنيسة قبور المسلمين وأكثرها بالرخام، ومكتوب عليها الأسماء، ثم ذهبت من جهة ثانية، درت فيها حول المياه العذبة تحت الجبل المخضر، ثم عديت على قنطرة أخرى إلى

مروج واسعة، ثم إلى كاغد خانة[1]، سمي بذلك لأنه كان كرخانة للورق أيّام السلطان أحمد، وهناك يتفسح كثير من الناس، خصوصاً سكان غلطة ويتنزهون، وهناك قهوة كبيرة، وقصور حسان، وحور وولدان، وذكرت بسيري هناك في السير ٢٣/في ريف مصر أيّام النيل لكثرة الماء، فصار الحصان يزلق في الماء، وهذا في الربيع، فكيف بالشتاء، ثم صعدت فوق الجبل، ورجعت إلى غلطة من جهة ثانية، وطريق هذا الجبل سهلة لينة، وكله أخضر، وفيه أعمدة جليلة، مكتوب عليها بالذهب، وعليها نشان السلطان محمود، وضعت علامة على غاية رمية السهام، لأنه كان فارساً رامياً، ولضلال الجهالات والأوهام راميا، أخضل الله ضريحه، وروح بالرحمة روحه، وتحت الجبل مقبرة كبيرة مخضرة مشحونة بالأشجار المتناسقة، فلله ما أحسن تلك المواضع التي كان السحاب لحسن تربتها من المراضع، وقد ذهبت عند الجي الدولة الروسية في غلطة[2]، فقابلني بالبشر وحسن الملاطفة، وأوصى عليّ الترجمان المسافر معي مسيو موخين بالتلطف بي في الطريق، وهذا الترجمان كان صاحبي في مصر منذ أعوام، وقرأ عليّ شيئاً من المعلقات وأخبار شعرائها، ولما رجعت إلى اسلامبول، وعدت إلى ساحلها المطلول، والعَوْد أحمد، ذهبت إلى إلجي الدولة الروسية الجنرال تيتوف، فتلقاني بالطلاقة والبشر، وذلك أولاً من حسن طبيعته، وثانياً بسبب رسالة وصاية كتبها لي حامي الغرباء وناصر العلماء رئيس الديوان الأسنى والمداوي لعلل القلوب، والأسى مشير السر سينياوين، وبحسن عنايته، أتنعم في هذا السفر، كأني في الحضر، وأتلو فيه قول الشاعر:

وما سافرتُ في الآفاق إلّا ... ومن جدواك راحلتي وزادي
محبك حيث ما اتّجهَتْ ركابي ... وضيفك حيث كنتَ من البلاد

---

(١) تقع وراء شيشلي، كانت منتزه استانبول.

(٢) أي سفير الدولة الروسية ELCI .

ثم فارقت اسلامبول، وفيَّ على فراقها أسف الثكلى، ونزلت مع الترجمان المـذكور في وابور روسي ٢٣ شباط، وسرت في الخليج القسطنطيني ٢٤/مدة أتمتع فيها برؤية البيوت والأشجار من الطرفين، وأتلذذ بطيب الهواء الذي تقر به العين حتى وصلت إلى البحر الأسود، وهناك عند الخروج من الخليج بيوك دره لطيفة البيوت والأشجار. ولم أجد الماء أبداً، وصرت أجري على ظهر الوابور، وابتدأت في تعلم الروسي مع صاحبي الترجمان، وقلت مواليا في اسلامبول:

أهـيف من الـتـرك خلّى القلب في تفتيت
لمّـن رأى الـحـب من عيني عمـل تتليت
إن قلت جيت يا بديع الحسن قال لي كيت
من خجلتي فت له استـانبـول أنـا وجريت

وكان الهواء طيباً، والقمر يخلف الشمس كما قلت:

الشمس إن غربت يبـدو لنـا قمـر ... فنحن بين السمـاء والبحر في نُور

وقلت:

الـبـحـر أسـود والسمـا زرقـاءُ ... لكـنَّ فيه سفـرتـي بيضـاء
أنـا آنس من طيب وقـتـي راقص ... ومـطيتـي طنـانـة وغـنـاء
تشدو فيضطرب الصحاب بشدوها ... لكـنـنـي طرِبٌ فذاك غنـاء
ببخـارهـا تعـدو على أمثـالهـا ... إن صحّ أو إنْ لم يصـحّ هواء
وتنِق في البحـر العميق كضفـدع ... وتـخـافـهـا حيّاتـه والـمـاء
فالـمـاء منـهـا قد تغيّر لونـه ... وعـلاه نوحٌ مقـلق وبـكـاء
هل نارهـا نار الجحيم أمـا ترى ... تلك الـمياه ومـالـهـا إطـفـاء
في بطنـهـا قيظ وفي ظهـر ربيع ... أو خريف تارة وشـتـاء
وركبتهـا فوق الأُجـاج وقبـلُ ما ... للنـفس جارية حلت سوداء

فكـأنـهـا عربـية تجـري على عجـل ولـكـن خيلهـا سحـراء
عامـودهـا قذف الـدخـان كأنـه بركـان نار عمّـهـا الإذكـاء
أو مثل سعلاة أطار الريح في الجـ ـو الـشعـور ورأسهـا شمـطاء
وتخـال مروحـة الهـواء كأنهـا رقـاصـة لكـنـهـا صمـاء
٢٥/أعجـوبـة في شكلها فاقت فقُلْ في وصـفـهـا ما تشتـهي وتشـاء
هي خان زاد أو حصـان مسـافـر أو مركـب للسـير أو رمـضـاء
أو معمـل الحـداد أو هي نزهـة أو بيت سكـنـى جادَهُ الـبـنّـاءُ

ثم اتفق الإرسـاء عند ميناء أودسا غروب شمس يوم الخميس، ومدة السفر كانت أربعاً وخمسين ساعة، وعند رجوعي كانت مدة السفر تسع وثلاثين ساعة، بل قال لي الملاحون أنهم وصلوا تارةً في إحدى وثلاثين ساعة، فبتنا في الوابور، ثم توجهنا الصبح في زورق إلى محل على البحر نظرنا فيه حكيم، وأُمرنا بوضع أيدينا على آباطنا بقوة، وكل ذلك مع الحاجز، وذلك بعدما نظرونا ونظروا تذاكرنا مع القبطان، ثم ذهبنا إلى الكرنتينة مع أمتعتنا، فأمّا نحن فذهبوا بنا إلى محل، أمرونا فيه بالتجرد من الثياب جميعها، ثم ينظرنا الحكيم مقبلين ومدبرين، وفي هذا الـوقت حصـل لي خجـل عظيم، وأبيْت أوّلاً كعنيزة مع امـرؤ القيس، يوم دارة جلجل، ثم أخذنا ثياباً نظيفة غير ثيابنا من هناك، وهذا الملبس قميص ولباسان، وقفطان تترى، وطاقية، وطربوش طويل، وصديري، ومنديل، كأن الشخص في هذا الملبس من التتر أو من رؤساء الغجر، وقلت إذ ذاك :

ويوم أودسـا جردونـي بدلـتـي فصـرت بلا ثوبٍ كيوم ولادتـي
لبسـت ثيابـاً غيرهـا فكـأنـني صغـير تبـدّى في قمـاطٍ ولـفـةِ

ثم ذهبنا إلى المحل المُعد للإقامة مدة الكرنتينة فوق الجبل، وهو مشتمل على عدة أوض كاملة الأدوات، محكمـة البنـاء، وحيطانهـا بالـورق المنقوش، وأُعطي لنا خفراء يحرسوننا، وفي الظهر أُحضر لنا الغداء وهو محكم، وكلما طلب

الشخص شيئاً أُحضر. وخُبز هذه المدينة نظيف ظريف إلاّ أنّ ماءها ثقيل الطعم كما قلت: ٢٦/

ولله يوم أودسا وطودها	نطل على مرسى به حفت السفن
وقد طاب عيشي في رباها ومرجها	ولكن طعم الماء ليس به حُسْن

وذلك أنها على البحر الأسود المالح، وليس فيها نفسها ماء عذب، إنما يجلب إليها من آبار أو عيون، وتارة يشربون من الصهاريج المملوءة من المطر والعيون البعيدة بنحو ست فرست - يعني فرسخ - روسي كما يأتي بيانه، وسبب حلاوة ماء العيون أكثر من ماء الآبار دائماً ترى العربات ماشية حاملة البراميل المملوءة بالماء، ثم ذهبنا ثاني يوم وأخذنا ملابسنا الأصلية وأمتعتنا، فوجدناها منشورة على أخشاب معطرة مبخرة، ومحل الكرنتينة نظيف ظريف، وهو قسمان: قِسْمٌ لمن ألمّ به الطاعون، وإذا مات فيه أحد أُحرق هو وأمتعته، وقسم لغيره. وهناك المروج، فكنا نتفسح فيها وننظر السفن الواردة والذاهبة، وإنما لم يكتفوا بكرنتينة اسلامبول لأنها جديدة غير شاقة، فيظنون أنها غير كافية، وشدة خوفهم من الطاعون أوجب ذلك خصوصاً من وقت حصوله في أودسا سنة ١٨٣٧ مسيحية، بسبب إخفاء بعض البضائع، ولهذا بعد وفاء أيام الكرنتينة يحلفون الناس هل خانوا الكرنتينة، وأمّا أنا فأرسلوا لي ورقة مكتوبة بالتركي متضمنة الحلف بالأيمان المغلظة التي منها الطلاق، فقلت: لأي سبب هذا الحلف، هم قلعونا الثياب، وصرنا عرايا بين أيديهم ثم بخروا الثياب وردوها لها (لنا). ففي أي شيء نخون الكرنتينة، فقيل لي: الروس وكل الفرنج يخافون جداً من الطاعون، ومع كل هذه الاحتياطات فيمكن أن في وسط الأمتعة بعض شيء وباء، فلدفع التهمة بالكلية يحلفون، فحينئذ كتبت اسمي على هذه الورقة.

والتحليف كثير عن الروس، فيُحلّفون المستخدم حين دخوله في الخدمة أن يكون أميناً للقيصر وولي عهده، وكذلك عند قبوله الرتب حتى إن أولاد ٢٧/ القيصر

يحلفون عند بلوغهم الحلم. ولنترجم هنا ما ذكره بعض مصنفي الروس في ظهور الـطاعون أيام كترين الثانية سنة ١٧٧١م قال: «هذا سوط غضب الله النازل من مملكة الترك إلى الملية المجاورين لهم في وقت زحف الروس على بغداد وبلاد الافلاق». ومع وجود الكرنتينات التي رتبت في الروسيا أيام كترين الكبيرة للاحتراز، دخل الطاعون في وطننا وانتشر في ٣ كانون الثاني، وفي ٩ من ذلك الشهر دبروا في دفع هذه الداهية بكل الوسائط، وفي الأثناء الكبة، افترست الأخطاط الجنوبية الغربية من الروسيا، وبسبب ذهاب العسكر إلى اللين والترك كان غير ممكن إحاطة القـرى الـوبـائية. ولهذا أخذت المملكة أوّلاً في عمل الوسائط التي توقف هذا الحـادث وتقمعـه، فانتخبت ابعاد سليم العيال من مربعها، وإبقاء المرضى في البيوت، ويعـطى لهم من الشبـابيك الأقوات على الميري بعدم الملامسة وكثرة الاحتياط، وعلى تقـدير موت المطعون يهدمون بيته ويحرقونه هو وأمتعته، وهذه الـواسـطة كان معمولاً بها في المدن فقط، وبسبب عدم احتياط الناس وجهلهم المتسبب عن عدم تصديقهم بنفع هذه الواسطة انصب الطاعون كالسيل المهلك في الروسيا متقوتاً بألوف من القرابين، ومنتقلاً من محل للآخر وقبله الأخبار المهولة التي أيست الروس من الحياة، فقط الهلع والأنين يسمعان حيث الهدوء والسعادة المقتـرنين عن قريب قوّما معيشة الروس تحت حكم كترين الأخيرة، وفي الآخر أسوار موسقو ما حمتها من الضيف الملعون الجالب الموت، ففيها كان ظفر الموت الســاكن ومنظر الجهل، ولنقل هذا بلا لوم أسلافنا، لكن لومهم لازم أولاً لتعلم الذرية». وأودسا أول ما رأينا من بلاد الموسقوب، ٢٨/بل من بلاد الفرنج، وهي جديدة العمارة من منذ خمسين سنة، وازدادت عمارة من منذ ثلاثين سنة، وكل وقت تزيد، وهي فرضة عظيمة من فرض الديار الموسقوبية، كثيرة التجارة والأمتعة فيها وسائر الأشياء رخيصة بالنسبة لغيرها من بلاد الموسقوب، بسبب انه لا جمرك فيها على البضائع الداخلة ترغيباً للمسافرين في الوصول.

والمنهل العذب كثير الزحام، فلذلك تراها مملوءة بعربات المتجر، وقلّ أن

تنفك إلّا في أيام الأحد والأعياد، ولسانها العام اللسان الروسي كسائر بلاد الموسقوب، وإن كان يتكلم فيها بكل لسان بسبب كثرة الغرباء، وزيادة على ذلك، إن الكبراء لا بد لهم من معرفة الألسن الغريبة كالفرنساوي والنيمساوي والإيطالياني، فلذلك فرض عندهم في التربية خصوصاً لبناتهم. وهواؤها معتدل في الغالب، ولكن الغبار فيها كثير بسبب كثرة البضائع وغيرها، فهي لا تنقطع من طرقها، وتارة بسبب كثرة الرياح والأمطار بها قليلة، لم نرها إلّا ثلاث مرات مدة الكرنتينة، ورأينا الرعد والبرق ليلة واحدة لكنه كالمدافع والمشاعل بحيث ينير الجو كله، ولا يقدر الطرف أن يحققه، وتارة يظهر كالأعمدة، وتارة كالمشاعل، فتذكرت إذ ذاك حريقة مير الخليج في مصر، وكانت الأيام طويلة أكثر من مصر، فكأن النهار أكثر من ستة عشر ساعة، وهكذا كلما بعد الإنسان جهة الشمال كما تذكر في أيام بتربورغ وقد قضينا هذه الأيام في الحظ واللعب في تلك المروج والتفرج على البحر والسفن فلا عيب فيها، إنها تُعد من العمر كما قلت:

وأيام مصر على أيام تطول وغينها عنّا مُحجّب
٢٩/ولست أرى بها عيباً سوى أن تعد عليّ من عمري وتُحسب

واستمريت على تعلّم لسان الروسيا مع صاحبي، وحفظت بيتين بالروسي مناسبين لحالي، وقلت في ترجمتها:

الوداع الوداع ثم وداعاً يا بلادي وعزتي الأقربينا
يا بلاداً من أسعد الأرض فيها أنا قضّيت بالمسرة حينا

ثم عند خروجنا من الكرنتينة جاء حكيم آخر ونظَرَنا، ثم توجهنا إلى ديوان الجمرك، فنظروا الأمتعة جميعها، وأرسلوا الكتب إلى محل آخر ليمتحنوها، وهكذا يفعلون في كل الكتب والجرنالات الواصلة في الروسيا، لا بد من عرضها على محك البحث، ومنع ما لا يناسب منها، ولهذا ترى في الجرنالات بعض عبارات ممحوة بالسكين، ثم بعد ذلك أخذت الكتب، وسكنت في موضع معد

للغـرباء متسع نيّر، وكل هذه المواضع التي للمسافرين كذلك، وكذلك البيوت وطرقها واسعة جداً، دائماً يسمع قعقعة العربيات ليلاً ونهاراً، وفيها منتزه على البحر يسمى «البـولـوار» وهـو أربعـة سطور طويلة من الشجر تمر الناس بينها للتفسح خصوصاً في العصارى، وخصوصاً في اليوم الذي يلعب فيه بالموسيقى مثل يوم الأحد، وفيه دكك لطيفة مثبتة لاستراحة المتفسحين، وعند طيب الهواء ليلاً تذهب الناس وتجلس هناك على السلالم الكبيرة الموصلة للبحر لاستنشاق الهواء، وقد ذهبت هناك في ليلة سكن بها الريح واستروح بنسيمها العليل كل قلب جريح :

وطـابَ ليَ الـنـسيم فَرَقَّ حتَّـى	كأنّـي قد شكـوتُ إلـيه ما بي

فجلست هناك أنظر للبحر الأسود، وكان هادياً، وإلى القمر وهو ٣٠/كحسناء تارةً تحت برقع السحاب، وتارة يلوح بادياً:

والبـدر مثـل جميلة تاهت على	عشّـاقهـا فتـرقبـوا الميعـادا
فيروح طوراً تحـت سُحب براقـع	ويلوح طوراً حبّـذا إذ عادا

وعند هذه السلالم الكبيرة المبنية في وسط البولوار صورة رشيليي حاكم أودسا السالف، مادّاً يده إلى البحر، وواقفاً على قاعدة عظيمة مرتفعة، وذلك أنه فعل أشياء نافعة للمدينة كأنّه منشؤها، والعادة ببناء آثار لحفظ ذكر الأشخاص النابغين الذين فعلوا شيئاً عظيماً خارجاً عن العادة. وفي بتربورغ كثير من هذا النوع على ما يأتي، فلِمَ لا نعمل آثاراً لأسلافنا البارعين وآبائنا الفائقين؟ وليس لازماً في الأثر صورة حتى يقال إنها محرّمة، بل يمكن عمل الآثار بلا تصوير، لكن لا يكون بهذا الحسن. وبـالجملة فعلمُ التصوير علمٌ نفيس يحكي لكَ الأجيال، ويريك أباك وأُمّك والعيال، ويمثل لك صورة البلاد والجبال والوهاد، فلِمَ لا نشتغل به لتشحيذ القـرائـح القـريحـة، وتعليل النفـوس الجريحة، مع الخروج على الحرمة، إمّا بالاقتصار على تصوير غير ذي روح من النباتات والأشجار ومناظر البلاد؟ أو بتصوير ذي الروح بكيفية لا يعيش بها، على التعلّم شيء آخر كما قيل:

تعلَّمِ السحرَ ولا تعمَلْ به   العلم بالشيء ولا الجهلُ بهِ

وقد كتب لي مسيو فرنيل في مكتوب ما نصه هذا: «ومن جملة ما ذكرتم من محاسن بتر بورغ لم تذكروا التصاوير، لأن أولاد إسماعيل مع حدة فطنتها مفتقرة إلى حاسية عظيمة، وهي حاسية الصنائع النفيسة، وعلم التصوير». فكتبت إليه: إني ما كتبت شيئاً من شأن الصور لأنّي رأيتها في مصر. وأحدَثت ٣١/أوّل مرة تعجّبي واستغرابي حتّى قلت:

وصورة حُسْنٍ قاتلَ الله مَن غدا   يصوّرها ما باله كيف يفعلُ
كَلِفْتُ بِفيها إذْ بَدَت غير أنني   إذا رُمْتُ تقبيلاً فماذا أُقَبِّلُ

وقلت أيضاً:

وصورة حسنٍ أبدع الدهرُ شكلها   إلى أن تعدّى طورها لبَّ جاهلِ
توهّمَمها من عيّه آدميّةً   ولكنها قد أوتيت عيّ ناقلِ
فنهنهتهم فاستبدلوا الغيّ بالهدى   فكانت لدى الشيطان أقوى الحبائلِ
فقولهم زور شبيه بصادق   وزجري لهم حق شبيه بباطل

فكتب إليّ: إنّه انسرّ من ذلك، وإن قولي «كلفت بفيها» من أحسن المعاني التي يمكن أن تقال في التصوير، وإنه وجد إنساناً عشق تمثال العذراء عِشقاً حقيقياً حتى عانق التمثال، فأزالوه من الكنيسة، وذلك في رومة، معدن هذا الفن التي رنّ فوقانها وطن، وفي آخر البولواربيت الأمير فرانسوف حاكم أودسا ـ وما صاقبها، وما قرب منها مثل بلاد القرم إذ ذاك، وقد ذهبت عنده فتلقاني بالطلاقة والبِشْر، وفرّجني بنفسه على قاعته المزخرفة المشحونة بالصور النفيسة والأواني البديعة، وهي مطلة على البحر، والأشجار محدقة بها كما قلت فيها:

في قاعة الكونت أشكالٌ منّوعةٌ   تلهي نفوس الأناسي عن أمانيها
على وفاق الهوا فوق القباب بدَت   فهي السفينة وهو البحر منشيها

وسألني عن مصر وما فيها من البدائع فأخبرته، وهو محبب في هذه المدينة، كأنّه أبٌ للناس، مجتهد في تحسينها وتعميرها بأحسن أساس، وقد عيّنه القيصر وزيره في بلاد ضاغستان وتفليس، لمّا رأى أن غنى غنائه في الرشد والإصلاح لا يدخل في باب الحجر والتفليس.

٣٢/وفي وسط المدينة جنينة كجنينة روشتق بمصر، إلاّ أنها كلها طرق، وفيها معمل للماء المعدني، فتأتي الناس كل يوم في الصباح وتشرب الماء المعدني كل على حسب علته، وتتفسح هناك في خلال الشرب. وهناك في هذا الوقت موسيقى في بعض الأيام، فلهذا يأتي ناس أخر غير المتداوين للتفسح. وعادة الأوروبيين أن يتداووا من بعض الأمراض بشرب الماء المعدني مدة شهر أو أكثر، فيشربون كل يوم مقداراً معلوماً كما يأمر الطبيب، منهم من يشرب أربع كبايات، ومنهم أكثر، وبعد شرب كل كباية يتفسحون نحو ربع ساعة، ثم يشربون أخرى وهكذا، وربما سافروا من بلادهم إلى بلاد أخرى لشرب الماء المعدني، وبعضهم يتداوى بالاستحمام في البحر، ويذهبون لأجل ذلك، وبعضهم يتداوى بالامرين، ومنهم من يتداوى بشرب الماء البارد الطبيعي كما في غريفين بورج من بلاد النيمسا، وهناك يتداوى تقريباً من جميع الأمراض بلا عقاقير. وفي خارج المدينة حديقة كبيرة، تسمى حديقة النباتات، تذهب الناس إليها فراراً من غبار المدينة وحرها، وهناك أشجار كثيرة وبيوت للسكنى أيّام الصيف، وقد ذهبت في يوم حار كثير الغبار خارج المدينة، فمررت بين صفوف الأشجار، فكان الهواء ألطف مع قرب المسافة بسبب عدم كثرة الأبنية. وأمّا في بتربورغ، فلكثرة الأبنية خارج المدينة غالب النواحي حارّة، فلا بد لاستنشاق النسيم من التباعد، وفي خارج المدينة أيضاً مدرسة عظيمة فيها تتعلم البنات الألسن الفرنساوي والروسي والنيمساوي والخياطة والنسيج، ونحو ذلك. وقد ذهبت للتفرج على هذه المدرسة، فقابلتني ٣٣/مديرتها بالبشاشة، وفرّجتني على جميع أوض الدروس وأوض الطعام وأوض النوم، وكلها نظيفة ظريفة، وتطل من جميع جهاتها على حديقة كبيرة، ومن حيث أن نساء

الأوروبيين وبنـاتهم يحضـرن المجـالس فلا بد لهن من التعلم ومخاطبة النساء والبنات في المجالس، مُهذِّبةً أخلاق الرجال، مُلطفة طبائعهم، إذ ليس التكلم مع الرجال كالتكلم مع المرأة، الطبيعة تقتضي ترقيق الخطاب للنساء، فبكثرة ذلك يصير الإنسان مؤدباً في الخطاب، ومن محال التفسح محل يسمى القصر الملكي، وليس هو بقصـر، إنما هي مخازن ودكاكين منظمة، وفي وسطها فسحة مغروسة الأشجـار، في غاية اللطف فهـذه التسمية مجـازية، فتـذهب النـاس هنـاك في العصـارى، ويتحلون ويتبـردون، إذ هنـاك الحـلاوات والمبـردات ونحو ذلك. وبالجملة فمنتزهات أودسا تشرح الصدر والفؤاد وتنسي الغريب هموم فراق الأهل والأولاد. وفي كل يوم ترى هناك الناس بكثرة من الرجال والنساء، وكل هذا ناشىء عن رفاهية البال وحسن الحال، وانتظام القوانين، وكثرة المُثرين، ولما كنت أدور فيها كانت الناس تستغربني وتحدق النظر بي خصوصاً النساء، لأن لباسي عربي بالكُلِّية، خصوصاً لما كنت أركب العربة، والعربات فيها كثيرة كالحمير بمصر، والخيل باسـلامبول، وقلَّ مَنْ يركب الخيل، فعمّ النظام، وكل عربيات الركوب بالخيل، وأمّـا عربيات البضائع فبعضها بالثيران، وثيرانها كثيران اسلامبول، ولا توجد بها الجواميس، وأمّا الحمير فإنّي رأيت بها أتاناً تجري في مروجها فكأنها هربت من أثقال مصر، ولم أجد هناك مَن يتكلم بالعربية أوّلاً كما قلت:

إنْ جُزتَ مملكـة الفرنج تجد بها ... ما تشـتـهـيه الـنـفس من أُمـنـيّه
٣٤/لكنمـا العـربيُّ في طرقـاتهـا ... مُستَغـربٌ يبكي على العـربيّه

فيه تورية باللغة العربية.

لم يلقَ فرداً عارفـاً بلسـانـه ... أبـداً ولا هو عارف الـروسـيّه
هو ساكتٌ إذْ لم يجد عربـاً بهـا ... لكـنـه متـكـلِّمٌ بالـنـيه

ثم بعد ذلك رأيت بعض فرنج من الذين كانوا في مصر وكلموني بالعربية، وقد كلمتني بنتهم في وسط البولوار، ثم قالت عند الذهاب: اقعد بعافية ـ على عادة

نساء مصر ـ فقلت حينئذ:

أمـرضـتـنـي عيونـهـا   وهـي إن تَبْـغِ شافـيَه
مع هذا لسـانـهـا   قال لي اقعـد بعـافيه

وقلت أيضاً:

فتـاة من الافـرنـج تنطق بالعرب   فتـطربني ألفـاظهـا غاية الطرب
لبـاقـة ألـفـاظ وسحـر لواحظٍ   وثغرٍ كنظم الدُّر أحلى مِن الضَّرب
تربَّت بمـصـر بلدتـي ولـقيتهـا   غريبين في مرسى أودسا فيا عجب
وقـالت بلطف بعـد طول تحـدّث   بعـافية اقعـد سليماً من العـطب
فقلت لهـا إني فديتـك راحـل   غداً وفؤادي قاعـد عنـد من أُحبّ

وصادفت في منتزه أودسا فتاة افرنجية ببرنس عربي، فذكرت بلادي التي فيها أثرى الأنام من الصبوة واللهو والصبا والمجون:

كان عيشـي بهـا عزيزاً فلا غَرْ   وَ لعـينـي تبكـي بمـاءٍ مهـين

وقلت:

في أودسـا بدت حسـان الغـواني   يتبـختـرن في ثياب الـجمـال
وأرى بينـهـن فوق فتـاة   برنسـاً من ثياب عرب الـرجـال
أتـراهـا بذلـك الـلبس ترمـي   لسـلامـي بغـاية الآجـال
٣٥/فيهـا قد نسيت وحشـة بُعـدي   وكـأنّـي بذاك بين الأهـالـي
أذكـرتـنـي بمـصـر كل رشيق   يزدري لحـظه بعـين الـغـزال
ونـضـتـه من بعـدمـا عَلِمـتـني   عاشـقـاً والهـوى قرين الـدلال
ظلم الـردف خصـرهـا مثل ما قد   ظلمـتـنـي ولـم تَجُـد بوصـال
سجـنـتـه بين الـنـطاق أسيراً   مثـل أسـرى لقـدِّهـا الـميّالِ
هو بعض منـهـا ومـا رحـمـتـه   كيف يرجـو الغـريب رحمـة قَالِ

وأنـا ميت بحـية صدغـيهـا م سليم لكـن بغـير قتـال

ليس إلاّ اللحـاظ في وسط البلـ وار يسـطو على الـنهي بالنـزال

وعـيونـي تنـزهـت فجنـت للـ ـقـلب حتفـاً أمضّـه بالنكـال

آه من عينـهـا وعـينـي وآهٍ من جفـاهـا وصـدهـا المتـوالِ

يا أودسـا رفـقـاً بطَلٍّ غريب واستـرى كل طفلةٍ في الحجـال

وقلت أيضاً:

تبـرنست في أودسـا غادةً حسنـة من الفـرنج نفت عني الكرا وسنَه

فهـل تشير إلى أنسي ببـرنسهـا وانهـا مع مثلي تفعـل الحسنـه

وفي أودسا مارستان للمرضى، وبيت لليتامى، وفيها التياتر بالإيطالياني كتياتر مصر، إلاّ أن البنية شاهقة، ذهبت إليه مرتين، الأولى أظهروا فيها السلطان محمد، وأظهروا اللاعبين بعمائم كالمسلمين وصوّروا إحراقه البلاد، وحين خرجت وجدت المطر، فقلت: «هربت من الحريقة وقعت في المطر»، ولم يكن هناك متعمم غيري إلاّ اللاعبين، فهل أنا منهم؟ لا، ويقصدون بذلك تعليم الناس أخبار الأمم وأحوالهم، فهو في الحقيقة درس أدب ومغني طرب، يقول لسان حاله:

يا مغـرقـاً في أدب الـدَّرس أفـضـل منـه أدب الـنـفس

٣٦/والثانية أظهروا فيها متدلهة من العِشق وعاشقها، ولا شك أن هذا يكشط عن القلب جلد الخشـونـة والغلظة، فبالجملة التياتر كما قال ابن عطاء الله: في الدنيا ظاهره غِرّة، وباطنه عبرة، وكما قال الآخر:

ليس شيء إلاّ وفـيه إذا ما صادفتـه عين اللبيب اعـتبـار

وفيه خانات مُعَدّة للطعام ومع غاية الإحكام في البناء والنظافة وعندهم قائمة بما يوجد من أصناف المأكولات فيطلب الشخص ما يريد، وقد يتفق أن جماعة

يذهبون معاً للأكل، وكل ما يأكل ما يريد، وفي بعض الأحيان تأتي في هذه المواضع نساء حسان يضربن بالقانون فلقد أشغلني حسن صورتهن عن حسن صوتهن، وتذكرت قولي سابقاً:

ليتني للسماع ما كنت أشتا	ق ولا كنت مولعاً بالمِلاح
إنّ عيشي يمِرّ في اللهو والحز	ن وعيش الغبيّ في الأفراح

ومعهن بنت صغيرة جميلة تلم النقطة، وكل مَن أعطاها شيئاً سلمت عليه بكيفية جميلة، وهذا نوع من الانحناء يسمى «ريفيرانس»، فأين صورة هذه النساء المكشوفات الوجوه من صورة من يضرب على القانون في مصر من عجائز الرجال.

تنبيه: لا أعرف كلمة عربية تؤدي معنى ريفيرانس، فلا بد إمّا من الاتفاق على كلمة أو استعمال اللفظة الفرنساوية وتعريبها، والروس دائماً يستعملون كلمات فرنساوية ونيمساوية من جملتها هذه الكلمة مع وجود كلمة روسية، لكن استعمال الكلمات الغريبة ألطف، وهذا كما تستعمل الكلمات العربية في التركي والفارسي، أو الكلمات الفارسية والتركية في العربي، وأمّا ترجمتها بعمل التمني فلا يناسب؛
أوّلاً: هذه الكلمة للسلاطين والباشوات والأمراء. ثانياً: عمل التمني باليد، والريفيرانس بالرّجل وبينهما بَوْن بعيد.

٣٧/وقلت مخاطباً لبعض أحبائي بمصر وأنا في أودسا:

يا حبيبي بمصر ما لك تنسى	ولديك المحب غادر نفسا
سافر الجسم عنك في سفن النا	ر وما في الوصال قطع مرسا

«تورية بشهر مارس الافرنجي»

جاز بحر الهوى الأجاج وقاسى	فوق قيس عشقاً وضعفاً ونكسا
ثم أضحى الهوا لديه حميداً	فتراه في دولة الترك أمسى

عاش فيهــا فوق الخليج زمــانــاً في الـتــذاذ ما فيه صادف بوســا
ثم أجــلاه دهــره وهــو خصــم عنــد مُسْــوَد بحــر شدة فتحسى
ويرى الـبـحــر كالـسمــاء ولا أر ض يراهــا أفي السمـوات وأمسى
ثم طاب الهواء وأحسن لي الدهـ ـر فأرسـيت عنــد سيف أودســا
بلد تلتــقــي إذا كنـت فيه منــزلاً واسعــاً وخصبــاً وأنســا
فيه تمشي الـولـدان والحـور زهواً في جنــان النعيم صبحــاً وأمســا

ثم إن أودسا تسمى باللغة التركية قواجه بيك، وهو اسم محل فيها إلى الآن. ولمـا رجعت إلى أودسـا وجدتها زائدة العمارة، حسنة الشارة، فهي كل يوم في ازدياد، إلاّ أني دخلتها في يوم عاصف الرياح، كثير الغبار، أنساني خماسين مصر، ولكن لما وصلت، وذهبت عند الجنرال فيدروف النائب مناب الأمير فرانسوف، تلقاني أيضاً بغاية البشر، فقلت:

لِمَ لا تقــتــدي أودســا بأهــليـ ك فتــلقــينــني بأحــسـن بِشْــر

ثم إن علماء الجغرافيا قسموا الروسيا إلى أقسام: الروسيا الصغيرة، والروسيا الكبيرة، والروسيا الجديدة، والروسيا القديمة، والروسيا البيضاء، وقد انضمت إلى روسيا ممالك أُخر دانت لها، وانقادت كمملكة اللين والفينلاند والجرج وغير ذلك كما سيأتي.

٣٨/ثم خرجنا من أودسا يوم الأربعاء ٢٢ أيار في عربة اشتريناها ومررنا على ديوان الجمرك الذي مررنا به أوّلاً، فنظروا العزال وربطوه بحبال وربطوا فيها قطع رصاص ثم ختموها وأرسلوا خفيراً معنا إلى ديوان المكس الثاني في طريق الذاهب من أودسا وبينهما مسافة قليلة، فأخذوا الرصاص المختوم، وسرنا حتى وصلنا إلى أوّل محطة لأخذ الخيل، وهناك، بل وفي سائر المحطات لا يعطون الخيل إلاّ إذا رأوا ورقـة مسمـاة البيدروجين، أو تذكـرة المرور، لكن إذا لم يكن بدروجين لا

يلجـأون إلى إعـطاء الخيل، ويأخذون مهما أرادوا من الكراء، ومع البيدروجين يلجأون إلى إعطاء الخيل بالثمن المقدر، وتلك الورقة منشنة وعليها نشان القيصر، فبغير ورقـة لا يمكن السفـر، فهي كالحـارس للإنسـان، وذلك أن تعطي الورقة فيكتبون عليها: وصل هذا المسافر في ساعة كذا، وسافر في ساعة كذا مع كذا، فإذا حصـل بعض شيء يكـون التفتيش سهلاً، وهذا البيدروجين تارة يشترى، وتارة يعطى على الخزنة إذا كان الإرسال لمنفعتها، هذا وكل أوراق العقود والتمسكات وحجـج الأملاك والشهادة، والعرضحالات وتذاكر المرور وأوراق إثبات الولادة، والتعميد والتزويج، والعتق، والقسم، وغير ذلك لا تكتب إلاّ في ورق منش بنشان الروس وثمنه مختلف، وفي كل ورقة مطبوع ثمنها. وأوّل ما دخل ذلك في الروسيا ٢٣ كانون ١٦٩٩م بأمر القيصر بطرس الكبير، وكان الفرخ من النوع الأدنى بدائرة صغيرة فيها نقش ثمنه نصف كبيك فضة، والوسط بدائرة وسطى فيها نقش ثمنه كبيك فضة، والأعلى بدائرة كبيرة، فيها نقش ثمنه عشرة كبيك فضة، ثم ارتفع ثمن النوعين الأخيرين ٣٩/في أيام بطرس، وبقي الأخير على حاله زماناً طويلاً، وأمّا الآن فارتفع الثمن جداً، فمن سنة ١٨٤٠م إلى هذا الوقت ثمن النوع الأول ١٥ كبيك فضة ٣٠ ثم ٦٠ ثم ٩٠، وللحجج بحسب قيمة المكتوب له، وأنواع ذلك أربعة وعشرون، الأول ٩٠ لما قيمته من ١٥١ ربل إلى ٣٠٠ ربل فضة، والثاني ربل وثمانون فضة، لما قيمته من ٣٠١ ربل فضة إلى ٩٠٠ ربل فضة، وهكذا إلى الرابع والعشرين فقيمته الكاغد المنشن ١٢٠٠ ربل فضة لما قيمته ٣٠٠,٠٠١ فصـاعداً، وللتمسكات كذلك بالنسبة، ولذلك تفصيل يستدعي التطويل، وإنما القصـد ذكـر أنموذج من كل شيء. فأعطينا البيدروجين وأُعطي لنا خيل بالأجرة المقررة لكل فرست كبيك ونصف أو أكثر بحسب المواضع، وعلى هذه الكيفية سرنا من محطة إلى محطة، وكل محطة منقسمة إلى عدة مسافات يعبرون عنها بفـرست يعني فرسـخ، والفرست الروسي خمس ماية سجين، والسجين ثلاثة أذرع روسية، فبعض المنـازل عشرون، وبعضها أكثر أو أقل، وعلى كل رأس فرست

عمود من خشب لطيف منقوش مكتوب عليه الذاهب والباقي من المنزلة، وقد كانت في زمن كترين الكبيرة علامة الفرست عموداً مبنياً من الحجارة، ويوجد إلى الآن بعض هذه الأعمدة قرب جيتومير، فهذا مما ينشط المسافر، وعند عمد المحطة مكتوب عدة الباقي إلى المدن الكبيرة مثل موسقو وبتربورغ، ولهذه الغاية نفسها قسمت الكتب إلى أبواب وفصول. وفي كل منزلة أفراس بالأجرة إلى المنزلة الأخرى، فكنا نغير الخيل في كل منزلة، فتارة نأخذ أربعة وتارة أكثر بحسب المنازل سهولة وحزونة، وتارة لا يأخذون أجرة السادس، والليل كالنهار في السير والصحو والغيم سيان، فلا مانع أبداً ولا خوف في هذه الطرق التي هي صحارى بلا /٤٠ أشجار مدة، ثم مملوءة بالغابات والأشجار الكثيرة، ويوجد في بعضها ذئاب وأرانب وحشية، وطالما تعجبت حين رأيت في هذه الطرق امرأةوحدها في عربة أو ماشية، فحقيقة هذا من الأمن العجيب وليس بلازم للمسافر في بلاد الروسيا حرس ولا خدم، بل هذا من زيادة الخير، وقد ضاع لبعض القادمين هذه السنة إلى بتربورغ أشياء سقطت من عربته في وسط الطريق، ففتش عليها وأرسلت له في بتربورغ. والبلاد التي جزنا عليها في المنازل كلها محفوفة بالأشجار، وبيوتها أكثرها بالخشب مبيضة من داخل ومن خارج، فهي لطيفة وإن كانت حقيرة، ومررنا على بلاد قديمة معمورة باليهود، وهم كثير في الطرق من أودسا إلى نهر دفينا، وبالمروج كثير من الأنعام غير الإبل والجواميس، وأعجبتني هذه الكيفية المسهلة للأسفار. وودت أن لو كان للحجاج طريق بهذه الكيفية، وأعجبني رعي عجول البقر الصغار وحدها أو مع الغنم، وكان الهواء معتدلاً، فكان السير لذيذاً في تلك الغيطان والأشجار التي تنقطع حتى قلت:

أبصرت إذ جزت على الروسيا ... أشجارها بالحسن مغبوطة
تدمشقت من حسن جناتها ... على دمشق الشام والغوطة

وقلت:

لو الحـــريري أبصـــر الـــروسيا لقـــال فيهـــا جنـــة الـــدنـــيا
أو عدّهـــا أوّل جنـــاتـــهـــا لكـــنـــه لم يحظ بالـــرؤيا

وقد أتعبني ركوب العربة أول يوم، ثم اعتدت عليه، وهي أسهل المركوبات بعد السفن على أنّها ٤١/سفين بر الفرنج كما أن الإبل سفين بر العرب كما قلت:

وألـــذ الـــمـــركـــوب ما معـــه يســـهـــل إذ ما تروم الـــرقـــاد

وقلت كذلك:

عربـــية الـــعـــربـــي جرّ ته إلـــى تلك الـــبـــلاد
فيهـــا مشـــاربـــه صفت وبـــهـــا أتيح له المـــراد

وكلمـا مررنـا يسلم علينـا الناس برفع البرانيط، وقد اتفق أن السماء أبرقت وأمطرت في أوّل السفر، فقلت:

فرحت بمقـــدمي البـــلاد وأهلهـــا رفعـــوا برانـــطهم لأجـــل سلامي
حتى السمـــا حيّت ببـــرقٍ ضاحك والأرض رشّـــت ساعـــةً قُدّامـــي

وهذا النوع يسمى حسن التعليل، وهو أن يذكر للشيء علة ليست علته في الواقع، كقول آخر:

ومـــا نزل الـــقـــطر إلاّ لكـــي يُقَـــبّـــل بين يديك الـــثـــرا

فإنه من البيتين، أن علة نزول القطر وسبب البرق ليست إلا التحية والإكرام والتقبيل، وهذا من التلاعب بالكلام.

ومررنا على أنهار كثيرة أوّلها نهر بوخ، وعديناه بالعربة في قارب كالطوف يجر بحبل كمعديّة أبيار من قرى مصر، وقد شربت من مائه العذب عند المرور. قلت: وعند رجوعي قضيت ساعات قرب هذا النهر، وهناك جبل مخضر في وسط البيوت

اللطيفة المبيضة، وفيه كنيسة مذهبة، وصرت أتعجب من حسن هذا المكان وأقول: ليس في نواحي بتر بورغ مثل هذا المحل في طيب الهواء وحسن الموضع. وهناك انسلخ منا جلد تلك العجلة الحديد، فأعطيناها الحداد ليثبتها، ثم بعد مدة انسلخ ثانياً في وسط المحطة، فصرنا نسير على المهلة ونقول: العجلة من الشيطان، وحقيقة هذه العجلة من الشيطان ٤٢/.

ثم وصلنا كييف Keiv يوم السبت، فنزلنا بها للراحة والسبت في خان لوندره، وهذه المدينة كانت كرسي مملكة الروسيا أوّلاً وعليها آثار القِدَم، وهي مقدسة عندهم، بها كثير من جثث قسسهم المقدسين يزورونهم في الكنائس، ولهذا كثيراً ما يحجون إليها كما إلى بيت المقدس، وبها كنائس قديمة منها كنيسة على شكل أيا صوفية وقد طلعت على كنيسة أندريا وتفرجت على المدينة وهي كثيرة الأشجار والحدائق يحيط بها نهر دينيبر Dnieper، وهو من أنهار الروسيا الكبار، ويتصل إلى موهلوف Mogilev، وحولها غابات كثيرة ترى سوداء من بعيد، وقد رأيت فيها النّظام مجتمعين يوم الأحد، فكان تقليب أرجلهم كالموج وقلت:

لا تعجبوا إنْ كان أهل الروسيا — أُسد الحروب فأرضها غابات
إن فاتني في مصر أحسن روضة — فلدى بلاد الروسيا جنّات

وهي في جبل محصنة، وبها مدافع أخذ بعضها من حروب الترك موضوعة حول القلعة إظهاراً لقوتهم، وإشعاراً بشدة شكيمتهم، وقد قطعت طرقاتها بالعربية ومتعت ناظري برؤية مبانيها وحدائقها البهية، ورأيت فيها فتاة بديعة الجمال تصيد بلحظها أرباب الجلال، قد تدنس فسطانها فغسلته ثم بدلته، فقلت في ذلك:

وغادة خطرت فاقتاد ناظرها — قلبي فها هو مرتج على الكفل
ورفعت بيديها الذيل من طبع — أصابه تبتغي التنظيف بالبلل
وبدلته سريعاً وهي قائلة — هذا جزاء الذي قد راغ من قلبي

ولما رأتني أديم النظر إلى حسنها، سمحت بإرسال رسول الصفا، فقلت وقد عراني انقباض وجفا:

٤٣/مذ أرسلت ديوثها لي عفتها ... خجلاً وقلبي بالعيان قنوع
وأبيت حسن وصالها مع حبها ... إن المحبة بالوصال تضيع

فكأن قلبي سلك طريق سليك بن السليكة القائل:

يعاف وصال ذات البذل قلبي ... ويتّبع الممنعة النوارا

ثم لما قوضنا خيام الإقامة وعزمنا على الترحال، صارت تجري أمامي محلقة على دجاجة بيدها فقلت:

صادف فؤادي عند كيف رشيقة ... سحرته بالنفثات من شفتيها
قد سرت عنها وهو باقٍ عندها ... بث الهوى الإيماءُ من عينيها
دجت على أثر الدجاج وحلقت ... نحو الأمام برفعها ليديها
فكأنّ ذا منها عناق مودّع ... لما رأت أني أميل إليها

ودائماً تسمع في كييف دق الأجراس، وكذلك سائر البلاد، فإنها مشحونة بالكنائس خصوصاً المدن، وقلت مكتفياً:

وسامرتها والليل مُرْخٍ ذيوله ... علينا كأنّا قاضيان على الهوى
ومذ سمعت صوت النواقيس هرولت ... تصلي فراعت مهجتي ضربة النوى

النوى: مختصر من النواقيس، وهذا هو الاكتفاء. أو بمعنى البعد، ولا يحسن الاكتفاء إلاّ إذا اشتمل على التورية كهذا، وكقولي:

شكوت للمحبوب نيران الجوى ... بكبدي فماس تيهاً وقلا
وقال لي أنت الخليل لي فلم ... لا أصبحت عليك برداً وسلا

فإن سلا إمّا مختصر من سلاماً أو فعل من السلو، وعلى ذكر النواقيس قال الحاجري:

مذ قام يضـــرب بالنـــاقـوس قلت له مَنْ عَلّم الـظبي ضربـــاً بالنـــواقيس
وقـلت للعـين أيّ الضّـــرب يؤلمكي ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

وعليه مؤاخـذة أدبية حيث نسب الإيلام للعين وحقّه أن ينسبه ٤٤/ للقلب، وكأنه قاسه على قرة العين، والفرق ظاهر، لأن قرة العين سكونها عن الطماح أو بردها سروراً، وهذا ناشىء عن سرور القلب، وإنما ينسب لها البكاء الناشىء عن حزن القلب، كما أن حزن القلب ناشىء عنها، فالعين تنظر فيألم القلب فتبكي العين، فكأنها جوزيت حيث كانت السبب، فاقتسام الحظ مع القلب وبكائها برداً للسرور وحاراً للحزن، فسبحان اللطيف الخبير، وأيضاً فلا يحسن الذوق الأدبي إشباع الكاف فهو إشباع جائع من الأدب، وأيضاً فإن ضرب النواقيس من حيث هو لا يؤلم من حيث انه بسبب الفراق، كما فعلتُ في شِعري. وعلى ذكر النواقيس، فلنذكر الناقوس الخالد وهو في موسقو في حفرة متسعة محفوفة بالنباتات قرب كنيسة يوحنا الكبير، ويتوصل إليه بسلالم نحو عشرين، وهو أكبر النواقيس الموجودة في الدنيا، حتى ادعى بعض المصنفين أنه لا يمكن تعليقه ولا نقله، وكذب الروايات المشهورة انه كان معلقاً في نوفغورد (Novgord)، ونقل إلى موسقو وعُلق، ثم لفرط ثقله قطع علائقه واستراح في هذه الحفرة سآمة من طول الانتصاب، لكن حقق بعض المهندسين أنه يمكن تعليقه ثانياً، لكن بصرف ألوف الرُبل، ويظهر كجبل من المعدن، قيل إنه لما سبك رمي الناس الخواص والعوام فيه فضياتهم وأوانيهم، ولهـذا يميل لونـه إلى البياض الفضي ويلمـع، والفـلاحون يزورونه في الأعياد ويعـظمـونه كالكنيسة، ويخاطرون في النزول والصعود ويُصَلّبون. ومحيط دائرته على ما حسب بعض المهندسين سبعة وستون قدماً وأربعة ٤٥/ أصابع، وعلوه أحد وعشرون قدماً وأربعة أصابع ونصف، وغلظه حيث يضرب ثلاثة وعشرون أصبعاً،

ووزنه أربعمائة وثلاثة وأربعون ألف وسبعمائة وسبعون رطلاً، وقيمته ستة وستون ألفاً وخمسماية وستون ليفر ستيرلانسك وستة عشر كبيك، مبلغ جسيم، وأثر عظيم يبلى الـدهر ولا يبلى. وبعد رؤية هذا لا يتعجب من رؤية نواقيس يوحنا الكبيرة التي أعظمها أربعة آلاف بود، لكن يتعجب كيف تقدر الحيطان أن تنوء بهذا الحمل الثقيل، وبعضها من الفضة لولا بعض خلط ضروري لصيرورته مصوتاً رناناً. وفي كييف (Kiev) مدارس؛ منها مدرسة البنات، وقد أعجبتني في ظاهرها، فكيف من باطنها ع تعني مثال «الغصين هذا فأين الظل والثمر». وفيها مواضع كثيرة ترصد فيها الحريقة مشحونة بآلات الإطفاء كالطرنبات وبراميل الماء، وعند بيت حاكم كييف حديقة كبيرة على حائطها أشجار متناسقة الوضع شاهقة في العلو مع ستر أغصانها لطرق الحائط، وفيها قلاع مبنية بالأحجار وكذلك بيوت كذلك وبالخشب كبيوت الـريف، وكـل السقـوف مسنمة في تلك البلاد كبلاد الروم لا مسطحة كمصر، وحكمة ذلك سهولة انحدار الأمطار والثلوج، ثم خرجنا من كييف يوم الاثنين ٢٧ أيار من باب آخر مقبب، وهناك عدة قنوات تمر السايلة منها فنزلنا بالعربية في النهر في معـدية كبيرة، وكـذلـك نزل عربيات وخيل وناس كثير، وسرنا تحت المدينة وجبلها المحفوف بالأشجار، وهناك معامل كثيرة تضرب الطوب وعدة أقمنة لإحراقه محكمة الصنعة متقنة ثم خرجنا مع العربية من المعدية، وهناك توجد رملة مشتملة على هضاب فذكرت قول امرىء القيس:

فلمـا أجـزنا ساحة الحي وانتحى   بنـا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

لكنها ليست كبيرة، بل الأشجار غالبة بحسنها وتمايلها، وفي هذه النواحي رأيت الفـلاحين يحرثون الأراضي، كما في مصر، إلّا أن الأغلب أنهم يجرون المحراث بالعجل، ومررنا على الغربول (Garbul)، وهي مدينة محفوفة بالجبال والأودية المشحونة بالأشجار، وهناك لما نزلت للاستراحة أحدق بي ناس كثيرون يتفرجون على شكلي الغريب، وهكذا في جميع الطريق، وقد اتفق أني رأيت فتاة

ظريفة الشكل في بعض المحطات، فصارت تنظر إليّ وصرت أنظر إليها، وكان المطر أحسن إلي بالوقوف أمامها فقلت:

هيفاء من شباكها قد رنت نحوي وقد طار جناح السفر
أحسن شيءٍ راقني أنها تحب أن أُحدق فيها النظر
رُمّان نهديها بدا نصفه والوجه كل الحسن فيه ظهر
لا كعذارى مصر يخفين من حسن المحيا غير غُنج الحور
أبدت ثنايا بعقيق اللما قد ختمت لا بعقيق الحجر
أوقفني في حبّها برهة حتى برؤياها نعمت المطر

ثم وصلنا إلى موهلوف، صُبح الخميس ٣٠ أيار، وبهذا وضعنا عصا التسيار، وأقمنا بها مدة ٢٣ يوماً:

دخلنا على أن المقام ثلاثة فطاب لنا حتى أقمنا بها شهرا

وهي مدينة جميلة محفوفة بالأشجار والحدائق، ويتصل بها دينيبر Dnieper، وقد ذهبت في يوم وصولي خارج المدينة، وكان يوماً حسناً، لأن التلامذة كانوا يلعبون بالموسيقى، ويغنون، وفي آخر يوم آخر ذهبت إلى المدرسة، وتفرجت على المغناطيس وجذبه، فذكرت قول الشاعر:

كأن وجهك مغناطيس أنفسنا فحيثما درت دارت نحوك الصور

٤٧/وقلت:

ما حيلتي في حب غانيةٍ قد حملتني في الهوى وصبا
الوجه مغناطيس أنفسنا لا غرو أن قلبي الحديد صَبا

وذهبت يوماً آخر في ضواحي المدينة عند عين تجري هناك، وشربت الشاي تحت سقيفة لطيفة تقي من المطر، وكان معنا حسان فقلت:

مضى زمنٌ في موهلوف قضيته بحور حسان في الجنات وولدان
أرسيت بعين عند عين تدفقت فلله في أنسي وحزني عينان

وعليّ في تثنية العين مع اختلاف المعنى ما على الحريري في قوله:

جاد بالعين حين أعمى هواه عينه فانثنى بلا عينين

مع أنه لا لوم عليه عند الأدباء. وذهبت في جهة أخرى إلى الحديقة الكبيرة التي عندها مدرسة البنات، فصرن يجرين نحوي، وتفرجت على ضَرّابي الطوب خارج موهلوف، وما يقاسونه من الأشغال إذ ليس الطين عندهم ليّناً كما في مصر، وتفرجت على قاعة كبيرة مسقفة للنظّام إذا كان المطر، وهي مثل قرا «ميدان» في مصر. وذهبنا إلى الزروع وبتنا في الضياع ليلتين، ووصلنا إلى بودن، ورأينا عندها عيناً تجري تنبع من الرمل على وجه الأرض، وقد وضعت فيها عصاً كانت معي فدفعتها قوة الماء، وهي محفوفة بكثير من الأشجار ومبني عليها حاصل صغير. فلله تلك العين ومنظرها الذي تقرّ به العين، ويسهل فيه إنفاق العين كثرة العيون، وتفرجنا هناك على صيد السمك من النهر الخارج من تلك العين، وعدينا في زورق الصيادين وهو صغير جداً، فطأطأت رأسي لكي يسهل عليّ به التجديف، وقد استحوذ عليّ شيطان البق في إحدى ٤٨ / الليلتين، فبت بليلةٍ نابغية. ورأيت معمل القطران، وشجر البندق، وغير ذلك من أنواع الزروع كالبسلة والقمح الأسود والشعير والبتاتس، ورأيت زرع الفواكه كالخوخ في بيوت تدفأ بالنار، ولا تخرج هذه الفواكه إلّا في الشمس، فلذلك تقل الفواكه في تلك الديار مع كثرة أشجارها، فليست كمصر، فإنها كثيرة الثمار جداً من خوخ وبرقوق ومشمش وعنب وبطيخ وتين برشوفي وبلح أحمر وأخضر وأصفر. . إلخ وقثاء، وخيار وقاون وتفاح وموز وبرتقال وقصب السكر. وبها كثير من الرياحين كالورد والياسمين، ومن الخضار كالمولوخيا والباميا والقلقاس، وذلك لا يوجد في هذه البلاد غير ذلك مما لا يحصى مع رخص السعر جداً، فلذلك قلت:

لله مصـر وحسـن تربتـهـا ونيلهـا بل رياضـهـا النضـره
إن كانت الـروسيا نمت شجـرا فإن أشـجـارهـا بلا ثمـره

إلّا أن الفواكه تحفظ كثيراً في هذه البلاد، فالعنب لا ينقطع أبداً من بتر بورغ، والبرتقال يمكث فيها غالب السنة، وفي موهلوف رأيت كثيراً من البنات الصغار يلعبن بالقانون، ويرقصن عليه ويغنين، فقلت حين أطربني ذلك:

هويت افـرنـجـيـة طفـلـة تبـرقـعـت بالـحـسـن والـدلِ
تلعب بالـقـانـون حينـاً كمـا تلعـب بالـقـانـون في وصـلي

وقلت:

بعـدمـا أطـربت بشـدو لحـون رقـصـت مرة على الـقـانـون
وتـثـنـت في رقـصـهـا وتهـادت فتبـدلـت حشـمـتي بالمجـون

ثم بعد ذلك رأيت النساء أيضاً يلعبن ويرقصن من غير ٤٩/نكير، وهذه عادة تلك البلاد، إلّا أن رقصهن بالحشمة مع الرجال، وربما رقص الرجل مع امرأة غيره بحضرته من غير إحساس بغِيرَة، ويعدون ذلك من الأدب واللطف، وتقضية الزمان بالحظ والمسرة، ودائماً محادثتهم مصونة عن غير الأدب، إلّا أنه تارة ينشأ من ذلك العشق والفساد.

وفي موهلوف حمام، وقد استحممت فيه وحدي، لأني كنت عند صاحبه فأخلاه لي، والعادة أن يستحم الناس معاً، ويقلعون عرايا ولا يتفوطون، فليس معيباً عندهم كشف العورة في الحمامات، وكذلك النساء مع بعض، وليس كحمامات مصر واسلامبول المشتملة على عدة مغاطس وحنفيات، بل فيه طشوت وأسطال مملوءة ماءً بارداً وحاراً وصابوناً وأغصان أشجار صغيرة يضربون بها أنفسهم، وهذا نموذج لحمامات بتر بورغ إلّا أن فيها حوضاً كبيراً مملوءاً ماء للاستحمام، وفيها الحماميون يغسلون الشخص بالليف والصابون، إلّا أنهم لا يكيسون، وبالجملة

ففرق بين حمامات هذه البلاد التي هي أُوض من خشب، أو حجر مدفأة، وبين حمامات مصر واسلامبول التي هي قصور حسنة البناء والتبليط والترخيم، وبها كل ما يحتاج إليه من فوط وتكييس وتصبين إلى غير ذلك.

ثم في عصر السبت رابع جمادى الأولى ٢٣ حزيران، خرجت من موهلوف مع صاحبي، وشيعنا أقاربه وأصحابه بعض أميال ودّعونا، فكان ذلك الوقت مشبهاً لوقت خروجي من القاهرة وقلت:

لله أيّامٌ تقضّـ ـت بالصفا في موهلوف
كم مِنْ حِسانٍ أبصرَت عيني وكم خِلٍّ ألوف

٥٠/ لا تنكروا زرق العيو ن فهكذا نصل السيوف

ثم جزنا في الليل على قرية صغيرة تسمى اسكندرية، وقد استحوذت شياطين الحريقة على بيوتها، وعند ذلك رأيت أهل القرية محدقين حول النيران، ولا يستطيعون إطفاءها، وقلت ملوحاً بقصة إسكندر ذي القرنين:

ولما بدت اسكندرية سحرة رأيت بها نار الحريقة لا تهدا
فهل خوف ياجوج ومأجوج قد أتى هناك ذو القرنين يبني بها السدا

وقبل الوصول إليها بدا اللهيب، فكنا نظن أنه شفق. فهذه الليلة كانت كليلة ابن بابك حيث قال:

وليلةٍ بتُّ أشكو الهمَّ أوّلها وبت آخرها أستجذب الطربا
في غيضة من غياض الحزن دانية مد الظلام على أرواقها طنبا
يهدي إليها مجاج الحمر ساكنها فكلما دبَّ فيه أثمرت لهبا
حتى إذا النار طاشت في ذوائبها عاد الزمرد من عيدانها ذهبا

ثم مررنا على فينسيك VENESK، وهي مدينة كبيرة قديمة بها كثير من اليهود

مثل موهلوف وسائر البلاد التي جزنا عليها، ومن بعدها بقليل تَقلّ اليهود، فلا يُرى إلّا محض الروس خصوصاً في بتر بورغ، إذ ممنوع فيها سكناهم، فمن جاء لوقت معين. وبها كثير من الكنائس، وأقمنا بها يومين، وذهبنا إلى غيطانها وغاباتها وحدائقها الكثيرة الأزهار، ثم خرجنا من هذه المدينة والوقت صحو كما في غالب الطريق والبرد قليل، وإن كان في بعض الأوقات المطر. ثم في يوم الجمعة ازداد البرد وعصفت الرياح وأظلمت الآفاق، وذلك عند القرب من بتر بورغ فقلت:

أنا يا بتر بورغ جئتك بالبـ	ـشرٍ وتلقينني بوجهٍ عبوس
٥١/أنتِ غضبى عليّ أم ذاك تيهٌ	ودلالٌ والتيه شأن العروس

ثم بعد برهة بسمت الشمس بالإشراق فقلت:

عند ازدياري بتر بورغ رأيتها	بنت السرور يضمها ابن سحاب
خافت وذا ماء البكاء وقبلها	خافتني الأبكار لاستغرابي
أو أنها استحيت وذا عرق الحيا	والبكر يخجلها لقا الأغراب
ما زلت أخدعها بلين مقالتي	حتى تبسم ثغرها لخطابي

وفي قرب بتر بورغ تسارسكيا سلو[1]، مسكن العائلة الامبراطورية في الصيف، وفيها بستان كبير محفوف بالأشجار المتناسقة والجداول المتدفقة والقصور الشاهقة والأزهار الباسقة والطرق إذ ذاك بين سطرين من الأشجار كما في غالب الطرق، فأذكرني ذلك طريق شبرا بقرب القاهرة، إلّا أن الأشجار في هذه الروضات أكثر لكن في تلك أطيب وأبهى وأثمر، وبالجملة فكل طيب من جهته، وأنا شاكر للسفر على إحلالي بهذه الجهة، وهذه طريق العربات، وهناك أخرى، وهي طريق الحديد البخارية، وهي لا تنقطع كل يوم تروح الناس فيها صيفاً وشتاء، إلّا أن الصيف أكثر، فتذهب الناس أفواجاً للتفسح هناك والتفرج على ما هناك من

---

(١) أي قرية القيصر، وهي قرية صغيرة.

العجائب مثل بيت الأسلحة، ففيه أشياء عجيبة محفوظة، وقد رأيت هناك زيادة على الأسلحة غاشيتين من صفين بالألماس أهداهما السلطان محمود إلى القيصر، وهناك بيت للفيل والفيلة، وللأغنام الغريبة، وسائر الحيوانات الغريبة الشكل. ثم من تسارسكياسلو تذهب عربات البخار إلى بافلوسكي - منتزه جميل فيه بستان كبير - وآثار عجيبة، فيقتلون الحر على شواطىء تلك الغدران ويتبردون بالحلاوات المجلدة، وشم الريحان. ثم مررنا على الرصد، لكن ما رأيته إلاّ بعد مع جناب ٥٢/سفير جوقند العالم العلامة محمد خليل صاحب زاده الفاروقي نقيب الأشراف، وقد شربت معه أفاويق الأدب، واستجلينا عرائس الطرب، ورأينا النظارات المكبرة التي تُرى بها النجوم، ورأينا بالنظارة من هناك هلال كنيسة إسحاق مع بعد المسافة، وما رأيت من السفراء الوافدين إلى بتر بورغ من ذوي الفضل والأدب إلاّ هو وجناب سفير الدولة العلية حضرة فؤاد أفندي، وقد مثلت بين يديه وتجاذبنا كما قال الحريري أطراف الأناشيد، وتواردنا طرف الأسانيد؛ فوجدته تعْلمة نقّاداً، وألِفْتُه روحاً لجسم الأدب، ولا بِدَع أن سُمّي لذلك فؤادا. وفي تلك السبل صارت الخيل تجري كالطيور، والأرض تطوى كطي الزابور، فتمثلت بقول الشاعر:

وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها ... أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

وسبب ذلك أن هذه الطرق مثبتة بالأحجار الصغيرة، وتسمى منعولة كأنها لابسة نعلاً، فما ألطف مشي العربات عليها بخلاف الطرق غير المنعولة، فيعسر عليها مشي العربات، ثم في آخر هذا اليوم الذي هو آخر حزيران وحادي عشر جمادى الأولى، دخلت بتر بورغ:

وكان آخر عهد الطرف من فرحٍ ... بالدمع أوّل عهد القلب بالجَلَدِ

الباب الأول

فى منشأ الروس

الباب الأول

في منشأ الروس

الساكنون الأول في تلك الأراضي الواسعة التي تسكنها الروس الآن كانوا «سكيفي وصرماطي» يعني الصقلب، وكانت تلك الأراضي غابات ملتفة، وغيطان متسعة تسمى الصحارى، لكن هذا كان من الزمان القديم، وكان هؤلاء الناس مساكين لأنهم لا يعرفون الله، ويعبدون المخلوقات: الشمس والقمر والأصنام، يعني **٥٣**/الصور المصنوعة، ولهذا يسمون الوثنيين، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، ولا يبنون المدن الظريفة، ولا يخيطون مثل هذه البدل التي نلبسها، ويلبسون جلد الوحوش. وفي الصيف يبنون أخصاصاً بدل البيوت، أو يستترون في الغابات، وفي الشتاء ينحتون في الأرض مسكناً مشابهاً لما يفعله الآن القلموق وسكان سيبير ويسمونه يورطة ـ أي دويرة المنتجعين ـ، وفرقة منهم تتقوت بالصيد والأسماك والخبز بصيد، وتحرث الأرض، وتعيش دائماً في محل واحد، وتسمى القاطنين، والأخرى يستعملون للأكل لحم مواشيهم السائمة ولبنها، ولا يقيمون بمحل واحد، ولذلك يسمون المنتجعين، ومع ذلك فسكيفي وصرماطي يعرفون عمل السلاح، ومن الخشب اللان يحنون القسي ويربطونها بالعروق القوية، والحراب الحادة، والسهام، ويعملون من العظام القوية أو الشطف والسيوف من الحديد، والمجن من الجلود الغليظة، ولمحبتهم الحروب كانوا شجعاناً، لكن قاسين غالباً يتحاربون مع جيرانهم ويقتلونهم ويحملونهم قرباناً لأصنامهم.

وقال الروم وأهل رومة في شأنهم: كأنهم لهم فوق الجسم الإنساني وتحت الجسم الخيلي، هذا بسبب أنهم دائماً يحاربون على الخيل كأنه طار لهم في الهواء الزغب الأبيض، يعني الثلج، وكأنهم في الشتاء وينقلبون ذئاباً وضباباً بسبب أنهم يلبسون جلد الذئاب والضباب، وحين استأصلت الحروب سكيفي وصرماطي، ظهر محلهم الصقلب الذين تشعبت منهم الروس، يظنون أنهم جاؤوا من آسيا، ومع أنهم أيضاً لا يعرفون الله، ولا يعبدون الأصنام، ولم يكونوا قاسين هكذا، وما كانوا يقتلون أسراهم بل يتخذونهم عبيداً، وبعد عدة سنين ٥٤/يعتقونهم. وكانوا أيضاً شجعاناً يغيرون دائماً رَجَّالة، وعند الحرب يسألون ربهم الموت أو الظفر، ويهجمون على العدو بصياح مفرح، وبالموسيقى، وكانوا مشتغلين بالفلاحة إلاّ قليلا، وهي تصلح الناس وتمنعهم من أن يسلموا أنفسهم للبطالة التي هي أم العيوب، وبسبب القوت الغليظ والتعب صار لهم صحة أبدان وقوة وجمال الخلقة، وكانوا مستقيمين طيبي القلوب، ولا يكتمون ما في باطنهم، ولا يحلفون أبداً، بل يقولون: «أنا أستحي إنْ لم أفِ بالعهد»، ودائماً يوفون بوعودهم، وإذا جاء المسافر في قراهم، كل واحد منهم يلاقيه بالترحيب ويكرمه في دويرته ويسخن له ماء الحمام، ويحميه عمن يتعرض له، ولما رأى اليونان كرم الصقلب أحبوا زيادتهم وحملوا إليهم الذهب والبضائع وقايضوهم على ذلك بالمواشي والجلود والغلة والصوف والعسل والشمع وغير ذلك، ومن هذا نشأت التجارة، وصار الصقلب أغنياء، وهؤلاء البياعون يسمون عندهم الضيوف، ونساء الصقلب كانوا في غاية الطاعة لأزواجهن، وبموتهم يحرقن أنفسهن بطيب القلب منهن، لأنهم في ذلك الوقت ما كانوا يدفنون الموتى، بل يحرقونهم على الخشب، وفي وقت الحرب يحاربن بقرب أزواجهن لا يستهولن الموت، وكانوا يؤدبون أولادهم بالقساوة، ويلزمونهم باحترام الكبار وتوقيرهم بحيث ان الشبان لا يتجاسرون أن يعصوا إن أمروهم ببعض شيء، والشبان قط لا يدخلون في خطاب الرؤساء المتعلق بتدبير المهام، وبلا لوم يفعلون على إرادتهم، ويتميزون بالتواضع

والأدب والإطاعة والاجتهاد، وأكثر الكل محبة الوالدين وتوقيرهما . ٥٥/وكانوا إلى هذا الحد مؤدبين بحيث انهم إذا تلاقوا مع الكبار دائماً يرفعون برانيطهم بالأدب كما يفعله الآن الفلاحون الطيبون . والصقلب كانوا يحبون الرقص والموسيقى، إن ذهب أحد منهم في الطريق لا يأخذ معه سلاحاً بل يأخذ معه قيثاراً أو صفارة أو زمارة بالقربة أو نحوها من آلات الملاهي كالربابة، وليس فقط في وقت الصلح، بل وفي وقت الحرب عند رؤية الأعداء الكثيرة هم ينبسطون ويغنون الغنوات وينسون الخطر.

أصل ولاية نوفغورد[1] Novgorod

أصل الصقلب نوفغورد؛ فربع غوستو ميصل روريك أوّل أمير روسي من سنة ٨٦٢ إلى سنة ٨٧٩.

الصقلب ينقسمون إلى عدة بطون مختلفة الأسماء منهم: صقلب دونا؛ وهم الساكنون على نهر دونا، ولم يكونوا مثل الأُخر في محبة الصلح والشفقة والعفة، بل كانوا في الغالب يغيرون على جيرانهم، ويأخذون مواشيهم ويخربون بيوتهم. وفي واحدة من هذه الغارات استأصلوا بالنار والسيف بعض ولايات الروم. وقيصر تلك الأرض سأل الاقتصاص من الخان الشمالي، يعني قيصر أواروف الذين جاؤوا في الروسيا في القرن السادس من صحراء التاتار في آسيا، لكن بيان الذين حمى نواحي كثيرة من مدة تألب ليعاقب سكان دونا على جفوتهم وغلظتهم، ولما جمع جيوشاً عظيمة ذهب أمامهم وصار ينهب ويحرق الأرض ويهلك الناس، وبدلاً عن حماية الشجعان هم تخلصوا من الغارة واستتروا في الغاب، وكثير منهم ذهب في الشمال عند أجناسهم السعيدة الذين ٥٦/يعيشون في نواحي سواحل بحر بلطيق، وبحفظهم عفتهم الأولى وشجاعتهم تخلصوا من الأسر أو الرق. والصقلب البلطيقيون كانوا أكثر تمدناً من الأُخر، وبنوا مدناً منها نوفغورد الموضوعة قرب غدير

---

(١) انظر، قلفاط: تاريخ بطرس الأكبر، ١/١٧.

أيلمن ونهر فولخوف، ولهذا يسمون النوفغورديين، ومن قديم كان عندهم قانون بتحكيم الأكبر، فكل عائلة تطيع الجد أو الأب أو العم أو الأخ الأكبر الذي يملكهم ويفصل النزاع بينهم، وله التسلط التام عليهم، وفي الأمور العمومية يحكمون الرئيس المسمى الأشنج، وفي العسكر فوجد أوقويفود يعني صاري عسكر، وكان الصقلب النوفغورديون زمناً طويلاً أقوياء وأغنياء، لكن حروبهم مع مجاوريهم الذين كدروا عليهم بفتكات عديدة وبليات عتيدة أضعفتهم في الآخر جداً حتى إنهم دخلوا تحت سلطنة واريغ، قوم شجعان يعيشون على بحر البلطيق في سكاندينا التي هي الآن السويد، وفي مدة بعض أزمنة طردوا واريغ ثانياً خلف البحر، لكن لما رجعوا خالصين منهم وقعوا في ضنك جديد فابتدأوا في النزاع والشقاق والحروب بينهم الناشئة من عدم الطاعة للأكبر والرئيس. وجيرانهم اغتنموا هذه الفرصة وابتدأوا ثانية ينهبون مملكتهم، ويأخذون مواشيهم، ويقودونهم في الأسار. وبالسعادة كان في نوفغورد في ذلك الوقت الأكبر العاقل صاحب الهمة العجوز غوستو ميصل الذي يحبونه كلهم ويوقرونه جداً، ولما رجا أن يخلص قومه من ورطة العذاب والضنك الحقيقي، دعاهم في ميدان عظيم، وحقق لهم إثبات قانون الملك يعني اختيار أمير أو ملك، يحكم وحده المملكة، ويقمع البغاة والخارجين ويحميها من المجاورين الوحشيين ٥٧/، فحينئذ تحزب النوفغورديون أحزاباً منهم، ويس كريفيج، وأرسلوا رسلاً بنصيحة خلف البحر إلى واريغ، يقولون لهم: أرضنا واسعة وكثيرة السكان، ولكن لا ترتيب فيها، تعالوا املكونا واحكمونا، وثلاثة إخوة من أصل واريغ، والروس يسمون روريك وسيناف. وتروفور مشهورون بالأصل والنسب وحسن السيرة، جاؤوا ٨٦٢ بجيشهم العظيم في أرض الصقلب، وروريق ابتدأ بحكم نوفغورد وسيناف «بيلي اوزر» يعني البركة البيضاء، في شمال نوفغورد الشرقي مملكة ويس وتروفور أربورسك مدينة كريفيج في الجنوب الشمالي من نوفغورد في مملكة بسكوفسك، فمن ذلك الوقت سميت تلك الجهات الروسيا وأهلها سموا «الروس»، والصقلب تمتعوا ثانياً بالراحة والسعادة لأن جيرانهم ما بقوا

يجسـرون أن يغيروا عليهم والبغـاة والخارجون كانوا مقهورين، فذات يوم رجل يسمى وادم رجل رديء جداً، وكان نقم على روريق عدم إباحة النهب والشقاق، تعصب مع أمثاله من الأوباش ضد أميره، لكن الله عاقبه فقتل في الحرب، وعوقب أصحابه كلهم، وبعد مدة قليلة مات سيناف وترفور وورث ملكها روريق، وصار وحده ملك الروسيا الكبيرة، وحكم سنة ٨٦٤ مدة سبع عشرة سنة أحسن ما يكون.

أصل ولاية كييف[1] Kiev

سكولد ودير، الحرب مع الأورام: قد ذكرنا أن روريق لما جاء، جاء معه جيش عظيم، وكـان في عددهم سكولد ودير رئيسان من رؤساء العسكر، وهما مولعان بالحرب، فذات يوم لمـا اجتمعت ٥٨/الأصحـاب ذهبا إلى روريق وسألا منه الذهاب للتفتيش على السعادة في الأراضي الأخرى، وهو خلّاهما يذهبان بالفرح بسبب أنهم كانوا كلهم حربيين وأقوياء فذهبا حتى إلى الجنوب ونهبا البلاد التي في الطريق، ولما وصلا إلى نهر دنيبير نهر كبير في داخل الروسيا على الجنوب، ويصب في البحر الأسود ـ رأيا على ساحل النهر مدينة فسألا: لمن هي؟ فأجيبا: بأنها مدينة صقلبية بناها ثلاثة أخوة صيادون، وباسم الأكبر سميت كيا سميت كييف Keiv ، وكل الأخوة الثلاثة ماتوا من مدة طويلة، والمدينة تحت يد الحربيين المهولين الخزر، تدفع لهم الخراج حالاً، والخزر سكنوا أولاً نواحي بحر كيلان المسمى قديمـاً بالخـزر الموجود بين الروسيا والفرس والتاتار المستقلين فحينئذ حكمها سكولد ودير ووعدا أن يحمياها من الخزر، لكن بدل ذلك جهزا السفينة وأجلسا فيها عدة كثيرة من جماعتهما ومن عساكر كييف Keiv ، وركب الجميع من كييف على نهـر دنيبير إلى البحـر الأسود، وظهرا عند أسوار القسطنطينية تخت الروم، إذ ذاك وحاصراها، والروم رأوا الروس أول مرة مع الاستهوال، والعسكر لم

---

(١) قلفاط: تاريخ بطرس الأكبر، ١/١٧.

يتجاسروا أن يحاربوهم واستهولوا كثرتهم، والسكان ارتعدوا وظهر هلاك القسطنطينية متحتماً، لكن كان هناك أسقف يحب الخير يسمى «فوطي» أخذ صورة العذارء التي تضرعت نحوها الناس عند الضنك، ورفعها مع الطرب على الساحل، وابتدأ يدعو بقلب مخلص، وجثا هو والأعيان والعوام والعسكر على الركب وسألوا من العذراء الحماية، فحينئذ «فوطي» غطس الصورة في البحر إلى أن هدأ القلق، وسكن الضجر وبالبغتة ارتفع غيم ثقيل، وتفرقت عساكر السفينة ٥٩/وغرقوا ورجع سكولد ودير بعدد قليل من العسكر إلى كييف، وكثير من أهل كييف تركوا عبادة الأصنام واتخذوا دين النصرانية سنة ٨٦٧م، لكن ما زال أكثرهم وثنياً إلى زمان فلاديمير، الذي عمّد الجميع وأدخل النصرانية في الروسيا سنة ٩٨٨م، والأسقف فوطي أرسل لهم قُسساً يعلمونهم الدين والقراءة والكتابة بحروف تهجي الصقلب المخترعة من بعض أزمنة في مدة الراهبين كيريك وميتوديا اللذين ترجما الإنجيل بين الصقلب في مورافيا، وإنما لم يختر لهم فلاديمير دين الإسلام مع أنه عرض عليه أيضاً كباقي الأديان لأنه لما سمع أن دين الإسلام يحرم الخمر، قال الروسي: لا بد له من الخمر بسبب كثرة البرد والصرّ، وصار ذلك مثلاً. فلذلك ترى العوام يشربون كثيراً خصوصاً في الأعياد، وترى السكارى في الطريق وأيضاً المجاورة للأورام قوته اختيار دينهم لسهولة الارتباط بينهم وبينهم، إذ هم معلمو الروس الدين والعلوم، وفيما ذكرناه هنا كفاية لمعرفة أصل الروسيا، ومن أراد بقية التاريخ فعليه بترجمتي لتاريخ الروسيا الصغير لأوسترالوف.

تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا

الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى

1850 م - 1266 هـ

الباب الثانى

فى بتر بورغ

الباب الثاني

في بتر بورغ

في بتر بورغ وبيان وضعها وعرضها وطولها وطبيعة أرضها ومائها وقطرها وتحلل المياه وتجلدها، وقوة البرد فيها حتى يمكن أن تنحت أحجار من الجليد ويبنى بها وتمـر العربات فوق الأنهار المتجلدة، وفيضان المياه فيها، وبيان منشأ بتر بورغ وتأسيسها، وتقدم البناء فيها، وكثرة الأشغال، وزيادة سكنى الغرباء فيها، والأهالي وصيرورتها تخت الروسيا، وتوسيع طرقها، وحسن إحكامها وتنظيمها وترقيها يوماً فيوماً إلى وقتنا هذا وفيه فصول.

الفصل الأول

/٦٠

اعلم أن بتر بورغ كلمة مركبة من كلمتين بتر يعني بطرس بانيها، وبورغ يعني بلد، أو محلة، والعامة تقول بتر وهي قصبة مملكة الروسيا المؤسسة في ١٧٠٣م، تشغـل جزءاً من إينغـرى القديمة، وجزءاً من كاريليا القديمة، يعني الفينلاند، موضوعة في ٦٥٩، ٣١,٥ درجة من العرض الشمالي، وفي ٣٠,٥٩ درجة من الطول من دائرة نصف النهار المأخوذة من الجزائر الخالدات في سهل متسع إلى قسم النيفا في خور فينلاند، وتمتد على الساحلين، وتشغل عدة جزائر في ذلك النهر العظيم في قبلي المدينة الغربي، وفي غربي المدينة الخور وسواحله. ومن الجوانب الأخر سهل متسع فيه قرى مخضرة مرتفعة تذهب بمسافة من المدينة إلى

ناحية الشرق، في قبلي جبال دود بروف التي سطحها يصور بثلاثين فرست من المدينة مسطحاً مستديراً باعوجاج مجرى النيفا، وبعد ٤٤ سنة من الملاحظات المتعلقة بحوادث الجو، علم أن بتر بورغ ترتفع على سطح بحر بلطيق بمقدار ٨٥٤١م أو ٥٩٦٢٩ قدماً إنكليزياً، والأرض كثيرة الجزائر، وهي عموماً دسمة ومهتزة، وتحت سطحها السبخي يوجد راق غليظ من تراب الفخار في بعض المواضع، وفي بعضها من التراب الصالح للوقود، وفي الأعلى رمل، وفي النادر حجارة، وهذا الحساب كان أول مرة سنة ١٨٢٧م، وحاسبه القولونيل ترليتسكي، حسب أيضاً أن موسقو تحت جدران كريملان ترتفع بقدر ٦٢١٨٤ على النيفا العادي، تحت قصر الشتاء، ومع أن الله تعالى أحاط بتر بورغ بالمياه الغزيرة ما حلّ بنواحيها بما هو زينة الأنهار، فالنبات فيها عموماً ضعيف، وذابل، ومن المنتقعات تنبت ٦١/أشجار قصيرة متفرقة مثلاً، هنا محل مملوء بشجر الصفصاف وبعيداً آخر مملوء بالصنوبر أو بالقان، وهناك حور محزن أو اسفندان بورق لطيف مرتفع على أرض رطبة أو مرملة بظل قليل ضعيف، حيث خشونة الأرض الطبيعية لم تغلبها قوى الصناعة، لكن أكثر هذه المنتقعات قد طم باجتهادات الإنسان السعيدة، وانقلبت الآن إلى مروج بهية وبساتين مملوءة بالأزهار، واليوم في الأراضي المخدومة حول المدينة تبسق في كل موضع الأشجار اللطيفة وتبدو الخضرة الريانة المتكاثفة والخضارات تنجح نباتاتها للغاية في حوالي بتر بورغ، وفي سنة ١٧٧٣م اعتبر الخواجة موديل الكيماوي المشهور ماء النيفانج من ملاحظاته، والملاحظات التي كانت قيل إنه يشتمل على جملة كثيرة من الحمض الفحمي بلا أدنى خلط معدني إلاّ بملح عادي قليل جداً، بحيث لا يحس به وأيضاً ماء النيفا معروف بأنه من أصفى المياه وأنفعها لاستعمال الناس، وإن كان ماء الأنهار الصغيرة وخلجان المدينة بسبب البالوعات التي تلقى فيا وعبور السفن الكثيرة التي تأتي لتموين المدينة غالباً مكدراً ومحتوياً على بعض مواد مضرة بالصحة خصوصاً في الصيف، ففي مقابلة ذلك ماء النيفا في كل فصل شراب زلال

للسكـان، عذب بارد شفـاف، إلاّ أنـه للغـرباء مسهل أول الأمر، كما قلت في المفاخرة بينه وبين النيل مشيراً لذلك:

من قاس بالــنــي نهــر نيفــا ولــم يذق حلوه وعــذبــه
عنــدي عليه دلــيل ذوق هذا شراب وذاك شَرْبــه

وقد اعتنت المملكة في كشف الوسائط الدافعة للضرر الناشىء من الخلجان، ومحيط دائرة المدينة الآن ٣٥ فرست، وسطحها ٦٢/نحو ٠٠٠, ١٨٠٠ سجين مربعة، وطولها ٦ فرست من ركن حارة نارفا حيث تصب فونتانكه في النيفا إلى دير أسمولني، وعرضها ٨ فرست من الحاجز الموسقوي إلى ساحل النيفا الأيمن أمام جزيرة ابوتيكير أو جنينة الصيدلانية ونصف المدينة تقريباً محدق بالنيفا وخلجانه الأصلية، وربما محدق بمياه الخور، والباقي يطل على القرى والمدينة مكشوفة بحيث ترى من كل طرف ولها وسائط قليلة لتلطيف صعوبة هوائها الطبيعي لوضعها الشمـالي، وفي قطرها الصعب يحدث في الهواء تغييرات متواترة شديدة، لكن أصل الهواء صافي والرياح مع شدتها تهب دائماً وخصوصاً من الشرق تبرد حارات بتـر بورغ العريضة، وتفرق بخار البحر والأدخنة المضرة المتولدة من المنتقعات المحيطة بالمدينة، والطقس المتوسط نحو ٣,٠٩، والريح الغربي هو الغالب، والريح القبلي الغربي بسبب الغيوم والريح الشمالي الغربي مصحوب في الصيف بالصحو، وفي الشتاء بالنشوفة والبرد، ولوحظ الطقس المتوسط في سنة ١٨٣١م، ٢٩٦، وأيام الغليني نادرة جداً، عدت في سنة ١٨٣٠، ٤٩، وفي سنة ١٨٣١م، ١٠٩، والرياح العاصفة لوحظت في سنة ١٨٣٠، ٦ مرات هبت على ٦ مرات من قبل و (١) من قبلي غربي و (١) مرة قبلي شرقي و (١) مرة من الشمال الشرقي، وفي سنة ١٨٣١م كانت الرياح العاصفة ١٥ مرة قبلي غربي، و (٢) مرة قبلي و (٥) مرة الشمالي الشرقي و (٢) غربي.

والعادة أن النيفا يتجلد في تشرين الثاني، وفي ١٧١٨م في مدة ١١٤ سنة ما

حصل إلّا ٢٤ مرة، إنه تجلد. ٢٠ و ٣١ تشرين الأول، ومرة حصل في ١٨١١م، ١٦ تشرين الأول، وفي هذه المدة بعينها ما تأخر تحلل الجليد إلّا ٦ مرات، ووقت تعويقه في التجلد كان ليلة ١٣.إلى ١٤ كانون الأول سنة ١٨٢٦م، ويمكن أن يلاحظ أن النصف الأول من نيســان وقت عادي للتحلل، وفي مدة ١١٤ سنة المذكورة لم يتحلل النيفا أبدر منها من ٢٠ آذار إلى ٣١ منه إلّا ٦ مرات، والتحلل الأعـوق كان في سنة ١٨١٠م، ٣٠ نيسان، والأبدر كان في سنة ١٨٢٢م، ١٦ آذار، والعامة الذين أمثالهم في الغالب من قبيل المكاشفات خصوصاً فيما يتعلق بقطرهم يحددون تاريخ تجلد النيفا، وتحلله بهذا المثل المضاعف «أليوم مار نقوله الماء يحبس»، «وليوم مارجورج القنطرة ترتفع»، وذلك أن يوم مار نقوله صاحب الخوارق، ٦ كانون الأول، ويوم مار جورج ٢٣ نيسان، وعلى ما قلنا يعرف العادي أن في ٦ كانون الأول على الحقيقة الجمد يحبس المياه ويغطيها بالجليد، وفي ٢٣ نيسان عند التحلل ترفع القناطر التي هي من السفن الجامعة لساحلي النهر، فانظر لطول مدة البرد في هذه البلاد، وقصر مدة الربيع والصيف فيها، فهل كان هنا أبو منصور قسيم بن إبراهيم الملقب ببزرجمهر حيث قال في استطالة الشتاء واستبطاء الربيع، ما تفرد بمعناه، وأحسن كل الإحسان في التشبيه البديع:

لقــد حال دون الــورد برد مطاول	كأن سُعــوداً غُيبــنً في منــاحس
وحجب في الثلج الـربيع وحسنـه	كما اكتن في بيض فراخ الطواوس

وعند تحلل النيفا، سكان الساحلين المتقابلين المغترقين غالباً عدة أيام بسبب صعوبة الممر يتكاثرون بغاية الغيّة والقلق على ساحل النهر كي ينظروا البعث الذي بواسطته يؤذن بالعبور.

قلت في سنة ١٨٤١م عوق جداً إلى ٨ كانون ٦٤/الأول وكدر الناس ورفعت القناطر مرات حتى كان هذا سبباً لفائدة عظيمة، وهي أن أبهة القيصر أمر ببناء قنطرة مثبتة على كل حال، وقد شرع فيها من مدة سنين، وهي الآن على طرف التمام،

حتى إنه مر عليها بعض الناس في هذه السنة في وقت هيجان النيفا للتجلد، وفي السنة الآتية تسلم للعبور لجميع الناس بعد أن يعبر عليها القيصر أول مرة. وفي وقت اضطراب النيفا بالجليد تأتي الناس أفواجاً على الساحلين للنظر وقلت:

على ظاهـر النيفـا جليد تراكمت جنـادلـه ما بين مُرْغٍ ومـزبـدِ
فهـا هو يبكي رعـدة وترى الورى يقـولـون لا تهـلك أسىً وتجلَّد

وفي سنة ١٨٤٤م تحلل النيفا بسهولة عظيمة، ففي ليلة نيسان ابتدأ، وفي صبحه عبروا، والعادة أن يوضع على النيفا ألواح كالقناطر ويثبتونها لأجل العبور، ثم إذا تقوّى أزالوها، وإذا زادت قوة الجليد مشوا بالعربات.

ولما رتب بطرس الأوّل منجرة المدينة نسب لها في ١٧٣٠م النظارة على كل أبنية بتر بورغ المخصوصة ونتج من هذا أن سلوك النيفا بعد التحلل يتوقف على إذن رئيس المنجرة، وكان التكلف الذي يفعل لهذا سابقاً غير ما أمر به ٧ أيلول ١٨٣١ م، وذلك أن رئيس منجرة المدينة بإشارة لائقة من ساحل الترسانة يذهب من أمـام بيت القيصر بطرس الكبير في زورق بمدفع صغير وفيه بنُديرة المنجرة المـذكورة إلى قلعة مار بطرس ومار بولص، وهذا الزورق يصحبه زوارق الناس الذين يريدون يحضرون التكلف، وفي ذلك الوقت بعينه يخرج من الترسانة نحو القلعة مدير أبنية وزارة البحر، وإذا كان مريضاً أو غائباً، فناظر الأشغال المذكورة ينـوبه ٦٥/في زورق بمدفع بنديرة، وعند وصول كل أمام القلعة يسلم بطلق ٧ مدافع، والقلعة ترد سلام المدير أو نائبه بعدد مساو، وسلام رئيس المنجرة بخمسة فقط، وبعد السلام ورده، يذهب حاكم القلعة منها ببنديرة لائقة بمقامه، ورئيس المنجرة والمدير أو نائبه يذهبان لملاقاة حاكم القلعة ويخبرونه بإمكان العبور على النيفا من الطرفين، فحينئذ تذهب كل هذه الزوارق إلى مرسى القصر، يتقدم أوّلاً زورق رئيس المنجرة ويتبعه زورق المدير، ويتبعه زورق حاكم القلعة، مقدم كل الثلاثة قبل المؤخر، وإن كان الزورق القيصري وزورق رئيس الدننمـا وزورق

وزير البحر في الترسانة، ذهبت لملاقاة حاكم القلعة، وتبعت زورقه، وإذا قرب حاكم القلعة في القصر سلم بطلق ٧ مدافع ثم يصعد حاكم القلعة والمدير والرئيس إلى القصر ويخبرون القيصر الأول بالدعاوى التي يرجع فيها إليه والإخبار أن بإمكانت العبور على النيفا من الطرفين، وعند صعود حاكم القلعة مع تبعه إلى القصر بنديرات الزوارق تجذب أيضاً وحينئذ زوارق الناس التي صحبت الموكب تذهب إلى مراسيها الصيفية، وحكم جواز النهر من ذلك الوقت الجواز والألوف من الناس التي تغطي سواحل النيفا المتخلص من غطائه البارد وطلق المدافع وشويشة النواتية التي تنزل في النهر، والزوارق التي لا تعد ولا تحصى، التي تمخر في النهر من كل طرف، يظهر صورة موافقة لزمان بطرس الأول، الأب الشفوق على بلده الجديدة وعياله العديدة، وكم من تنظيمات فعلت على ساحل النيفا البديع مرة بعده وأي منظر وأي رونق، وأما في هذا الوقت فيذهب ٦٦/حاكم القلعة وحده في زورق ويأخذ معه حقة مملوءة من ماء النيفا إشارة إلى جواز الجواز وحينئذ يملؤها القيصر مجرات، وتطلق المدافع ويبتدىء العبور، وأمّا تجلد النيفا فليس له رسم الآن، ولكن في أيّام بطرس الكبير كان المرور على الجليد متوقفاً على مرور واحد مسخرة من القصر يمر أوّلاً على الجليد، وعليه بدلة مسخرة وخلفه بعض أشخاص بعضهم يحمل راية من القماش، والآخر بأيديهم قوس وحبال وقواديم والشاطىء الذي ترسي عليه السفن المزين الآن بحجر الصوان المحكم جداً بحيث يظهر أنه مسبوك عليه في قالب خارج عن القياس ابتدىء تثبيته في حياة بطرس في بعض مواضع بأوتاد وأخشاب وموضع المرسى العجيبة المزين بالأواني الكبيرة، كان إذ ذاك مرسى من الخشب عادي خشبي، وبعد السطر الأول من البيوت كانت العين تقضي بالحزن عن المنتقعات الواسعة، والآن تقر برؤية آثار الصنايع العجيبة والعمارات التي تنافس العمارات القديمة، ثم إن ربيع بتر بورغ المبتدأ على حساب السنة الشمسية من ٨ آذار لا يكون حقيقة إلّا في آخر نيسان، وحتى تارة في أواخر أيار وزئبق ميزان الهواء يقف تحت درجة الجليد، ومع أن حر الشمس أذهب الزحلقة

في ١٨٢٦م، حصل في بتر بورغ أمر نادر جداً، وذلك أن عربات الزحلقة ابتدأت بالسهولة في يوم الأحد عيد الفصح، لأن في أمس ذلك العيد ٢٤ آذار وقع ثلج كثير وغطى وحل الحارات، وطم حفر الماء الصغير، وكان الصرُّ ست درجات، لكن ما دام ذلك زماناً طويلاً، وعلى كل حال فالربيع لا يتخلف عن تحلل النيفا، وتحلل جليد بركة لادوغة بعده بنحو أسبوع، فأوّل فصل الربيع منوط بتحلل الجليد، وإذا تأخر ٦٧/التحليل فمرور الربيع إلى الصيف سريع جداً حتى إنه في ليلة تنمو النباتات وحينئذ الأشجار تبدأ في الاخضرار، وبعد يومين أو ثلاثة تزهو بالكلية، وحر صيف بتر بورغ لا يزيد عن حرور الصيف الجنوبي، لكن يدوم قليلاً، والهواء في هذا الفصل عرضة لكثير من التقلبات، وأعلى ما يكون الحر ٢٤ درجة، في ميزان الهواء في بتر بورغ، ومع ذلك في سنة ١٨٠٢م كان الحر في الظهر ٢٦ درجة، ٦ وفي ١٨١٢م كان ٢٧ درجة ٢، وكان في شهر تموز والزوابع والصواعق عموماً لا تمتد ولا تقوى والغيوم تتفرق بالسرعة، ونادراً فوق المدينة وأندر من ذلك تسبب الضرر عنها، وليالي بتر بورغ في الصيف لطيفة جداً، فهي لا ليل ولا نهار وإنما الدغيشة وتباشير الصباح كأنها مركبة من ظل ونور، وقلت في ذلك:

في بتر بورغ بدائع وعجائب وغرائب
فالصبح فجر صادق والليل فجر كاذب
فكأنها بضيائها الليل منها هارب

والرياح في هذا الفصل في العادة ساكنة والهواء صاف خفيف شفاف حتى يمكن القراءة في كل ساعات الليل، ففي الحقيقة بمجرد ما يسطع شفق المساء في الأفق يرى في شرق القطب تباشير الصباح ناشرة راياتها الحمر وأطول يوم في بتر بورغ ١٨ ساعة و ٢٩ دقيقة، ويبقى ٥ ساعات و ٣١ دقيقة مسافة الليل بلا ظلمة الذي نعتناه آنفاً، وإذا وقع الصوم في هذه الأيام كان عسراً، ومع ذلك فالمسلمون يصومونه، وانظر لقول أبي الغنائم الرملي، مع أنه لم ير مثل هذا الطول:

شهـر الـصـيام مبـارك　　ما لم يكـن في شهـر آب
٦٨/　خفـت العـذاب فصمتـه　　فوقعت في نفس العـذاب

والشمس في الانقلاب الصيفي تطلع في ٢ ساعة و٤٧ دقيقة، وتغرب في ٩ ساعـات وربـع، لهـذا من أول شهـر أيار إلى أول شهـر آب لا يوقدون فوانيس الحارات، ولما رأيت أوّل مرة إيقاد تلك الفوانيس أوّل آب، وكانت كاملة الضوء وشكل مصابيحها كالهلال قلت:

لله ما أحلى الـفـوانـيس الـتـي　　مصبـاحهـا يبـدو كشكـل هلال
لولا تعـددهـا لقـلـت أهـلّة　　لكـن أقـول إذن نجـوم ليالـي

مع أن الليل بعد لم تتكامل ظلمته بل فيه بقايا النور، وتأتي الناس بكثرة لرؤية ذلـك أول مرة ثم يتـركون. وفي هذه الأيام أوقدوا فانوساً كبيراً كالشمس لإضاءة الشـارع الكبير، ولكن إلى الآن ما حصلت نتيجتهـا المقصـودة، وهي الإنـارة الكاملة، ولا يستغرب نحو ذلك، فقد رأيت مرة في التياتر تصوير البدر والليل فقلت مورّياً:

وفي بتـر بورغ غال عقلي تياتـر　　نهـاراً فأضحى من صنـاعتهم ليلا
وقـد أحسنـوا تصـوير بدر بسقفـه　　وما صور الرحمن في أرضه أعلى

وندر تبسم الخريف، بل هو دائماً عبوس مظلم محزن بسبب أمطاره المتتابعة، والسمـاء المغطاة ببحر من الغيم السنجابي والرياح العاصفة في الجو، كل هذا يعرض النفس للحزن ويتعب ويضعف الجسم ويوحل الطرق، فأظن أن أوحالها تقصر عن أوحال نيسابور التي وصفها الأستاذ أبو نصر الأصفهاني فقال:

كيف المسير بنيسـابور في الطرق　　وبـينـنـا أبحـر تطمـر من الليق
يا حبـذا البحـر ينجـو فيه صاحبه　　بالعـوم أو بركوب الفلك من غرق
ترش منـه على أثـوابـنـا لمـع　　حتى يعـود جديد الثـوب كالخَلِقِ

كأنّما بطنها فيها ويابسها   ما اسوّد وابيضّ فوق الجلد من بهق

٦٩/وفي هذا الوقت، الهدوء مضر والحركة لازمة، والريح الغربي في شهر تشرين الأول والثاني يهب بشدة، وتارة يهيج الصواعق التي تسبب بغتة فيضان المياه التي في وسطها أُسست المدينة، ويبل الحارات الواطية، والصر القاسي من عيد الميلاد إلى ٢٠ كانون الثاني، حينئذ ينزل ميزان الهواء إلى ١٨ أو ٢٢، وندر جداً أسفل، وتاسع شباط سنة ١٨١٠م كان في ميزان الهواء ثلاثين تحت الصفر، وفي ٢٣ كانون الأول (٣١ ١/٤)، ومن ١٧٦٦م إلى سنة ١٧٧٠م وصل البرد إلى ٣٣، ويحسن هناك إنشاد قول أبي سعيد الآبي في وصف البرد:

في موضع خفيت به الـ   أصوات برداً في النداء
فالريق يجمد في اللها   والصوت يجمد في الهواء
نطأ الزجاج من الزجا   ج إذا مشينا في فضاء
والجو يلمع في نوا   حيه ضريب كالهباء
وكأنما صقلت به   بيض السيوف أو المراء
جمدت له الصهباء حتّـ   ـى قد أتتك بلا أناءِ
فإذا أردت خرطت مصـ   من رحيقٍ أو طلاءِ
لو عاين العذرى مثوى   قد رضيت به نواء
أو حلّه ألهاه عن   جر الهوى برد الهواء

وليس بلازم أن تقول أن أقصر يوم في الشتاء مساوٍ لأقصر يوم في الصيف، بحيث تكون الأشغال غالبها في نور الشموع، ومع ذلك فلا يغترون عن أشغالهم، بل الأمر بالعكس ينشطون، والظلمة لا تعوق، إذ المدينة موقدة دائماً، وكذلك البيوت، وقلة الأمطار في الشتاء بسبب الصر الكالح إنما هو الثلج الذي ينزل أوّل الشتاء فيغطي الأرض ويبيضها فيتزحلق الناس في العربات وينسرون بذلك، ٧٠/وعلى الأنهار فلا يصلح في هذه البلاد قول القاضي عياض:

كأنّ نيسان أهدى من ملابسه لشهر تموز أنواعاً من الحُللِ
أو الغزالة في شمس الضحى خَرِفَت فما تفرق بين الجَدي والحَمَل

ولا قول الآخر: «وكان أبخل من تموز في المطرِ».

ولا قول:

فرأيت الحبيب شَحَّ بوصلٍ مثل ما شحَّ بالحيا تموز

إذ ليس المطر من ملابس نيسان حتى يهديها لتموز، بل الأمر بالعكس، فتموز كريم بالأمطار في هذه الديار، فيحسن فيه قول الأستاذ أبي المعمر يعمر:

والجو ما بين تسجال الغمام وتسجاع الحمام وتسجام الشآبيب
فمن هزارٍ على الأغصان مرتجز ومن رذاذٍ على الريحان مسكوب

وقد لوحظ أنه عند قرب البرد القاسي يتغطى أديم الأرض في وقته ببساط ثخين أبيض من الثلج، وتتغطى السطوح الذي غالبها أسود بالثلج، كما قلت:

وأسنمة السطوح السود حازت بياضاً حين جللها الجليد
فهل شابت من البرد الذي لا محالةَ قد يشيب به الوليد

وقلت:

انظر لأسنمة السطو ح وقد تغطت بالجليد
كبرادة من فضة نثرت على لوح حديد

وفي سنة ١٧٠٩م، وسنة ١٧٤٠م حين غطت الشتويات القاسية جداً جزائر خور البندقية بسطح قوي وكبير من الجليد، كان البرد بحسب ملاحظات العلماء نازلاً في فينيسيا إلى ٢، وفي فرانكفورت إلى ٣، وفي أوبسال إلى ١٨، وفي فيمار إلى ١١، وفي لوندرة وهامبورغ ودانتزيغ أسفل من ١٨، وفي بتر بورغ من ١٥

كانـون الثـاني إلى ١٥ آذار سنة ١٧٤٠م ما بين ٢٦، ٣١، وبملاحظات علماء الطبيعة اختبر الثلج الذي يغطي الأرض بأكثر من قدمين في العمق، وبرهنوا أن الأرض مع وجود هذا البرد ٧١/المستمر الخارج عن العادة ما تجلدت إلاّ بعمق ثلاثة أقدام، ولهذا البذور وجذور الشجر ما انضرت، والصيف الذي عقب ذلك كان مخصباً للغاية، وفي كانون الثاني ١٧٤٠م بني على النيفا أمام القصر بيت من الجليد طوله ٨ سجين، وعرضه ٢ وسمكه ٣ مسقف والجدران مبنية بصخور عظيمة مكعبة من الجليد الذي صب بينها كالخافقي الماء الذي يتجلد في الحال ويلحم الصخور، وعلى السقف بنيت ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، ووجه البيت مزين بأعمدة فوقها قوصرة متوجة بالتماثيل، وتحويط الباب والشبابيك الذي في غاية الذوق منقوش برخام أخضر، والشبابيك وحتى قزازها من جليد رقيق، والبيت محوط بحاجز جميل بدرابزين فيه باب كبير، وبابان صغيران، وعلى هذه الأبواب موضوع قصارى برتقان أخضر، وفي الجوانب أشجار عادية جذرها وأوراقها حتى والأغصـان الجـاثمـة عليهـا الـطيور مصنـوعة من الجليد بغاية الإتقان، وخارج الدرابزين ٦ مدافع عيار ٣ أرطال مع آلاتها من عجلة ودكة وغير ذلك، و ٢ هاون عيار ٨٠ رطـلاً، و ٢ دارفيل، وعلى يمين البيت وشماله هرمان مربعان فارغان، وفيهما في الجهات الأربع من أعلى طبقات مدورة، وعلى يمين البيت بمسافة قليلة فارسان ربعا القامة بقرب فيل كبير كالعادة فوقه فارس ثالث قائده، وعلى الشمال حمام معرق دفيء وفي عدة مرات لبعض ناس استحموا، وكل هذه الأشياء مصنوعة من الجليد المنشـور المنحـوت المصقول بغاية الاعتناء بلا خلط شيء آخر من الإجرام الجامدة، وهذه الأشياء مع اتساقها وإتقان كلها وكل جزء على حدته تتميز بهندسة دقيقة ويقضي العجب بصلابتها خصوصاً مدة الامتحانات ٧٢/المختلفة المصنوعة بحضرة القيصر وعائلته، وجملة كثيرة من الناظرين، وقد طلقت مدافع الجليد بجلة حديد ونصف رطل بارود صب بلا تعمير في القصبة، والجلل أصابوا لوحاً من الخشب ثخنه قدمان موضوع بمسافة ٦ خطوة، والأهوان المعمرة بربع رطل

بارود رموا البناء. وفي الليل الدرافيل تصب من مناخيرها من عمد عالية النفط الملتهب، والفيل يصب من خرطومه ماء بقوة بعلو ٢٤ قدماً الذي في محلها في الليل عمود نفط بتلك القوة، والماء والنفط مجلوبان من الترسانة بواسطة مجاري، وزيادة على ذلك رجل مستتر يحكي صياح الفيل بواسطة بوق موضوع في فمه، وفي الأهرام كان معلق فوانيس تهتز طول النهار، وكانت منقوشة بمائة لون وبصور غريبة ومضحكة، وفي كل هزة تظهر صورة في طبقات الأهرام تحظ السكان، وفي الليل تولع الفوانيس، وزينة هذا البيت الشتائي من داخل تقضي بالعجب أيضاً بواسطة إتقان الأشياء الجليدية الموجودة هناك ودقتها، فيدخل الإنسان بعد صعود بعض سلالم في مدخل محتو على أربعة شبابيك، وفي كل من جهتي هذا المدخل أوضة بخمسة شبابيك بسقف تحتاني فقط، في واحدة منها سفرة الغندرة تحت مرآة، وشمعدانات، فيها شمع يولع مدهوناً بالنفط، وساعة أواني مختلفة وجزر صغيرة وقزازات صغيرة، وفي الجدار الحاجز معلقة مرآة أخرى وفيها فرش بناموسية ومخدات وألحفة وغير ذلك، وبقرب الفرش طاقيتان وزوجان من البوابيج، وفي مدخنة مزينة بالتماثيل المجسمة، تولع قطع الجليلد المدهونة بالنفط، وفي الأوضة الأخرى سفرة عليها ساعة دقاقة، وورق حقيقي للعب ملصق بالسفرة بواسطة الجمد، وفي الطرفين كراسي، وفي الأركان تماثيل، وهناك دولاب مزين بصور ومملوء بأواني ٧٣/ النقل والحلاوة وصواني للشاي، وكبايات وملاعق وأناجر مع أطعمة وصحون مملوءة بالفواكه. كل هذا من الجليد مصنوع في غاية الذوق واللطف في غاية التطقيم لهذا الغرض، وهذا البيت في النهار بسبب شفافية الجليد المصقل الذي يميل لونه إلى الزرقة كأنه مبني من حجارة الياقوت الأزرق، وفي الليل الأضواء تلمع في داخله، وفي أعلى الأهرام والجدران تصير بالكلية نيران، وهذه الأنوار التي تقصر العبارة عن وصفها الساطعة على ألف زينة من الجليد تظهر للناظر المندهش صورة قصر من قصور الجن، وهذا القصر بني لأجل عرس واحد مسخرة من القصرة الملكي الذي غيّر دينه. ومعلوم أنه سكن هذا القصر مع زوجته

بعض أيام، وكان مأذوناً لكل الناس الذهاب للتفرج على هذه الأعجوبة والتحفة المرغوبة، ولكن كثرة الغاوين وازدحام المتفرجين خرج عن الحد حتى اضطر إلى تحويطه بالخشب ونصب ديدبانات عليه.

ومن ١٥ كانون الثاني إلى أوائل آذار بقي هذا البيت العجيب الساحر للب اللبيب بغاية القوة بواسطة البرد المستمر من ٢٥ درجة إلى ٣٠ درجة، وفي نصف آذار الثاني ابتدأت الحيطان في الانشقاق، وبعد ذلك بقليل تساقطت بالكلية نحو الجهة القبلية، فحينئذ خرب ونقلت صخور حيطانه بالتعظيم إلى سردابات الجليد التي في القصر، لأن في هذا الشهر تقطع صخور كالجنادل من النيفا، وتحمل إلى السرداب لتبريد المياه بجليد، والحلوى وبعض الأطعمة فتبقى إلى الشتاء، وقد صنف الخواجة كرافت أحد أعضاء أكديميا العلوم والمعاصر المعاين لذلك الزمان كتاباً وصف فيه هذه البنية العجيبة، وذكر التجربات والملاحظات التي ذكرها علماء الطبيعة في شتاء سنة ١٧٤٠م في هذه المدينة، وهذا الكتاب طبع في بتر بورغ ١٧٤١م. والآن يوضع في الشتاء تارة نحو الحافات اليمنى واليسرى من المنزل المنحدر الذي يبنى بأخشاب وألواح ثخان فوق مرسى ٧٤/النيفا دعائم من الجليد لإمساك حائط هذا المنزل، وفي سنة ١٧٣٣م في المنزل المجاور لقصر المرمر بنى فلاح دويرة من صخور الجليد التي يغطي بردها دائم الخرق المحفور لغسل الثياب، وباب البيت وشبابيكه رميت بصناعة بواسطة كرات الثلج، وهذا يمكن أن يكون وحده المرئي من هذا النوع في بتر بورغ بعد القصر المشهور ١٧٤٠م، وقد بني في مدينة لوبك سنة ١٧٤٠م أمام باب المدينة الكبيرة برج من الجليد، وعلى المتراس ٥ مدافع، وفي الوسط سبع طوله ٧ أقدام، وهذا البرج كان محكم البناء، إلّا أنه تقليد صغير، لقصر بتر بورغ الفريد في بابه، ومن دوس المارة على النيفا يكون عليه كالتراب ويصفر، وقلت في المفاخرة بينه وبين النيل:

هيّا انظروا ما أصاب نيفا　　　حتى غدا أصفر الإهاب

النيل ماء وذا تراب والماء يعلو على التراب

وقلت أيضاً:

إن قيل إن النيل في المـ ـدبه طين قذر
فإن نيفاكمُ حكى جموده الشب الزفَرُ
النيل عذب سائغ وذا كطود منقعر

وأمّا فيضان ماء النيفا في بتر بورغ فيقع كل خمس سنين أو ست بسبب تغيير الهواء وعصف الريح، لكن في سنة ١٧٨٨م، وفي سنة ١٨٠٢م اشتهر ذلك ففاض الماء في الحارات، ولكن هذا بالنسبة لطوفان ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٢٤م كلا شيء، وكان اليوم السادس كنذير الخراب، فأمطرت السماء طول النهار، وكان الريح بارداً جداً، يهب بشدة عظيمة، بحيث إنه عند المساء زاد الماء جداً، والسكان الذين لم يتعودوا على هذا الفيض العميم، ولم يتصوروا أن ينشأ عنه هذه المرة من الخسارة أكثر من المرات ٧٥/السابقة، ولو استمر الماء على الارتفاع قضوا الليلة بلا خوف، وناموا بالهدوء والسكون، وما أنشدوا قول الشاعر:

والليالي من الزمان حبلى مثقلات يلدن كل عجيبه

وتفكر أهل الحزم والاحتياط أن الماء في الصبح يهبط على العادة، لكن من المصيبة أن كان هذه المرة بالخلاف ـ ولله خرق العوائد ـ فهبت في الليل ريح بارد قبلي شرقي، وزاد من ساعة إلى ساعة في العصف حتى صار صاعقة، وفي الصبح اجتمع على ساحل النيفا أمام قصر الشتاء خلق بلاد عدد يضربون الأمواج المتصاعدة بسبب الصواعق، وعلى وجوه الناظرين يلاحظ الحيرة والانبهات لا الهول، لأنه لا أحد إلى تلك الساعة خاف مصيبة دانية، وطامة قاصية، ثم بالسرعة تجاوز الماء الحد وبلغ ١٣ أقدام و ٧ أصابع وعبَّر السواحل إلى الحارات من كل جهة إلا حارات قليلة، وزاد حتى عامت السفن الكبيرة في الحارات، وأرست عند

شبـابيك البيوت ومشربياتها، وقصر الشتاء كان كصخرة يتفجر منها الماء من كل طرف وتضربها الأمواج وترمي بزبدها إلى الدور الأعلى، والنيفا يغلي ويتماوج بقوة وسرعة فرّقت شمل القناطر، وشتت جمع السفن الثقيلة، وركابها رفعوا أيديهم إلى السماء منتظرين الممات قانطين من الحياة، وكثير من صخور الصوان تخلخل أو انقلب، وفي كل موضع الناس الذين يفاجأهم الماء ينطون إلى شبابيك البيوت، أو يتعلقـون بأعمـدة الفينـارات، أو بأغصان شجر البولفار، أو بأعلى العربات، والخيل هلكت وفي لبّابها العدة، والأطفال الذين ذهبوا إلى المكاتب غرقوا، فوق الماء يطفو كثير من الأمتعة التي نهبها الماء من البيوت، ومن الصلبان التي قلعها من المقابر البعيدة، والمصيبة كانت أدهى وأمر وأشأم في النواحي الموضوعة على ساحل النيفا الأيمن في الأماكن القريبة من الخور، فهناك ٧٦/علا الماء ١٦ قدماً، وهلك كثير من الناس خصوصاً في معمل الحديد، فإنه لما أخذ الماء في الفيض أُذن للشغالين بسكنى الدور الفوقاني، لكن سرعة الماء عاقتهم واضطروا لتخليص حياتهم أن يشاهدوا هلاك أموالهم وعيالهم ونسائهم بلا وسيلة للخلاص منشدين بلسان الحال:

أبـــا منـــذر أفـنـيت فاستبْقِ بعضنـــا حنـانيك بعض الشر أهونُ من بعضِ

وبعد الظهر بساعتين، حاكم المدينة ظهر في زورق باثني عشر مجدافاً في شارع نيفسكي وكثير من الناس ذهبوا في الحارات في زوارق، وبسببهم تخلص كثير من الناس، وبعد الظهر بساعتين وبعض دقائق بلغ الماء منتهاه من الفيض ثم أخذ في النضوب والفيض ذلك النهار بعينه وكل شي بلغ الحد انتهى، فما أفظع تلك الليلة الخراب والظلمة العظيمة. والاختلاط بحيث يستحيل توليع الفينارات، لأن الصاعقة كسرتها، وفي كثير من الحارات تساقط الأبنية وانشقاقها، وفي غيرها كان العبور مستحيلاً، وكم من مئات من الناس يبكون على هلاك أموالهم وغيرهم أســوأ حالاً، منهم يبكي جيف أقـاربـه، وغيرهم محـروم من المسكن والقـوت

والملبس، يئنون على طلول بيوتهم المندرسة. وفي اليوم الثاني أخذت الرأفة قلب الكبار، وذهب ثلاثة منهم أوّلاً إلى بيت الحاكم وأعطوا مبلغ ٧٥٠٠٠ رُبل لحوائج المساكين اللازمة، وبيت الحاكم فتح، وصار مضيفة للناس الذين فقدوا أسباب المعيشة، وأُعطي لأربعمائة عائلة وثمانين ثياباً ونقوداً للإعانة، وكان يتغذى في بيت الحاكم ويتعشى ٥٠٠ نفس كل يوم، منهم ٢٥٠ يسكنون عنده دائماً، وقسم في اليوم الأول خبزاً بأكثر من ٣٥٠٠ ربل، وفي هذه الفرصة ظهر كثير من صدقات الناس السرية الذين لا يريدون أن يظهر اسمهم لتواضعهم، وكثير من المحسنين يأتي إلى بيت الحاكم ويأخذ بعض الفقراء ٧٧/منه ويمونهم عنده سنة، والمملكة أعطت المثل على عادتها فنسيت خسارتها الخاصة واشتغلت بإنقاذ العامة وإعانتهم، فأعطى القيصر مليوني ربل ليقسم عليهم، ولأجل تسهيل وسائط الإعانة والإسعاف أمر بنصيب ثلاثة رؤساء تحت حاكم المدينة، واحد في وسيلي أستروف، وواحد في جزيرة بتر بورغ وواحد في ناحية فيبورغ، وكان القيصر يروح بنفسه لامتحان المباني المنهدمة، ويعين رعيته بالرقة والشفقة كالأب الرحيم، والملك الكريم، ورتب جمعية في وسط المدينة، وأمر أن ترسل الأدوية للمرضى في كل موضع بلا تراخ حسب أمر الحكيم، وبعد أيام قليلة من هذا الطوفان البارد جاءت الحمى الصفراوية بين أدون الناس. على أن المصيبة ليست بيضة الديك، فأرخص القيصر الملح والخبز وغيرها من الأقوات اللازمة، وفي عدة من أخطاط المدينة يقسم الخبز وغيره من الأقوات صدقة من طرف المملكة، وجلب من الريف كثيراً من الفلاحين للأشغال، أُجرة الواحد عينت بربل ونصف في اليوم، وهذا السعر ارتفع بسبب الدعاوى المفرطة من الشغالين الموجودين في المدينة آخر تشرين الثاني، وصاروا لا يأخذون أقل من ستة ربلات في اليوم، وبواسطة هذه الاجتهادات زال الضنك والمرض المسببان عن هذا الحادث المنحوس، وبرحمة الله وإسعاف القيصر والمحسنين انمحى ذلك الأثر. وفي ١٥ تشرين الثاني أُشهرت الصلاة لشكر الله الذي يعاقب ويعفو، ولا يستقصي في الغضب. وفي ٢٢ من ذلك

الشهر أشهرت صلاة الجنازة على كل غرقى هذا الطوفان، وثم انمحى ذلك حتى من حافظة الناس ودخل في تاريخ هذه المدينة، تذكرة للنقم والنعم، والخسارة العظمى في هذا الحادث، هي خسارة الناس، ففي المدينة وأطرافها هلك ٤٨٠ نفراً، ولا يمكن ضبط الأشياء التالفة بالتحديد بل بالتقريب، وانهدم من البيوت بالكلية ٧٨/ ٤٦٢، وتقور ٣٦٨١، وانكسرت القناطر غير الحجرية، وهلك من المواشي ٣٦٠٠، وفي سوق المتجر تلف ٣٠٠,٠٠٠ بود سكر - والبود أربعون رطلاً - ومثلها من الملح، ومن الغرقى ما يساوي أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ ربل، ومن الدقيق ٦٠٠,٠٠٠ بود، ومن الخمر الغريب وغيره من المؤنة ونحوها ما يساوي عدة ملايين، وكان المبلغ الموزع على المصابين بهذا الحادث من طرف المملكة ومحسني الرعايا ٤,٠٦٦,٤٨٦، وهذا بقطع النظر عن الصدقات السرية الحاصلة من ناس عديدين للعيال المحتاجين، ومع وقوع الفيضان، بل الطوفان في هذه المدينة، فليس الخطر عظيماً بسبب الوسائط والاحتياطات المرتبة، وأكثر وقوع الفيضان في الشهر الأخير من الخريف، لكن في سنة ١٨٢٧م عصف ريح غربي وارتفع الماء ٢٩ ذراعاً (٤ أقدام و ١١ أصبعاً)، فكان هذا حادثاً خارقاً للعادة في مثل هذا الفصل، وأطلقت المدافع ولعت فنارات الخوف لإنذار الناس لكن ذهب ذلك الخطر من حيث أتى.

الفصل الثاني

اعلم أن بتر بورغ مشبهة لحادثة من حوادث الدنيا أصلية وحكيمة أنشأتها خواطر القيصر الراسخة بلا حدّ، وأعانه على ذلك اجتهاد قومه المذعنون له بالقلب، طبعت خاتماً في صفحة الدهر لا ينمحي، وهي منشأ التجديدات الروسية، وقد بزغت بغتة في النواحي المتباعدة من الشمال مثل نجم صغير التفت نحوه كل العالم بأسره بلا إرادة، وهي التخت المزهر اللامع الريان الذي لم تذبله يد غريب متغلب، الذي له أوّل رتبة بين مدن الأوروبا بسبب تاريخه العجيب

وحسنه وتوحده في المملكة الواسعة التي قبضت بين يديها في أيامنا تخت الأوروبا. ٧٩/. بتر بورغ التي تفكرنا دائماً ببطرس الأول أصل كل ما تراه في الروسيا، ومنبع منه يغترف كل ما يفعل في المستقبل، ومن وقت ما أظهر الشمال بتر بورغ إلى الثلث الأول من القرن الثاني حصل التأسيس والزيادة والتحسينات العجيبة في هذه المدة القصيرة التي مع أنها غير مرئية في تواريخ المدن الأخر كافية لها تمشي بقدم جبار من صغرها إلى العمر المستوى، بتر بورغ مشابهة للشجعان الروس في زمن الخرافات لم تشب من سنة إلى سنة بل من ساعة إلى ساعة، وحذق مؤسسها حام على مهدها، والعقل الثابت الألمعي والجسور من أمة الروس المحلى بقوة متينة راسية لا تتزلزل، رَبّى وغذّى شجاعته الشابة، ولم تزل من يوم تجذب ملاحظات الناس المتمدنة، وهذه المدينة منبع الحمية الروسية، ولها تعلق واسع بالتجارة، وتزورها سكان المدن الأخرى غالباً، وتحتوي على أشياء لطيفة وكبيرة حقيقة، وبالنظر إلى طباع الروس وكيفية معيشتهم وقلة معرفة الأوروبا بلسانهم، وبألف سبب آخر تقتضي تبييناً كافياً وتفصيلاً وافياً فنقول:

الجهة التي رمي فيها أساس بتر بورغ في سنة ١٧٠٣ م، كانت منسوبة للروسيا في الزمن القديم، ونهر النيفا المحدق بالمدينة معروف للروس من زمن نستور، والخطان القديمان اللذان على النيفا واحد على الشمال ويسمى ناحية اينغري، والثاني على اليمين ويسمى كاريليا، كانا باسم فوتسكيا بياتينا من أعمال نوفغورد الكبرى. والقيصر إيفان الثالث في القرن الخامس عشر لما أضعف القوة الجمهورية التي كانت مزهرة في الزمان السالف أدخل في ذلك الوقت تحت قوانينه كل البلاد التي كانت تحكمها، وسواحل النيفا الذي كان مدة قرون طريقاً لنوفغورد الخارجية رأت عدة مرات الروس، وسمعت غير مرة صياحهم بالنصر قبل ١٨٠ / أن ذهب بطرس الكبير لتملكها وردها إلى الروسيا. والنوفغورديون من مدة النصف الأول من القرن الثاني عشر كانوا يرسلون السفن موسوقة بالوسق المفتخر، وفي سنة ١١٤٢م فرقوا وهزموا دننما السويد التي دخلت في النيفا لتخريب اينغرى وكاريليا.

وبعـد نحـو مئـة سنة يعني في ١٢٤١م أرسل ملك السويد أريك الكبير بحصد النـوفغورديين الذين كانوا يغيرون على الفينلاند بالتوالي دننما كثيرة العسكر لتسخير نوفغورد، ولما جازت عمارة أريك بحر بلطيق ودخلت في النيفا، وقاطعت التيار حتى وصلت لملتقى النيفا ونهر إيزور، وصل في رأس جيش اسكندر يار وسلافيج أمير نوفغورد الذي قدسته حينئذ الكنيسة، ودعا السويد للقتال، وبعدما غرق أغلب السفن ألجأ الباقين إلى الفرار بالسرعة، وبعد ذلك النصر المشهور بخمسين سنة الذي بسببه لقب هذا الأمير نيفكسي سيمون وبوسادنيك رؤساء القوة الجمهورية في نوفغورد تسلحوا على الأبطال الحاملي السيوف الذين لا يزالون يكدرون الأرض المنسـوبـة إلى فوتسكيا بياتينا، وكان التلاقي عند فم النيفا وقاتلوهم ودمروهم، وبحيث أغـرقت كل مراكبهم. وقبـل سنـة ١٢٠٣م السـويد الأعـداء الـزرق للنوفغورديين اجتهدوا في سد أبواب التجارة عليهم، ولهذا القصد منعوا أن تصل لهم في البحر الأسلحة وغيرها من الحديد، ولأجل أن يصلوا بالسرعة إلى مرامهم، اجتهدوا في تملك النيفا، وبنوا في سنة ١٣٠٠ م على ساحل النهر أوضة، وعلى ملتقاه مع النيفا قلعة صغيرة سموها لانديسكرون يعني «تاج الأرض»، لكن هذه الحركة ما دامت نتيجتها لأن النوفغورديين ٨١/لما فهموا الأمر جاؤوا في ربيع السنة التـالية وطـردوا السويد وحرقوا القلعة، ثم في سنة ١٢٢٣م لأجل التضييق على أعدائهم الحربيين في السفر من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة بنوا في المركز الذي فيه ينفصـل النيفـا من البركة في قرية أورخوف الحصن المسمى في هذا الوقت أرخوفة أو أرشوك المذكور كثيراً في تاريخ الروس.

ثم في سنة ١٣٤٨م ماغنوس ملك السويد لما صمم على نقل النوفغورديين إلى الدين اللاتيني هجم على اينغرى وأخذ أورشوك، واستعد للهجوم أكثر لما رأى نتيجة الظفر، لكن النوفغورديين غلبوه، وعلم أن الروس من طرف مهبطون حول دننماه الراسية في النيفا، فالتجأ إلى تولية الأدبار بالسرعة والبداء. وفي سنة ١٤٨٧م إيفان الثالث هجم بحملة فاصلة على نوفغورد، وصار أيضاً مالكاً العمارات البحرية

التي بعـد نحـو قرن صارت للروس إلى الأبـد. وفي سنة ١٥٨١م وسنة ١٥٨٢م القيصر إيفان الرابع الملقب بالمهدد أو المهول أشرف على ضياع أينغرى وكاريليا، وأخذ السويد نارفا، وإيفان غورد، ويام، وكربوريا أو كيكسولم وصارت في تصرفهم إلى سنة ١٥٩٠م.

وفي تلك السنة رجع الكل إلى الروس، وفي سنة ١٥٩٥م اعترف بأن الكل ما عدا نارفا منسوبة للروس بواسطة عقد (تياوزين)، وفي مدة الكدر الحاصل في فترة الروس عرض عليهم السويد أن يعاضدوهم ثم انتهزوا فرصة ابهالهم، وفهموا فحوى قول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

وملكـوا اينغـرى وكـاريليا اللتين ردتـا لهم في سنـة ١٦١٧م بواسـطة عقـد سطولبون، ولما رأى السويد أنهم حكام سواحل خور فينلاند، ومجرى النيفا من كل طرف لم يريدوا أن ينتقضوا بحسن وضع ٨٢/هذا النهر، فمن سنة ١٦١١م أسسوا بناء على رأي جنرال غردبا المشهور على ملتقى أوخته على الساحل الشمالي قرب لانـديسكـرون، ويمكن في محله بالنفس مدينة سموها نين وبقربها قلعة صغيرة سموها نينسانتز، والروس يسمونها كانتزي، والتقارير التي كتبها غوستاف أدولف في خصوص هذه المدينة ووقعت عليهعا كريستينا دعت كثيراً من التجارأن يستوطنوها، وصـارت من سنـة إلى سنة أعمر وأزهر حتى صارت في سنة ١٦٩٤م مركز تجارة معتبـرة بحيث ان في مدة تلك السنة أرسلت عليها ١٠٨ من السفن، وخرج منها ٨٠، لكن مع تقدم تجارة نين كان سعادتها قصيرة المدة بسبب أن في سنة ١٧٠٠م وسنـة ١٧٠١م سكـانهـا الذين كلهم بحيث تجار وعدة منهم أغنياء جداً حتى ان واحـداً منهم يسمى فريزيوس سلف شارل الثـاني عشـر مبلغاً جسيماً، رأوا قرب الاشتغال الحربي وخافوا زحف الروس فتسللوا لواذاً في الوقت المناسب، وأقفرت بعدهم نين ونينستانتز المحروس بخفر ضعيف انقلب بوسطة عسكرية منفردة، وكان

بشير تضعضعه المستقبل في شهر تشرين الأول سنة ١٧٠٤م حرب نوتبورغ السفاكة هكذا يسمى السويد قلعة أورشك التي بناها النوفغورديون وقعقعة السلاح التي كانت مبتدأة في سنة ١٧٠٠م في حصار نارفا المنحوس على كثير من الروس، ابتدأت من جديد في سنة ١٧٠٢م على سواحل النيفا، ولما اشتهى السويد تغريق عساكر الروس التي تتماوج بالظفر بقرب دورباط، أرسلوا من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة دوننما مخصوصة لإخراب القرى وهدم الديور الروسية المبنية على السواحل، لكن لما علم أمر كونيتشي ضابط المحل وما صاقبه، وإبراكسين مأمور هذه الناحية بظهور ٨٣/السويد، أرسلوا ضدهم تجريد قرابة في ثلاثين سفينة، وقابلوا على البركة سفن الأعداء، وتملكوا جملة منها على كثرة المحاماة والعنادية، وأغرقوا جملة، وألجأوا الباقين إلى التحصين في جدران نوتبورغ. وفي السنة بعينها بعد مدة في شهر تموز أراد الجنرال السويدي أن يتدارك هزيمة الدننما وتقدم في رأس عرضي عديد من اينغرى إلى ثغور الروس، لكن لما هزمه ابركسين بذاته على السواحل ابرورنهر مزين بنصر اسكندر نيفسكي هرب نحو جبل دود رهوف، ومن هناك إلى نين شانتز في ٢٢ أيلول من السنة بعينها تقدم الروس إلى حوائط نوتبورغ، وفي ١٣ من الشهر التالي، دخلوها غالبين، وهجوم الشتاء عوق جري ظفرهم، والقيصر الذي كان بنفسه في العسكر بعدما سمى مينتيشيكوف المشهور حاكم القلعة المفتوحة أرسله في ذلك الخريف إلى سواحل لادوغة، وأمره أن يبني سفناً في منجرة المحل ومراكب للنقل تستعمل في الربيع الآتي لمحاصرة نين شانتز، وأخذ نوتبورغ الذي قلب اسمها بطرس إلى شليسبل بورغ يعني البلد المفتاح، فتح الطريق ليس فقط لفتح المواضع التي ترتفع عليها الآن بتر بورغ بل لفتح كل الأستوينا، والليتونيا، وجملة من الفينلاند، ولما عزم بطرس على تملك سواحل بلطيق التي كانت منتسبة للروس أمر فيلد مارشال شيريميتوف، صاري العسكر، والذي كلها في موسقو بأن يبتدأ الحرب في سنة ١٧٠٣م بالمشي نحو

شليسبل بورغ، ومنها يهجم على نينشانتز، وهذه القلعة الأخيرة التي تظهر شكلاً مخمساً مبنياً في ركن ملتقى أوختة في النيفا، كانت من قبل الحرب بين بطرس الأول، وشارل الثاني عشر محاطة من مسافة بعيدة بمتاريس وخنادق محفورة قرب ساحل النيفا، ومن جانب شليسبل بورغ وبين القلعة والأشياء المحيطة بها كانت عدة سفن منسوبة للمدينة، وباقي نين يعني الجزء الأكبر بتلة كبيرة للمرضى وكنيستين للوتر يأنيتي واحدة للسويد، والثانية للنيمساويين على الشاطىء المقابل لأوخته، وكان هكذا شكل نين ونينشانتر في خريف سنة ١٧٠٢م، وحين وصل خبر أخذ نوتبورغ، هذا الخبر تفوى سريعاً بظهور تجريدة روسية أرسلها القيصر في طول النيفا من البركة إلى أوختة، ولما نظر حاكم القلعة قرب مجاورة الروس خاف على قلعته، وتحصن فيها بعدما أحرق مدينة نين التي دام اللهب يشتعل فيها مدة ثمانية وأربعين ساعة، وخوف الخفر كان له أساس، ولكن كان قبل الأوان، لأن الروس - كما قلنا - لا يهجمون قبل الربيع، ومع ذلك في مدة الشتاء بعض تجريدات مرسلة من شليسبل بورغ من طرف الضابط مينتيشيكوف، كدرت الخفراء من وقت إلى آخر، وسنة ١٧٠٣م في وقت ما سافر شيريميتوف من موسقو وتقدم مع العسكر إلى نينشانتز جاء عشرون ألف عسكري، ووصل القيصر إلى شليسبل بورغ وانتظر وصول العسكر الذي كان في ٢٢ نيسان، ومشى تحت أوامر صاري العسكر مع عسكر القبطان بمصاحبة الطوبجية الذين هم جزء من عرض برياوبرارنسكي.

وفي ٢٥ نيسان لما كانت شيريميتوف على ١٥ فرست من نينشانتز أرسل قدامه ألفين من المشاة تحت رأسه القولونيل نيد هارت والقبطان غليبوفسكي على سفن كثيرة كانت مستعملة على لادوغة، وهذه التجريدة التي لم تكن مأمورة إلاّ بكشف الموضع ٨٥/، قربت من المتراس الخارجي من غير أن يشعر بها في الليل ٢٤ أو ٢٥ وهجمت بغتة على خفر السويد وقلبتهم، وانتهزت فرصة تكدر الحراس وتملكت من أحد أبراج القلعة، وبعد مثل هذه الضربة باليد لم يبق للروس كثير

علاج على الظاهر لتملك الحصون الأُخر التي يحرسها ٨٠ (ثمانون) رجلاً فقط، لكن الشجعان الذين تملكوا من البرج لما لم يكن لهم معاضد وشكوا في الظفر وتفكروا أنهم لم يؤمروا إلاّ بمجرد الكشف تركوا غنيمتهم، وانصرفوا والسويد لما كان لهم وقت الإفاقة من هذا الإغماء، ونظروا إلى موضع الروس تشجعوا وأخذوا الحذر أن يهجموا مرة ثانية، وتحصنوا جداً، وضيعوا على أعدائهم جمعة زمان، ولما أعلموا شيريميتوف بهذا الخبر، تقدم بكل مساعدة في الليل ٢٥ إلى ٢٦، وطلعت الشمس على عسكر الروس وهم تحت حوائط نينشانتز، لكن محل العسكر كان عرضة لنار القلعة، لكن الغاب والأراضي السبخة وخشونة الأرض ما كان أنسب منها لمرامهم، وفي ذلك اليوم بعينه الجنرال لابيرت رئيس الأشغال الهندسية الروسية فتح الخندق بثلاثين سجيناً من القلعة، وابتدأوا في تجهيز التحصينات بصف ١٢ هاونـاً و ٢٠ مدفعاً جلبت من شليسبل بورغ على السفن التي كانت مصنوعة في مدة الشتاء تحت نظارة مينتيشيكوف، وفي مدة تقدم أشغال الحصار أمر القيصر الذي هو قبطان الطبجية الخفراء كما قلنا آنفاً في ليلة ٢٨ بإنزال ٤ أرط من عرض برياوبرارنسكي، و ٤ من عرض سيمونوفسكي في ٦٠ سفينة، واقتحم بهذه الدننما النيفا الكبير غير مبال بنار القلعة المهول، لأجل أن يسد فم النيفا الذي ربما يصل منه سفن السويد لإعانة المحاصرين، والسواحل المغطاة بالغابات التي بينها تقوم الدننما.

٨٦/أظهـرت لعين القيصـر أرضـاً وحشية لا تنعش النـاس ليس فقط هذه السـواحل، لكن أيضاً كل امتداد البقعة التي فيها الآن بتر بورغ ونواحيها، كان مغـطى بالغـابات والمنتقعات غير المطروقة هناك، وهناك يلاحظ بعض دويرات منهدمة النصف يسكنها أهالي الناحية، والصيد كان واسطة تقوتهم العادي، وكان لهم غنيمة إن جاءت سفينته من البحر لأجل أن يكونوا فيها مستعملين لأجل مقاطعة تيار النيفا، ثم إن القيصر لما أمّن سكان هذه الغابات في أنفسهم وأموالهم، ولم يلاحظ من بعيد ولا مركباً للعدو، ورجع في اليوم الثاني إلى المعسكر، وفي جزيرة

كوتويوف خلّى ثلاث سرايا من الخفر للذب عن ثغر النيفا، وفي مدة غيبة القيصر القصيرة اشغال المحاصرة تقدمت بالسرعة، وفي ٣ الظهر كل الطوبجية والمدافع المجلوبة من شليسبل بورغ كانت حاضرة لهدم أسوار القلعة، ولما علم شيريميتوف ضعف الحراس، وأراد أن يجتنب سفك الدم، عرض على حاكم القلعة شروطاً شريفة، إن ردّ القلعة بمقتضى جوابه أن يدافع إلى آخر نفس، أمر بالحملة الثقيلة بطلق كل المدافع عموماً، ورد السويد كذلك، وبعد ذلك في الساعة السابعة من المساء إلى الخامسة من الصباح، لم يكن إلّا الإطلاق المتوال بلا أدنى انقطاع، فحينئذ فقط أحس الحراس بضعفهم عن المقاومة زمناً طويلاً، وخافوا من الهجمة القاضية، فمالوا إلى الصلح وخلّى لهم السبيل إلى فيبورغ، وكان في أيار سنة ١٧٠٣م في الساعة التاسعة من المساء أن عرض برياوبرارنسكي الذي كان فيه شاه زادة الكسي تعلم ضرب السلاح أوّلاً، دخل غالباً في قلعة نينشانتز التي في ٨٧/ذلك الوقت لا أحد حتى بطرس كان يعتبرها محلاً لأوّل عمارات، قصبة مملكة الروسيا الواسعة، وعند فرح القيصر بدخول نينشانتز في يده بلا سفك دم كثير غيّر اسمها إلى سلوتبورغ، وفي ٢ أيار الصبح أشهر النصر بشكر الله وإطلاق كل المدافع ثلاث مرات، وضرب الشنك بالبنادق، وخبر هذا الفتح وصل سريعاً إلى موسقو تخت الملوك القديم، وأشهرته بغاية التبجيل والتعظيم، ثم إن القيصر بعدما حمد الله على هذا الفتح كما قلنا، اشتغل بالنظر في القلعة والمدافع وآلات الحرب المختلفة الموجودة فيها، وعند المساء في اليوم بعينه ٢ أيار الخفر الذي خلّاه القيصر عند فم النيفا أعلم بظهور دننما السويد، وسفن الأعداء تجهل أيضاً وصول الروس إلى نينشانتز، وما توهمت بأي نوع أخذ ذلك المكان، فأطلقت مدفعين إعلاماً بقربها، ولما علم القيصر بواسطة الخفر المغلوبة أن هذه علامات الدننما استحسن أن يخليهم في طغيانهم يعمهون، وأجاب بمدفعين أطلقا من أعلى أسوار القلعة، وهذا الكيد المتضاعف نجح، ففي مساء خامس أيار أرسلت فلوكة من دننما السويد في النيفا للتفتيش على مستعملين والعسكر والنواتية

الـذين كانوا في الفلوكة كانوا بعيدين بمراحل أن يظنوا أن الروس توجد في هذه النواحي ، وأرسلوا بغير التهامل وأخذ واحد منهم ، وأخبر أن هذه الدننما تحت إدارة نائب القبطان نوميرسي الذي غلبه ابراكسين السنة السابقة في لادوغة ، وتبع الفلوكة بارجتان بعشرة مدافع فقربتا من فم النيفا ورمتا اللهب أمام مدخل النيفا في انتظار المستعملين والفجر، ولما علم القيصر بهذه الأحوال عزم أن يغتنم الفائدة الممكنة ٨٨/من ذلـك، فذهب في المسـاء بعينـه وأخـذ معـه مينتيشيكوف بصفة رئيس الطبجية، وجملة من العسكر بعدما تكلم في ذلك مع فيلد ماريشال على ثلاثين سفينة إلى فم النيفا ، بقصد أن يهجم بالسرة إذا جن الليل على السفينتين المذكورتين ، والهواء الذي كان أوّلاً ساكناً ، والسماء المصحية أظهرا تسهيل قصد القيصر لكن بالسرعة عصف الـريح وهاج بقوة إلى نواحي مختلفة ثم بعد نصف الليل بدقائق غيمت السماء وأمطرت الخور والنيفا بشدة ، وكان عزم بطرس أن هذه السفن تسير بقرب سواحل جزيرة خبرفيسري المعروفة الآن بوسيلسكي أوستروف يعني جزيرة وسيلي في حماية الشجر الذي يسترها ، وأن تنقسم إلى قسمين قسم يهيج في طرف الدفة من جهة البحر، والثاني في الجوانب من جهة ساحل الجزيرة ، والقيصر في انتظار الوقت المناسب رتب دننماه في مضيق جزيرة فيتساري بقرب المحل الذي بني فيه بعد كترينغوف ، وبعد انتظار بعض ساعات آن الوقت المناسب ، وفي وسط الظلمة وزوبعة الليل المهولة بطرس الذي كان يشتغل للروس والعرق في جبينه هجم من الطرفين ، معاقل السويد ومثل القيصر هيج الرؤساء والعسكر تحت برد من الرصاص ورش وجلل مطلوقة ليس فقط من المراكب المهجوم عليها ، لكن من باقي الدننما التي نشرت قلوعها لتلحق معركة القتال ، لكن عوقت بسبب قلة الماء ، والروس هجمـوا على سفينتي السـويد ، حيث تكشـر لهم المنايا عن أنيابها ، وما خلص السويد المحمول عليهم لا نارهم المخربة ولا اجتهادهم الناشىء عن الأياس من البخت الـذي ينتظرهم ، والقيصر هجم على السفن أوّلاً ، وفي مدة بعض دقائق تملك من السفنتين ، ومن ٧٧ رجلاً كانوا فيها٨٩/ ، وعوقب بالموت تسعة عشر

لعنـدهم، وكـل البـاقين وقعـوا في أسر الغالبين الذين أغضبوهم بطول المقاومة وقساوتها، وهذا النصر الذي هو أوّل ظفر الروس في بلطيق، والذي كان مهماً جداً أن بطرس باشـره بنفسه، وأشهره ١١ أيار في المعسكر المنظم تحت شلوتبورغ وقـرب السفينتين المجلوبتين بالـظفـر إلى أمـام القلعة، وبهذه الفرصة الجنرال غولـوقين قبطان باشا أوّل فارس نشان الحواري القديس لندري قلد بهذا النشان رؤسـاء الـظفـر والقيصـر وإشـرافـه مينتيشيكـوف، وأنعم على الضـابط والعسـاكـر الـذين هجموا كل واحد بصفيحة عليها صورة القيصر، ومكتوب فيها الذي لم يكن حاصلاً تحقق، ولما رأى بطرس نفسه مالكاً لمجرى النيفا، عزم على الذب عن مكسبه الجديد بالسلاح، وتهيئة كل الوسائط الكافية لقمع السويد، فبعد إشغال فم النيفا استشار هل يكون محل الذب قلعة شلوتبورغ أو يختار لذلك محلاً آخر أقرب إلى البحر، وبعد الحل العقد انحط الرأي على مد شلوتبورغ بسبب ضيق حدودها وقلة حصانتها، وبعدها عن فم النيفا بمسافة معتبرة بعد أن تبنى قلعة أخرى أقرب إلى البحـر، وبـطرس لأجـل اختيار محل مناسب راح في عدة من أصحاب الاعتبار والملاحظة يمتحن الجزائر المتشعبة في النيفا، وهناك سنح فكره الرأي الصائب أن يؤسس في هذا المحل المتوحد، لكن المظهر منافع عديدة، مدينة كبيرة محصنة، وأن ينعش فقراء اينغرى وكاريليا بمعيشة ناس يشتغلون بالمتجر والصنائع والفنون، ومع أن الغابات الكبيرة والأراضي السبخة الواسعة من كل طرف أدهشت القيصر لكنها لم تثنه عن إخراج مراده العظيم من القول إلى الفعل،فاختار لبناء القلعة جزيرة واطية السطح تسمى ٩٠/اينساري يعني جزيرة المعز الموضوعة في النيفا الكبير قبـل الجزيرة المسماة اليوم بتر بورغسكي ستارنا يعني ناحية بتر بورغ القديمة، وحكى أن سلف شارل ١٢ كان أعطى لأمير من السويد الظاهر أنه الكونت سينبوك أرضاً واسعة إلى فم النيفا، وهذا الأمير المذكور لما سحره حسن هذا المكان ومنافع وضعه بنى فيه أبنية، ورتب ضيعة وأسكن فيها الهربانين، وسمى هذا الملك لوست هو لـم يعني «جزيرة الحظ»، ثم بعد مضي سنتين أو ثلاثة مات جملة من سكان

الضيعة بسبب البرد في يوم من الخريف قبل ظهور الجليد، وبعد ذلك فاض الماء على السواحل وأغرق الضيعة، ولما رأى الأمير ضياع أشغاله ومصاريفه، ولم يستحسن تجديد العمارات المنهدمة وسمى الأرض التي أنعم بها عليه الملك توفليس هو لم يعني «جزيرة العفريت»، وسافر وترك القرية المنهدمة في زوايا النسيان، وهذه الحكاية من حيث إن أهل القيصر لم يقرؤها، يمكن أنها مخترعة، ومع ذلك هي مطابقة لقساوة هواء بتر بورغ الذي تذلل الآن قليلاً بسبب زيادة السكان، وتنشيف المنتقعات، وقطع الأشجار الجالبة لذلك، وعزم بطرس الكبير على تحصين جزيرة اينيساري، ويفسر اختيار أحسن بسبب أن القلعة ليست فقط محدقة بحفر عادية بل بمياه النيفا الجارية العميقة، ومن طرف الأرض صارت منيعة بسبب أن أحدقت بها المنتقعات الخطرة المغطية للمواضع المسماة من ذلك الوقت بتر بورغسكي ستارنا، وتسميها السويد كويفيساري، يعني «جزيرة القان»، وكذلك الجزائر الأُخر القريبة.

وبطرس من غير تضييع الزمان من منذ ١٦ من الشهر المذكور يوم التثليث باشر بنفسه تأسيس قلعة في الأرض، ووضع بيديه الحجر الأول ٩١/من البرج الموضوع على شمال أبواب القديس بطرس الموجودة الآن، والمطل بوجهه الشمالي على بتربورغسكي ستارنا، ولأجل تقوية تحصين القلعة أمام الحائط الملعونة ضد تيار النيفا عزم على بناء سور بصورة نصف الدائرة، وعلى جزيرة لوسينوي المسماة الآن وسيلي أوستروف في الطرف الحاد المحصور بالنيفا الصغيرة، والذي يسمى بسبب حصانته سترلكه يعني السهم، بنوا قلعة حصينة، وبعد التحصين عينت جزيرة كويفبساري قاعدة المدينة التي سماها الملك من أول وجودها سانكت بتر بورغ تفاؤلاً باسم الحواري القديس بطرس، وكان مينتيشيكوف معاون القيصر في هذا العمل مسمى حاكم المحل ورون بيك كان ناظراً، وتريزيني الذي أصله إيطالياني، ناظر الطبجية، سمي بالمعمار والعسكر الذين غلبوا نينشانتز، والذين كانوا مخيمين على سواحل الينفا العرّابة على اليمين والخيالة على الشمال، قسموا

قسمين: واحد تحت حكم الجنرال الأمير ربينين بقي في بتر بورغ، والثاني تحت حكم شيريميتوف مشى لحرب قلاع كوبور باوام الذي سبب أخذهما بحيث بلا خسارة انقياد كل اينغرى لطاعة بطرس الكبير، والقيصر في صيف هذه السنة لتفكير رجوع هذه الناحية إلى ملك الروس، رتب ألف رجل عسكراً مشاة أقوى وأحسن ما يكون، وسمى أوّلاً هذا النظام الأحسن عرضي مينتيشيكوف باسم رئيسه، ثم بعد ذلك سماه عرضي اينغرى، ومع أن هذه العرضي ينتسب بالأصالة إلى العسكر ولا إلى الخفر، له مزايا خفر القيصر، ويسكن دائماً في بتر بورغ من حيث انه كان خفراً مخصوصاً لمينتيشيكوف، وإعلاء جزيرة ايفيساري وردم المنتقعات وقطع الغابات وبناء القلعة والبيوت والأشغال الأخرى، كل هذا يقتضي أيدي كثيرة، ولهذا السبب استعمل القيصر في ذلك العساكر التي تحت إدارة الأمير ربينين، ثم أهل اينغرى وكـاريليا وناس من أولونيتز ونوفغورد، وأحضر من داخل المملكة ألوفاً من الصناع والأسـطاوات، وكذلك من القزاق والتاتار والقلمون، وأعطاهم للمساعدة أسرى السويد حتى اجتمع في ذلك الصيف ٤٠,٠٠٠ ألف رجل مختلفة الصنف واللسان للشغـل في أساس بتر بورغ، وليس للشغالين الميرية إلّا القوت، ولكن لغيرهم زيادة على القوت كراء ثلاثة كبيك في اليوم، والكبيك عشر ربل، والكبيك في ذلك الـوقت مثل ١٥ الآن، وأغلب هذه الشغالة ما كان لهم أوّلاً لحفر الخنادق وفتح الخلجان، ورفع الشطوط وغير ذلك لا فأس ولا مجرفة ولا معزقة ولا قفة ولا عربة، بل كانوا يحملون التراب الذي يحفرونه بعصي أو بأصابعهم العريانة في أخراج أو في أيديهم أو في حجـور قفـاطينهم، وبعـد الأشغـال القاسية هكذا ينامون في الكشف في أرض رطبـة تحت الضبـاب، والغيوم المطرة، وكان يتفق لهم أيضاً مقاساة الجوع لأنه لا يسهل دائماً تحصيل المؤنة اللازمة في وقتها لأجل ٤٠,٠٠٠ رجل، لأن النواحي المحيطة بها كانت مصابة بالحروب، فلم يكن فيها كثير إعانة، والـريح المخـالف عوق سفن الفراء الآتية من داخل الروسيا على بركة لادوغة، والأقوات كانت نادرة وغالية خارجاً عن العادة، وبعد ذلك يمكن أن يتصور التعب

والاجتهاد الخارج عن العادة الذي يساوي تأسيس بتر بورغ، لكن كل ذلك مقتضى الحال إذ ذاك واعتبار راحة الروسيا بأجمعها لا يأذن بالتأخر أمام العوائق، ومع كل هذا التعب فالاجتهاد الناشىء عن حضور القيصر وعن حسن الترتيب الذي يفعله بلا انقطاع كان بحيث ان بعد مضي أسابيع عدم جملة من الغابات والمنتقعات، ٩٣/وأن في محـل الدويرتين القديمتين اللتين كانتا فقط مسكن النوع الإنساني تصـدى فوق الماء متاريس القلعة المهددة، ومن يوم تأسيس القلعة أراد القيصر إسراع الأشغال، فقسم النظر بين ستة أشخاص، فأخذ لنفسه قسماً، وفوض الآخر إلى الكبار الموجودين بقربه خصوصاً إلى ناريشكين وترويتسكي وذوتوف وغولوفكين مينتيشيكـوف، ولتذكار هذا الترتيب سميت الأبراج باسم النظام مبتدئة بالبرج الذي على يمين باب ماربطرس الذي سمي باسم «القيصر»، وفي مدة الأشغال أشهر بطرس عيداً اسمه ٢٩ حزيران، وعمل مينتيشيكوف للقيصر وللكبار وليمة مفتخرة في المحل الذي بناه في البرج المسمى باسمه، وما كان الباعث لبطرس على بناء هذه المـدينـة حسن وضعها فقط، بل صلاحية الموضع بالسهولة التامة لدننما تدخل وتخـرج وتـرسي، وبـطرس الذي علم بالتجربة بسبب خيبة محاصرة أزوف سنة ١٦٩٥م كيف نفع دننما في حرب البحر عرف من أول وهلة أن فم النيفا يلزم أن يكون للروسيا مفيداً، وما زال مسدوداً وما استراح حتى كمل قصده، وذلك انه لما أحدر من النيفا إلى البحر اشتاق أن يعرف عرفاناً كاملاً جريان هذا النهر العظيم، وفي واحدة من سفراته رأى بغتة على فم النيفا عدة جزائر تصلح بغاية اللياقة أن يكون ميناء للمراكـب التجارية، وهذه الجزائر كانت مسكن فقراء صيادين، وكانت لطيفة المنظر، وتصور بنفسها مفتاح النهر، وفي الدخول في هذا الموضوع يلزم الروس أن تتحصن بالضرورة، وبطرس فهم بالسرعة كل منافع وضع هذه الجزائر بغاية المناسبة بفكره الحاد، ونظره الثاقب، فعزم أن يبني ذلك مدينة، وأخذ في الأشغال بعزمه الماضي غي منتظر عقد الصلح وغير مبال بصعوبة فيضان المياه، وبينما يرن خبط الفؤوس في هذه المواضع الساكنة، ما سكت السويد على نظر

هذا، ٩٤/بل جردوا عساكر ١٢٠٠ من فيبورغ أوائل تموز تحت نظارة الجنرال كرونيورت الذي كان بعينه في سنة ١٧٠٢م في حرب مع ابركسين لهدم الأبنية المبتدأة، لكن القيصر لما علم الخطر في الوقت خرج من بتر بورغ مع أورطتين من الخفر، وأربعة أرط من العسكر، وهذه العساكر لما لاحظت في ٩ تموز العدو من الساحل الآخر من نهر سيسترا، عبرت عبوراً صعباً بمرأى منه، وهجمت عليه بشدة، والسويد مع متانة ملجأهم في أشجار غلب، غلبوا واضطروا إلى الرجوع إلى فيبورغ بعدما عدموا كثيراً من أمتعتهم ومدافعهم، وبواسطة زيادة الشغالة االمتكاثرة كل يوم في بتر بورغ، فرغ بناء القلعة في آخر الشهر الرابع، وفي الداخل في طول الجزيرة فحر خندق لئلا يتعرض لفقد الماء خصوصاً في حالة الحصار لو فرض، وعلى ساحلي هذا الخندق بنيت أربعة صفوف من البيوت مسقفة على عادة الفينوانيين بالعشب أو بقشر شجر القان، وعلى الشط الجنوبي رفعت كنيسة من الخشب نقشها يحكى الرخام الأصفر باسم الحواري ماربطرس، والحواري ماربولص، وهذه الكنيسة كان لها ثلاثة أهلّة في أعلاها، وأيام الأحد والأعياد يرفعون في قلب المراكب، وفي أحد هذه الأهلة معلق ناقوس يضربون به في ساعات الليل والنهار، وفي الساحل الآخر من النهر أمام باب الكنيسة الشمالي بيت صغير لحاكم القلعة من دور واحد وبقربه بيوت ضباط الخفر، وفي قبلي الكنيسة في محل بيت حاكم القلعة كان بيت كبير كعسكر الخفر مع فسحة أمامه، وهذه الفسحة كانت تسمى «محل الرقص» بسبب حصان خشب يظهر حاد، وصاري محفوف بأوتاد مذبذبة، وعلى الحصان يوضع العسكري المُذَنّب ذنْباً عظيماً مفرشحاً وعلى الصاري واقفاً، وهذه الجرسة كانت موافقة ٩٥/لعادة ذلك الوقت، وبقرب بيت العسكر بيت خشب منقوش بكيفية نقش الكنيسة عين أن يكون الترسخانة، وفي البيوت الأُخر كان مسكن قسس كنيسة ماربطرس وبولص وكنيسة اللوتيريانيين ونوابهم وكونسلارية «الخفر ومخازن الأقوات». وفي برج مينتيشيكوف بيت لطيف صغير كان معداً للعقاقير والأدوية الميرية، وبابه الموضوع في الجدار

بين برج القيصر وبرج مينتيشيكوف يوصل إلى قنطرة خشب يمكن رفعها وإلى فرجة بين القلعة وجزيرة كويفي التي صارت جزيرة بتر بورغ، وكل يوم من وقت أن تدق الطرنبيطة لإيقاظ العسكر حتى تدق لانصرافهم بنديرة القيصر تتهادى على برجه، وأيّام الأعياد والمواسم العظيمة ينشر العلم الذي بصورة نسر برأسين ماسكاً بمخله وبمنقاره على أربعة بحور، البحر الأبيض، والبحر الأسود، وبحر كيلان، وبحر بلطيق، ونشر البنديرة أو طيها علامة على ابتداء أشغال المدينة أو تمامها وإطلاق مدفع يدل على هاتين الحالتين.

وفي الساعة الحادية عشرة يطلق مدفع للغداء، وحيث كانت جزيرة اينيساري محفوفة بحيطان قوية، أراد القيصر أن يكون قريباً من القلعة بقدر الإمكان ليمتحن الأشغال غالباً، فبنى في جزيرة بتر بورغ بقرب الساحل النيفا الكبير بنحو مائتي سجين من برجه في محل كان في حكم السويد دويرة صياد بيتاً من الخشب عرضه ثمانية سجين وسمكه ثلاثة، ومجدد الروسيا لما كان عدواً للترفه والتزايد أعطى لنفسه مثل القناعة، وسكن في أوضتين بينهما مدخل ومطبخ والكل مدهون بلون أحمر مخطط بالأبيض على ذوق الهولانديين، لأجل أن يظهر حيطاناً من الآجر المكشوف، وفي الداخل مزين بقماش غليظ ملون بالبياض، وأثاث البيت موافق لبساطته، وفي وسط السقف يرى هاون، ٩٦/وفي كل ركن بنية جاهزة للطلق، وهـذه الأشياء الثلاثة كانت مصنوعة من الخشب المصور، وهذا كان أول قصر لبطرس الكبير في بتر بورغ، وما كان في ذلك المسكن الوضيع إلاّ جليلاً ورفيعاً، وبنى مينتشيكوف محبة الرفعة والفخر أمام دويرة القصر بيتاً من الخشب أيضاً، لكنه واسـع، وفيه تشتهـر الأعياد ويلاقي القيصر بسبب صغر بيته، وهذان البيتان مع الخيام والأخصاص المبنية هنا وهناك بلا نظام لأجل كنّ الشغالين في جزيرة بتر بورغ مدة الشتاء، نصبت كل المدينة المولودة في ١٧٠٢م وبطرس لما رمى أساس مدينتـه، ورأى إمكان تحصيل دننما، سافر أوّل تشرين أوّل إلى «لادينوي يوله» الذي سماها «منجرة أولونيتنز»، وابتدأ فيها ببناء ٦ فرقيطان و ٩ قبقات، ثم رجع

إلى بتـر بورغ في الفـرقيطة المسمـاة «ايتـانـدار» التي أنـزلها من المنجرة نفسها والمصحـوبـة بست قنج جديدة أيضاً، وفي مسافة الطريق بسبب الريح العاصفة الشديدة لبخت الفرقيطة في الرمل، وحصل فيها عوار أصلح عند وصولها، وهذه أول مرة أن مركب حرب من هذا الجنس تقوم على ماء النيفا وتعمر على سواحله، والقلق الذي كان يجده القيصر لتكميل دننما في بحر بلطيق بعثه في تلك السنة بعينها سنة ١٧٠٣م أن يبني في خط نوفغورد، وفي ملتقى نهر كياس منجرة جديدة خرج فيها من الخريف ٣ قبقات، وإلى مبلغ ٣٠٠ مركب مختلفة وغراب للنقل وأكثـرهـا بنـاها الأوسط جبريل مينتيشيكوف، الذي تعلم السفانة مع القيصر في هولاند، وقلة الملاحين عطلت بطرس، لكنه اجتث هذا العائق بأن دعا إلى خدمته ضابـطاً من هولانـد ومن البنـدقية، ومن بلاد مسكونة بأمم أصلهم من الصقلب /٩٧/خصوصاً من سواحل البندقية، ثم أخذ لتكميل ذلك عدة من النواتية الغرباء الموجودين في السفن الواردة إلى ارخانكيل، ولما علم القيصر بعد رجوعه إلى بتر بورغ بسفر دننما القبطان «نومير» التي كانت مدة الصيف في القرصنة أمام فم النيفا إلى فيبورغ لتقضي فيها الشتاء، سافر مع أن خور الفينلاند ابتدأ في التجلد قنجة واحـد إلى جزيرة ريتسـاري الضيقة الطويلة المعروفة بين الروس من زمان طويل باسم كوتلين، والموضوعة على ٣ فرست من بتر بورغ وسبر الجزيرة وقاس مشعبها، وبعدما امتحنها بإمعان النظر عزم على تحصينها، وذلك أنه لما رأى أساس مدينة يلزم أن يجعلها في ملجأ من فتكات الأعداء الذين هم أيضاً ملاك البحر، ورجع القيصر إلى بتر بورغ وقلبه مشغول بهذا الفكر، وكان خلّى في الجزيرة مينتيشيكوف مع ٤ أورط، وقسم على الأخر مساكن للشتاء في الأخطاط المجاورة، وسافر إلى موسقو بعدما حصن أسوار القلعة بعدة ٣٠٠ مدفع من النحاس، والسبع معادن كلها تقريباً مغتنمة من السويد، وقبل سفر القيصر إلى موسقو أبطل عادة مستعملة في الروسيا منذ عدة قرون، وذلك السجود للقيصر كلما يلاقي، وهذه العادة التي يمكن أن أصلها من وقت حكم المنغول كانت مكروهة جداً لبطرس خصوصاً في وسط

الوحل، والمنتقعات، فلذلك حرّج على فعلها، والعامة المتعودون كل الأزمان على هذه التحية لشخص الملك شق عليهم الترك، وكثير من الناس إذا رأوا القيصر يخرون سجوداً بلا إرادة، وتأبى الطباع على الناقل، وهذا ألجأ القيصر إلى التهديد والعقاب الأليم لكل من يتجاسر من الآن وما بعد أن يفتأت عليه، ويخالف ما تقدم إليه، وبعد سفر القيصر ببعض أيام، وصلت بتر بورغ أوّل مرة بعد تأسيسها سفينة من هولاندا، رئيس هذه السفينة كان يجيء كل سنة إلى خور فينلاند، حيث ٩٨/كان السويد حاكم البلاد يقطع أخشاب العمارة على سواحل نهر سيسترا حيث الآن «سيسترورسك» و «سيستربيك»، ووصل لهذا الغرض بعد وضع أساس قلعة بتر بورغ بأسبوعين أو ثلاثة، ويتبعه اثنا عشر مركباً تجارية، لكن لما علم الأخبار المعروفة بها خصوص (دننما) القبطان نوميرسي التي عاقت هذه المراكب عزم أن يروح لمقابلة القيصر لالتماس إذنه في الاستمرار على قطع الخشب، لكن لما وصل كان القيصر وحاكم البلد غائبين منذ أيام، وراح يام وكوريا اللتين ضمّنهما شيريميتوف ولم يقدر أن يرى القيصر، لكن لما سمع برجوع الحاكم جوزي ليس فقط بالإذن في قطع الشجر من المحل المذكور، بل بحثه أن يجلب إلى بتر بورغ السفن الموسوقة بالبضائع والرئيس لما انسحر بهذا القبول لحق سفنه وأراد أن يدخل النيفا، لكن لما لم يقدر أن ينال إذن نوميرسي الذي يخاف أن الروس تتنبه لتسليح سفن هولاند وتتقوى بها عليه، قال له أن يقضي الليل مع ست من سفنه خلال دننما السويد، ويصل إلى نهر سيسترا على السواحل التي فيها بعض عراض روس، من وقت هزيمة الجنرال كرونيورت، ووصلت واحدة من هذه السفن إلى بتر بورغ في تشرين الثاني لما وجدت بغتة بعيدة من دننما نوميرسي، وكان النيفا والخور إذ ذاك عاريين من الجليد، والسفينة موسوقة ملحاً وخمراً، فقابل مينتيشيكوف الذي يفهم مقاصد سيده السديدة ويحصلها بالهمة العتيدة الرئيس بغاية البِشر والبشاشة، ونهاية الطلاقة والهشاشة، ودعاه إلى طعامه المفتخر وأهدى له خمسمائة مجر، وأعطى لكل نوتي ثلاثمائة قطعة، واشترى كل وسق السفينة ثم

وعد أن يهدي لرئيس المركب الثاني التي تجيء بتر بورغ ثلثمائة مجر، ولرئيس ٩٩/ الثالثة مئة وخمسين. ومع توارد الأشغال والدواعي المقتضية ليس فقط لالتفات القيصر، بل لحضوره أيضاً كان محط نظره تحصين بتر بورغ بحيث يظهر أنه صرف فيه كل اعتنائه واجتهاده آمراً مشافهة إن كان حاضراً، وبالكتابة إن كان غائباً:

اعـلـمـوا أنـي لكـم حافظ شاهـداً ما كنـت أو غائـبـا

وبينما كان يخترع الأشياء النافعة لإصلاح داخل المملكة كان يربط التعلقات الخارجية، ويستعد لحرب تكون قبل الربيع ويترك سفناً وغلايين من كل نوع إلى نهر دونا، وبمجرد ما وصل من موسقو إلى فوروثيج أرسل إلى مينتيشيكوف، أن يحصن جزيرة كوتلين، وهـذا القصـد إذا فعـل قبلي الجزيرة خصوصاً من جهة المشعب لا يخاف من تقدم سفن الأعداء إلى بتر بورغ ومينتيشيكوف لما وصله الأمر سارع إلى الجزيرة وبنى فيها لتحصينها قلعة خارجة عن العادة، قليلة النظير، وكل المـواد الـلازمـة للعمارة وصلت من بتر بورغ على الجليد بحسب أوامر الحاكم والأشغـال في وقت واحـد تقـدمت وحصلت بالاجتهـاد بعينه والسرعة بعينها في الصيف بحيث إنه عن قريب ارتفع فوق قفر جليد خور فينلاند على لسان الأرض الذي وصفناه دائرة من الخشب أو حصن من ثلاثة أدوار، وأرض كديدبان مهول مهدد حارس على مدخل مشعب النيفا، وأساس هذا الحصن صناديق من الخشب مملوءة بحجارة وملقاة في قعر الماء، ومع صعوبة البرد المتتابع كان في هذا الشغل عدة آلاف من الشغالة بعضهم في البناء وبعضهم في نقل المواد، وهلك ثمانية آلاف فرس بعدم الزاد وبالعنت، وهلك أيضاً كثير من الناس، وهذا كان قرباناً لازماً لحفظ بتر بورغ التي حققت فتوحات بطرس المستقبلة في الدننما وسواحل بلطيق، وقبل تحلل النيفا كملت الأجزاء الأصلية من الجص ١٠٠/ والقصبة المولودة كانت في حصن من جهـة البحـر، وصـارت السكان كل يوم تزيد زيادة على الروس، كالتجـار الآتين من نوفغـورد بالغـربـاء من الأستونيا والليتونيا، وحتى من السويد المسـاكين الـذين حرمـوا بسبب الحـرب من المسكن ومن الصناع والأسطاوات

والنواتية الذين جاؤوا أفواجاً بعيالهم، وتركوا أوطانهم، والتاتار والقلموق المدعومين من بعيد لأشغال القلعة بقوا بكثرة في المدينة واكتسبوا زيادة على القوت ما قدروا به على بناء البيوت، وبهذه المثابة عمرت المدينة وصارت منيعة حصينة، وفرغت المنجرة في أقل من سنة، وهذه المنجرة ما كانت مشتملة في ذلك الوقت إلّا على عشـرة خطوط، والخط المحلي الذي فيه تبنى السفينة، وعند رجوع القيصر من موسقو شاهد عدم انتظار وضع البيوت، فأمر أن تجعل الحارات معتدلة، وفي هذا الوقت ما أوسع حارات المدينة وأعدلها وألطفها وأجملها، لم تزل ساحرة لعيون النظار خصوصاً سياح الأقطار وأصحاب الأسفار الذين تروق أعينهم هذه الآثار.

وفي سنة ١٧٠٦م فاض النيفا، ومع أن الفيضان ما مكث إلّا ثلاث ساعات سبّب الخراب بسبب أن البيوت كانت حينئذ واطية، فطغى عليها الماء، فصارت جارية لا تحمـل السكـان، ولم يجـد الأهـالي عاصماً من الماء إلّا الركوب في السفن، كمـا تداوى شارب الخمر بالخمر، ومع وقوع الحريقة التي اجتثت عدة بيوت عظيمـة من الأساس سنة ١٧٠٧م، كان وجود القيصر كالجود، فأطفأ النار حتى صارت برداً وسلاماً، وتلافى التلف الذي تسامى، وفي سنة ١٧٠٨م، يعني خمس سنين من تأسيس المـدينـة استحقت بتـر بورغ أن تسمى ١٠١/مـدينـة أوروبية، واشتغل السكان الذين أكثرهم غرباء بأجور المعاش وغيره مثل غيرهم:

واتخــذ النــاس كلهم سكنــا ومــثــل الأرض كلهــا دارا

ولما رأى القيصر نتيجة غراسه، وقوة بأسه، اشتهى أن يري ذلك لأناسه، فعزم عائلته من موسقو لرؤية مدينته الجديدة، عروس المدن التي ما رأوها بعد، وإنما سمعوا عنها، وليس الخبر كالعيان:

ولـكـن للعيان لطيف معـنـى به سأل الـمـعـايـنـة الـكـليم

وقد حصل في موسقو إذ ذاك بعض تنقلات أوروبية وتغيرات تمدنيه، ولكن

العوائد القديمة باقية إلى الآن عموماً، وذهب القيصر للقاء عائلته الملكية من مسافة ٨ فرست، ودخل معهم بموكب عظيم في شليسبل بورغ، ومن هناك بعد خمسة أيام نزل القيصر معهم في السفن التي جاؤوا فيها والمزينة بالبنديرات، وتوجهوا إلى بتر بورغ ولاقاهم قبطان باشا ابراكسين من مسافة ٤ فرست في زورق، وسلم عليهم بإطلاق المدافع، وعند وصول هؤلاء الفخام والكبراء العظام إلى بتر بورغ، سلمت عليهم القلعة بالمدافع، ونزلوا بيت مينتشيكوف، وفرّجهم القيصر على المدينة، وما فيها من الأبنية المتينة، وقادهم إلى كرونسلوت ثلاثة أيام، ومع فرح القيصر بحضورهم أشد الفرح واعتنائه بحظهم وسرورهم ما عاقت الأشغال ولا فترت الأعمال بل زادت الفتكات في نواحي البلاد، وحامت العقبان على بلاد الفينلاند فأرسل القيصر من كرونسلوت إلى بورغو على ساحل خورفينلاد الكونت بونريرس ورجع بالظفر مع وجود دننما السويد في فيبورغ، ثم رجع ذلك الكونت المذكور لتخريب قرى السويد التي على جزائر بيريسوفيا وعلى نواحي ١٠٢/فيبورغ فجعجع بها، لكن السويد مع هذا كانوا دائماً عازمين على التألب والتجيش لأخذ بتر بورغ والانتقام من أعدائهم القاهرين، فأرسل شارل ١٢ سنة ١٧٠٧م الجنرال لوبيكر بعسكر جرار (١٤٠٠٠)، ولما علم بطرس ترك مدينته الجديدة وذهبت عائلته إلى موسقو، وصار الناس بين الرجاء والخوف، وكثير من شون الغلال نقل إلى القلعة، وتقدم لوبيكر بوطأة عظيمة وحملة جسيمة وقطع العقبات واقتحم الصعوبات حتى تملك من ساحل النيفا الشمالي، لكن بسعد المدينة غلط لوبيكر غلطاً عظيماً أدى إلى هلاك جيشه حيث دخل في بلاد اينغرى المقفرة المغطاة بالغابات والمنتقعات ظاناً أن يجد القوت الكافي لعسكره، فخاب ظنه وعاد وبال غلطه عليه (خطأ الطبيب إصابة الأقدار). ومع أنه غلب أولاً عدوه فقد وجد عدواً قاهراً لا يُعامل:

وأنفس خطبك الذي لا تناله   وأنكى عدويك الذي لا تقابله

وهو البرد والجوع الخارج عن العادة، المتعدي حتى إلى الضباط الذين ذبحوا الخيول وأكلوها، وهذا الجنرال لم يتقدم إلى بتر بورغ، بل توغل في بلاد اينغرى المسكـونة ليجد فيها قوت العسكر، لكن ما كان العود أحمد، لأن القوزاق بأمر ابـراكسين حرقوا هذه القرى ليسدوا على العدو طريق الخلاص، ففر ولات حين مناص، وأخذ الروس يقتلون السويد ويقولون لنار غضبهم: هل امتلأتِ؟ وتقول: هل من مزيد؟ فكانت هذه المصيبة لهم فائدة قشيبة، بذا قضت الأيام بين أهلها، (مصـائب قومٍ عنـد قومٍ فوائـد)، ولم يكن ملجـأ السـويد إلاّ البحـر الغضبان المتمـاوج، كثير الصواعق، ففر من فر، واختار صاعقة البحار ولا صاعقة العدو الأمرّ. ١٠٣/لكن اختلاف الرياح أذن للروس بالإرباع، وعاق السويد عن ركوب البحـر، وأرسـل ابراكسين خلفهم، ولحقت عساكره أورطتين من السويد لما نزلوا السفن فاستأصلوها:

رمـــاني الـــدهـر بالأرزاء حتى	فؤادي في غشـــاءٍ مِن نبـــالِ
فكـنـت إذا أصـــابتني سهـــامٌ	تكسرت النصال على النصالِ

وهكذا فرغت غزوة لوبيكر المهولة على بتر بورغ أوّلاً ثم آخراً على السويد، فعاد كيدهم في نحرهم، وباؤوا بمكرهم، ومع أنهم أرهبوا المدينة وأضروا بها على الحقيقة، فقد جعلوها في حماية منهم حيث أيسوا من التطلع لها، ولما أحدثت هذه الحرب خراب نواحي المدينة وإحراقها، أراد القيصر أن يتلافى التلف، ويعمر هذه النـواحي بالـروس الأصلية، فاستحسن أن يقسم الأراضي، فأقـطع لزوجته خمس ضياع، ولشاه زادة ولده الكسي بعض ضياع، وكذلك لشاه زادة أخته نتاليا، وأيضاً أقطع بعض الناس، وكان أكثر الناس إقطاعاً مينتيشيكوف، فإنه أخذ جزءاً من أحد عشر جزءاً من بلاد اينغرى، وقسمت الروسيا أوّل مرة إلى ولايات ١٨ كانون الأول سنة ١٧٠٨م. وجعلت بتر بورغ رأس ولاية اينغرى المشتملة على ٣٢ مدينة.

وفي سنة ١٧٠٩م، لما تمكن بطرس من بلاد اينغرى أمر أن تسكن الوزراء والكبراء في بتر بورغ، ومن ذلك الوقت صارت تخت المملكة، وسفراؤه أخبروا أنه بنى مدينة على الماء كل يوم تزيد، ورغّبوا بكل وجه السياحين والتجار، وعقدوا التجارة مع فرانسا وأعلموا إيطاليا أنها إذا توالت سفنها التجارية إلى بتر بورغ لا تدفع إلاّ نصف المكس، وأراد أن يسلك سبيلاً للتجارة داخل المملكة، وأرسل لكشف الطرق البحرية لكن ما حصل مانع فترك وفي ١٠٤/ ١٧٠٩م، ٣٠ تشرين الثاني أشهر عيد نشانة مارأندريا، وعملت ضيافة كبيرة عند مينتيشيكوف، حضرها الوزراء والكبراء والضباط البحرية وغيرهم، وفي الليل عملت حريقة عَجيبة الشكل، صُورت فيها صور مناسبة لوقائع السنة، وفي الآخر حمالة كبيرة معلق فيها هذا النشان. وهذا اللعب سَرّ الناظرين وأعجبهم حيث إن أغلبهم ما رأى هذا النوع البديع، إذ من المعلوم أن الحريقة من الأشياء التي ما رؤيت قبل بطرس في الروسيا.

وفي ٦ كانون الأول في الترسانة بمرأى محفل عظيم من المتفرجين ابتدأ بيده بناء بارجة وسماها «بولتافا» بأربعة وعشرين مدفعاً.

وفي سنة ١٧١٠م أرسل هذا العنقاء ابراكسين لحصار فيبورغ مرة ثانية، لأن المرة الأولى الواقعة في سنة ١٧٠٦م ما أنتجت، وذلك أن الجنرال لوبيكر لما لم يتفكر أن الروس يتعدون الحدود إلى محاصرة محله، توغل بعساكره في الفينلاند في المساكن الأحاسن، فاغتنم الروسيا هذه الفرصة وحاصروا المدينة، وكان مع ابراكسين ٥٠٠٠ رجل، و ١٠ مدافع بثقل ١٢ و١٣ هاون، وذهب على الجليد ١٥ آذار، ووصل إلى القلعة وتمكن من برج بواسطته قطع على المحاصرين كل وسائط الذهاب والتردد إلى داخل الفينلاند، وأطلقوا عليهم النيران، وعكسوا عليهم النيران حتى رأوا الأياس، لكن المحاصرين كانوا مضطرين إلى المدد من بتر بورغ، وما كان معهم بعد ذلك إلاّ زاد ثلاثة أيام، والجليد لا يمكن العبور عليه في ذلك الوقت

الذي هو وقت التحلل، فما أشد فرح ابراكسين حين رأى ٩ أيار المدد الذي حمل له الزاد والمدافع والجيوش، وهذا المذد من أعجب ما يحفظ في التاريخ، ويدل على التمدن النير الذي لمع في الروسيا بواسطة ركن كوكبها الثاقب، وجعلها بين أخواتها في أعلى المراتب، وذلك أن القيصر ١٠٥/لما علم احتياج التجريدة التي أرسلها للحصار أرسل في وقت تحلل النيفا ٢٥ نيسان الدننما التي قضت الشتاء في بتر بورغ، وأرسل مراكب قلعية تحت إدارة كرويس، ومراكب طويلة تحت إدارة بوتزي، وفي هذه السفن ١٠,٠٠٠، فتقدم في رأس الدننما ٧ فارقيطات كل واحدة فيها ٢٤ مدفعاً، وفي وسطها بنديرة كرويس، لكن الجليد عاق عبور الدننما وظهر استحالة الوصول إلى فيبورغ، وبطرس طلّاع الثنايا، ومقتحم المنايا دائماً يستسهل الصعب ويستهون الخطب، تفكر في استنباط طريق لإزالة وعر هذه الطريق بعد طول المغافرة وشدة المعاقرة، وانحط الأمر على رأي القيصر أن يتقدم السفن صادمة للجليد، وكان في الرأس فارقيطة بأربعة وعشرين مدفعاً ومنجّه بالبومب، ونشرت هاتان السفينتان الشراع وعامتا في جبال من جليد بالاصطدام، وفتحتا فيه طريق للباقي، فانظر لحرب هذا الجليد مع الجليد، ووصول هذا المدد غيّر الأمر وقوّى الحصار، لكن القيصر أخذه القلق وذهب بنفسه في ١١ حزيران، ووصل في وقت ما عرف حاكم القلعة أنه لا يقدر على المقاومة، ووصول القيصر أعجل الأمر، وفصل النزاع، ودخلت عساكر بري أوبرارانسكي القلعة ظافرين، وأعطى لإبراكسين جزاءً على ذلك نشان مارأندريا.

قلت: وقد مررت عند رجوعي من هلزن فورس على بورغو، وهي مدينة حسنة، يلوح فيها آثار العمارة، وبها سوق وتجار ومخازن ومضايف، وعلى فيبورغ وهي مدينة حصينة وقلعتها منيعة وأبنيتها بديعة تشابه مباني بتر بورغ، وبنحو ميل منها حديقة كبيرة تسمى «موت ربوس» للأمير نقولة، وقد قضيت فيها بعض ساعات أنيسة، ونظرت ما فيها من المصانع النفيسة، فمن ذلك البرج الظريف على خندق ١٠٦/ لطيف، ومن ذلك الصخور العظيمة التي فيها المغارات، وهناك حنفية ماء

باردة ومنارة عالية تنظر منها المدينة وعمود منصوب على أعلى نصبه الأمير نقولة أثراً لبعض بلدياتـه الفرنساوية الذين جاؤوا الروسيا، وحماهم القيصر اسكندر وأكرم مثواهم، وفي المدينة تل من الصخر عالٍ صعدته، ورأيت فيه حجراً كبيراً منقوش على سطحه « ПI » يعني بطرس الأول، لأن بطرس لما وصل، صعد على هذا الحجر ونصب خيمته، وعندما أخذ القلعة نقش اسمه، وكلا المدينتين الآن في حكم الروس، لأنهم دائماً في التقدم، وفي فيبورغ كحل مشهور باسمها يجلبه المسـافـرون، لذيذ الطعم، وبعض الخبازين في بتربورغ يقلده، ولكن شتان، فحق أن يقال له: «لقد حكيت ولكن فاتك الشنب»، وبنواحي فيبورغ فوّارة ايمترا، وهي فوارة عظيمة يتصاعد فيها الماء بقوة عظيمة، لم تزل أعجوبة للمسافرين ونزهة للناظرين، وقد رأيتها فكانت صيقلاً لبصري وقرة لنظري، وينحدر الماء من أعلى الصخـور من محل متسع كالبركة إلى مضيق بين الصخور، وبالجملة ففي الفينلاند ينابيع وفوارات رأيت بعضها، ولكن هذه الأحسن والأعظم، و«كل الصيد في جوف الفرا»، ومن قوة الماء تتصور بصور شتى، أحجار تبيعها الصغار مع جدتها كانتيكة المصريين فيشتريها السياحون، وربما هاودوا بها والتهادي قد يكون بالأشياء التافهة لغرابتها وندرتها، ونزلت هناك من سلالم من خشب عدتها خمسون درجة، ومشيت بقرب الصخر حول درابزين، ووصلت في الآخر إلى كشك لطيف، وهناك مضيفة جديدة، ذكر لي صاحبها أنها أُنشئت من مدة شهر ونصف، وهناك في الأعلى قصر صغير ومجلس، وكثير من الناس الزائرين يكتبون أسماءهم في الكشكات تاريخ زيارتهم، وقد فعلت مثلهم ١٠٧/ . وعلى ذكر الفوارات، فنذكر الفوارات الموجودة في بترغوف بقرب بتر بورغ، يسكن فيه القيصر وعائلته في الصيف قبل الذهاب إلى «تسارسكيا سلو»، وهو مشتمل على عيون كثيرة وينابيع جميلة، بعضها يخرج من أفـواه الأسود المصورة وبعضها من غير ذلك، وهناك في جميع النواحي من بستانه الكبير فساقي كبيرة تجري فيها العيون، وأعلى الفوارات فوراة سمسون أمام القصـر القيصري، يرتفع فيها الماء جداً، ويقال إنه كان يرتفع في أيام القيصرة كترين الثانية إلى حِذاء سقف القصر.

وفي أوّل تموز ذهبت هناك وتفرجت على الوقدة التي عملت لإشهار فرح ولادة القيصرة، فما أحسنها من وقدة بين سطور الأشجار وبعضها خلال العيون، بحيث إن الماء يجري فوق القناديل الموقودة.

وفي ٢٧ حزيران، اليوم الذي فيه أخذت بولتافا، أُديت مراسم العبادة والشكر لله، وبعد ذلك نشرت في الميدان البيارق المأخوذة من فيبورغ، وبعد ذلك أُطلقت المدافع من القلعة والسفن، وفي المساء عُملت على النيفا حريقة وامتد العيد لما بعد نصف الليل، وأمر أن يشهر هذا العيد كل عام.

وفي ٣٠ حزيران زحف الرئيس بروس على كيكسهولهم، وأخذها ٨ أيلول، وبفتحها أطاعت كل مملكة كاريليا، فإقامة القيصر في بتر بورغ في سنة ١٧١٠م ما كانت إلّا أعياداً:

أولاً - بسبب تضاعف الفتوحات هذه السنة، فمن أول كانون الثاني قبل أخذ فيبورغ أخذ الروس البنيك، وفي ١٠ حزيران فتح شيريميتوف ريغا، وفي ٨ آب خضعت قلعة دوناموند، وكذلك بيرنو في ١٥، وفي ١٣ أيلول كان حصار ارينسبورغ وفي ٢٩ تملك باور من ريفال، وعلى هذا المنوال طاعت بلاد استونيا وليفونيا.

قلت: ١٠٨/وعند ذهابي إلى بلاد الفينلاند في سفينة البخار، أرسيت على ريفال ومكثت فيها نحو أسبوع، وهي بلدة قديمة وبيوتها كالحصون بناها الشجعان في قديم الزمان، وبها كنيسة لوتيريانية قديمة جداً، حتى إنها أشرفت على الخراب، لكن العمارة فيها ومنارتها عالية جداً، صعدتها ونظرات فيها المدينة والمنظر لطيف.

وفي هذه المدينة حديقة كبيرة للتفسح تسمى «كترين دال»، وفي هذه الحديقة بيت بناه بطرس الكبير، ورأيت فيه بعض آثاره من سفر وفرش إلى غير ذلك، وهناك قصر كبير بنته كترين الثانية، وفي وقت عبوري كان مُعدّاً لسكنى شاه زادة قسطنطين

وأخيه نقولة، ولدي القيصر الحالي.

ومن عجائب هذه المدينة التي ترغب السياحون في رؤيتها جسد الأمير دكروا، كان في زمن بطرس الكبير وخان، فغضب عليه بطرس وأمر بعدم دفنه فوضع في سرداب في الكنيسة لا في القبر، ثم وجد من نحو ثلاثين سنة متحجراً كالمومياء، فأبقي عبرة للناظرين وفرجة للمسافرين، ووضع في دهليز الكنيسة، وقد رأيته وجسده ناشف كالجلد ولونه باهت أصفر.

وثانياً ـ بسبب تزوج أمير كورلاند بنت أخت القيصر شاه زادة حنا، وذلك أنه في ١٤ حزيران جاء سفراء لخطبتها، والقيصر الذي يحب التعلق بباقي الدول، كان رتّب ذلك مع ملك البروسيا عم الأمير، وذلك أن بطرس لما أخذ بولتافا وهزم عساكر شارل ١٢، ما قنع بغلبة العدو خارج بلاده، بل أراد أن يهجم عليه في نفس بلاده ليتم له ما يريد من إراحة البلاد وصلح العباد، فذهب بهذا الصدد إلى البروسيا ماراً على بلاد اللين، وطلب من الملك فردريك الأول المعاونة على السويد، لكن الملك لما لم ير في تلك المعاونة نفعاً لبلاده ١٠٩/حاول ومع ذلك ما منع مرور عسكر الروس على بلاده للهجوم على السويد، وعقد المحبة مع بطرس وأكدها بوعده أن يتزوج ابن أخيه بنت أخت القيصر، ولهذا السبب أعطى بطرس ولاية كورلاند للأمير متوارثة. ولما رجع إلى الروسيا مرّ على مدينة كورلاند، ولما وصل الأمير بنفسه إلى ريفال أهدى له مينتيشيكوف حجراً أزرق شفافاً عجيباً ثمنه ٥٠,٠٠٠ مجر وحصاناً تركية، وفراء ثمينة وتحفاً أخرى، وألفي برميل دقيق، واضطر الأمير بسبب الوباء الذي ضرب بلاد ليفونيا واستونيا أن يعمل كرنتينة قبل نارفا، وأمر القيصر بإعداد اللوازم لإقامته، وأرسل له خيمتين مزينتين و ٤٠٠ فارس لحفظه و ٥٠ لحراسة الموضع الذي هو فيه، ووصله هناك أوّل مكتوب من خطيبته، وفي ١٥ آب دخل بتر بورغ في موكب عظيم وقدمه بطرس إلى خطيبته وأمها وصار يراهما كل يوم، وبهذه الفرصة زادت الأفراح، ففي ٢٦ آب ذهب أهل القيصر إلى شليسبل بورغ لإشهار يوم القلعة.

وفي ٩ تشرين الأول عمل مينتيشيكوف ليلة رقص، وفي ١٠ عمل مثله الجنرال ابـراكسين، وفي ١١ عمـل مثله الأمير تشاركايسكي، ثم عمل قومٌ آخر في الأيام التابعة، وفي الآخر عمل مينتشيكوف ليلة رقص ثانية، ودام الرقص إلى الصبح، ومن ١٧ إلى ٢٣ صمم القيصر على رؤية كيكسهولهم، ولم تلهه هذه الحظوظ عن أفكاره، ولم تغيره الأفراح عن السعي إلى بلوغ أوطاره، وبعد أسبوع من رجوعه في ٣١ تشـرين الأول أشهـر عقد الزواج بغاية الفخر والطنطنة، وتفصيل ذلك طويل الشرح، وأمر بإعداد اللوازم المعتبرة، وهذا مع أنه كان يميل للتقشف والبساطة. وبنى بطرس في هذه السنة ١٧١٠م، في محل يسمى فيكتوري (يعني النصر) دير اسكندرنيفسكي، وهذا الدير كبير جداً، وهو في آخر الشارع المسمى نيفسكي بروسيكت.

١١٠/وفي عيد اسم الاسكنـدر كل الناس تذهب لزيارة ذلك الدير أفواجاً، وزيادة على القصـور والأبنية في المـدينة، أحدث القيصر قصوراً خارجها، فأوّل ذلك قصر كتيرينغوف باسم القيصرة وأهداه لها، وهناك آثار لبطرس وكتب وساعة، وغير ذلك. كل ذلك محفوظ إبقاءً لأثر هذا الرجل الفريد، وكاتيرنيغوف الآن من أحسن المنتزهات فيه قصور عديدة، وفيه جنينة كبيرة، تذهب الناس إليها للتفسح خصوصاً يوم الأحد، وفي أوّل أيار وخامس عشرة تذهب العائلة القيصرية كل سنة، والأول يوم مشهـود، كثير الـزحـام الفرح، لأن ذلك أوّل اخضرار الأرض وإشراق النبات، ثم يعمل الرخام بعد ذلك:

كالـبـدر لا يُرتـاد وهـو منـوّر وتـرومـه الأبـصـار وهـو هلال

ثم بنى في هذه السنة أيضاً في المدينة بيت للبوصطة لتقدر الواصلون أن تنزل فيه، ولا يضيعـون الزمن في تفتيش منزل، وكذلك رتب معاملاً للآجر قريبة من المـدينـة بحسب الإمكـان لغلو الآجـر بسبب بعد المسافة، ولافتراس الحريقة المتتـابعـة بيوت الخشب. وفي سنة ١٧١٢م، نزل من المنجرة بموكب عظيم،

الغليون الكبير المسمى بولتافا الذي ابتدىء فيه الشغل سنة ١٧٠٧م، ولا زال في كل سنة ينشىء وينزل سفناً عظيمة بمدافع جسيمة، خصوصاً في أيام أعياده وأعياد أهـل بيته، وقد رأيت إنزال سفينتين من منجرة بتر بورغ إحداهما باسم الإسكندر ولي العهد، والثانية باسم زوجته مارية، واجتمع الجم الغفير، ولكن ما أنزلوهما إلاّ عند حضور القيصر والعائلة الامبراطورية، وذلك سنة تزوج ولي العهد، ولا تعب ولا علاج في إنزالهما بل أزلقوهما مع قطع الخشب التي تسندهما تحت، فلما عامتا ذهبت هذه القـطع وعامت، وعند النزول ضربوا الموسيقى، ثم أطلقوا المدافع، وهاتان ١١١/ السفينتان كبيرتان، ومن مدة سنتين الشغل فيها.

وفي سنة ١٧١٣م حاصر القيصر بطرس هلزن فورس ثم رجع إلى بتر بورغ. قلت: هلزن فورس دخلت في حكم الروس في أيام القيصر اسكندر، والآن تذهب إليها السياحون في الصيف لطيب هوائها وللاستحمام فيها، وقد ذهبت إليها صيفاً، ورأيت في مينـائها قلعة عظيمة في الصخر مشحونة بالمدافع، وأمامها صخور، وبينهما البحر، فمدخل الميناء مشابه لبوغاز الاستانة المحروسة، وأي مركب تقدر لا على العبور إذا لم يكن لها إذن، وهناك بارجة كبيرة مشحونة بالمدافع، وحين تمر السفن عليها تقد لإعطاء أوراقها، فما أحصن هذه المينا، ومرأى البلد لطيف، وهي جديدة العمارة على كيفية بتر بورغ في البناء، وتوسيع الطرق، إلاّ أن الممشى بهـا قليل، ولعله يصنـع بعد مدة، وفيها رصد على الصخر، وفيها مدرسة كبيرة عمـومية تسمى الأونيفـر ستيت، فيهـا مقعـد كبير فيه طاولات التلامذة موضوعة بالتدريج أعلى فأعلى، وفي صدره صور اسكندر الأول وعمود مكتوب فيه اسمه وتاريخ تأسيسه. هذه المدرسة سنة ١٨١٥م، وجميع ما في هذه المدرسة كان في مدرسة أبوه، فلما حرقت سنة ١٨١٨م، نقل كل ذلك إليها، وذهبت في البحر لرؤية قلعتها العظيمة المسماة، سينوى بورغ، ورأيت المدافع المرصوصة من كل جهة ثلاثة أدوار، وهي من أحصن القلاع، يقال إنها تشبه قلعة جبل طارق، وبهذه القلعة صهريج كبير لحفظ الماء العذب المتجمع في الأمطار، وحوله غدران من الأمطار،

وهناك منجرة ومحل للأسلحة كالسيوف والبنادق، وفي ميدان هلزن فورس عامود رفع تذكاراً لزيارة القيصرة اسكندرة هذه المدينة، وعليه مكتوب اسمها، وكذلك تاريخ زيارتها ٢٩ تموز ١٨٣٣م، فانظر لحفظهم آثار ملوكهم وتنويههم بشأنهم.

١١٢/وفي هذه السنة أمر بطرس أن كل البضائع البحرية لا ترسل إلى أرخانكيل كالسابق بل إلى بتر بورغ، وفيها زين كنيسة التثليث بناقوس كبير أخذته الدننما من مدينة أبو، وكذلك عدة كتب أخذت منها، وجعلت أساس خزانة كتب اكديميا العلوم، وفيها ظهر أول كتاب طبع في بتر بورغ، وهو كتاب إغارة عسكر الروس على السويد، وأخذهم منهم عدة حصون وقلاع وبلاد.

وفي هذه السنة في اليوم الذي يشهر لفتح بولتافا وصل الجي الفرس، وجلب معه هدايا للقيصر من جملتها؛ سباع وأنمار وفيل عظيم وهولندرية عجّب الناس، ولما مرّ على استراخان تبعه الناس بعض أميال من فرط التعجب، وكان للفيل كل يوم من الرز والزبيب والخمر ونحو ذلك ١٥ رُبلاً، لكن برودة الهواء ورطوبته في بتر بورغ خصوصاً في ذلك الوقت قتلت هذا الحيوان العجيب، ولكن حشي بالصناعة وعمل بقراً وحفظ إلى الآن، وكان قائد الفيل في العادة يقوده في الأعياد محلى ومغطى بالنفاسة عند الأعيان، ويصل له من ذلك مدخول عظيم. قلت: والآن في تسارسكيا سلو فيل من مدة سنين تذهب الناس للتفرج عليه، وسفير بُخارى الذي وصل سنة ١٨٤٩م حمل معه أيضاً فيله، لكن ما وصل إلاّ في الصيف بعد موته هو في بتر بورغ، لكن ما دفن فيها بل حمله أصحابه والأمراء والأعيان سلكوا مسلك القيصر، والناس على دين ملوكهم، فبنى الأمير غاغارين حاكم سيبيري بيتاً عظيماً وبقربه بنى الأمير شانيروف وزوتوف وغيرهم، وأمر القيصر بعمل طريق مستقيم في خلال الغاب من الترسانة إلى دير مار اسكندر نيفسكي، وهذه الطريقة الطويلة العريضة سميت نيفسكي بروسبك، قلت: هذا لنيفسكي أحسن شارع في بتر بورغ.

١١٣/ولو كنت سحت الدنيا لأمكن أن أقول في الدنيا أوّلاً الطريق واسعة طولاً وعرضاً ووسطها مبلط بالحجارة وفي وسطها بلاليع لشرب ماء المطر، وما هول الحجارة من الطرفين مبلط بقطع الخشب المرصوصة بحسن الترصيف وعليها تمر العربات مسرعة كالطير لسهولتها. وحول الخشب المماشي العريضة المبلطة بالحجر الصوان لمشي الناس، وفي هذا الشارع المخازن اللطيفة والتحفجية والحلوجية والقهوجية والخياطون، لكن لا تظن أن ذلك كما في بلادنا، بل كل ذلك في غاية الإتقان والإحكام والفخر، وعادة الكبار التفسح في نيفسكي قبل الغداء خريفاً وشتاءً، فهو ملتقى الأحباب ومجمع الأصحاب، ومأوى الحسان ومرتع الغزلان، وفي وسطه خزانة الكتب القيصرية المحتوية على الكتب من كل جنس حتى من كتبنا، وفيها جملة مِن كتب موقوفة أخذت في حرب أردبيل، وقد نظرت هذه البنية العظيمة، وحسن وضعها وترتيب محال الكتب، ويجوز لكل من يريد المطالعة فيها أو الكتابة منها الذهاب إلى هذه الخزانة، إلّا أنه لا يباح نقل الكتب إلى محل آخر إلّا بإذن خاص.

وكم رأيت هناك زيادة على الأوروبيين من فرس وروم وترك يجيئون لنقل بعض الكتب أو قراءتها.

وفيه أيضاً التياتر الاسكندري وأمامه فسحة ظريفة وحديقة لطيفة، وفيه أيضاً السوق الكبير غوستولي دفور، وهو بنية عظيمة، مربع الشكل، يباع فيه كل شيء.

وفيه أيضاً بنية عظيمة أحدثت منذ سنتين وسقفها منير، وفي وسطها معبر لجميع الناس محتوية على مخازن عالية، فلذلك تسمى الباج يعني المعبر، وبالجملة ففيه ما فيه مما لا أقدر أن أفيه.

ثم عمل القيصر فبريق شمع من ناحية فيبورغ وسوقا في جزيرة بتر بورغ، وأراد أن السفن المتجرية ترسي عند السوق، ووصلت مركب تجارة من هولاند ١١٤/في الصيف، وهي ثاني مركب وصلت بعد تأسيس المدينة وسيرها القيصر بنفسه مثل

الملاح إلى الجزيرة ، وضرب صفيحة عليها نقش صورته لتذكار فاتحة التجارة الخارجية .

وفي سنة ١٧١٤م ذهب القيصر إلى ريفال لتأسيس المينا ، وأخذت بيارق ومدافع من قلاع السويد وجلبت إلى بتر بورغ ، ونقلت المحاكم من موسقو إليها ، وأمر القيصر بإحصاء بيوت بتر بورغ ، فوجدت ٣٤٥٥ ، ووفد عليه سفير حاجي محمد بهادر خان أزبك ، ثم سافر القيصر إلى كرونشتاد ، وأُطلقت المدافع في القلعة ، وتبعه ٣٠٠ سفينة ، وكرونشتاد مرسى السفن الكبيرة ومقام الدننما الروسية وميناها حصينة جداً ، بحيث لا يمكن بها لسفينة العبور إلّا بالإذن ، وكم فيها من سفن وبوارج بعضها من أربعة أدوار كبار راسية كالجبال بمائة وعشرين مدفعاً وأكثر ، وهناك مدافع مرصوصة ، وقد دخلت المدينة من البوغاز بعد أن جازوا الجواز ، فوجدت أبنيتها كأبنية بتر بورغ إلّا أنها مثل ضواحيها ، وبها كثير من بيوت النظام والبحرية ، وبها ترسخانة أمامها فسحة كبيرة في وسطها صورة بطرس الكبير فاتح البلدان واقفاً على عمود وبيده سيف ، وهذه الصورة مصنوعة في سنة ١٨٤١م ، وهي محتشمة جداً وبها جنينة كبيرة تسمى «جنينة الصيف» لطيفة المنظر ، فيها كشكات لطيفة ، وفيها منظر عال ، أمامه عمود أخضر عليه صورة رأس بطرس الكبير بتاريخ ١٧٠٣م ، وصعدت هذا المنظر ، فرأيت منه البحر والسفن ، وكان بطرس ينظر من هذا المنظر السفن الواردة .

وفي الجنينة فسقيتان كبيرتان مربعتان ، في وسط كل زورق صغير جداً في غاية الظرافة بصاري لطيف ، وهناك خليج مرصف لتعمير السفن تنزل فيه السفن المراد تعميرها ثم يوضع حاجزان من الطرفين ثم يخرج ١١٥ / الماء بالتو تعمر المركب ، وحين تتم العمارة يرسل الماء وتطلق السفينة تجرى إلى البحر . وفي اليوم التالي سافرت السفراء ومن جملتهم سفير الخان وأعضاء المحكمة في سفينة ، فأما القيصر فوصل بلا عائق ، وكذلك السفن التي تبعته ، وأما سفينة السفراء وأعضاء

المحكمـة فمكثت ثلاثة أيام بلياليها بسبب شدة الريح الشرقي وغشومية الرئيس والمستعمل، ولبَخَت في الخوص وتعوّرت، وفي اليوم الثالث تضاعفت الصاعقة وأنـذرت بالهـلاك. وفي اليوم الـرابع خلصت من الخوص بواسطة سفينة أخرى أرسلهـا القيصـر لإعانتها، ووصلت إلى كرونشتاد، ومن العجائب أنها ما غرقت بالكلية، وبهذا الغرق مات بعض الناس، ومنهم الجي الخان الذي وجد نفسه أول مرة في البحر، وبعد الجزع والفزع والهلع، قَنِط وتغطّى ورَقَد على المطوبة (أي سطح المركب ينتظر الموت)، وأمر الملا الذي معه أن يدعو الله، وأن يقرأ عليه آيات من القرآن.

وفيها أمَرَ القليصر الحريص على زيادة عدد أهالي مدينته وتحسينها بأن يأتي إليها من موسقو وغيرها ٣٥٠ عائلة من الأعيان، كل يملك أوّلاً مائة نفس يبنوا لهم بيوتـاً في المحـال التي تعـطيهـا لهم المملكة، وأمَر الأغنياء والملتزمين والتجار ونحوهم ببناء ٣٠٠ أخرى، وهذا الأمر ما أعجب كثيراً من المأمورين خصوصاً البيار (يعني المتلزمين الذي اضطروا إلى ترك مسوقو وطنهم العزيز وسكنى بلد جديدة بالكلية ليست مخصبة)، كما قالوا إلاّ بالدموع والمنتقعات، وقولهم هذا أذكرني قولي سابقاً:

أمـــر على ربـــعـــهـــم ساحـــلاً	فأرجـع من دمـع عيني خصيبا
فوا عجبــاً لبحـــار الـــدمـــوع	ومـــا أطفـأت من فؤادي لهيبـا

لكن بطرس لـم يتفكـر إلاّ في عاقبـة وطنـه السعيد، واستبدل الراحة الجزئية براحـة العموم، وما فكّر في راحة نفسه، بل خاطر بها دائماً في المعارك، فذهب وحـارب وأسـرَ قبـطان السـويد إبرنسشليد مجروحاً بعد ساعتين من حروب خطرة سَفاكّة، وسطوات فتّاكة، وقتل من ٩٤٠ من السويد ٣٥٢، وأسرَ الباقون. وقتل من الـروس ١٢٤ وجـرح ٣٤٢، وأخذ هانكوت وجزائر الأند، ودخلت الروس أبو بلا عائق، وكتب القيصـر إلى مينتيشيكوف يخبره بذلك الفتح، ويقول حقيقة إن في

هذه الحرب كما في حرب المعاقدين ضد فرانسا حبس جم غفير من جنرالات وفيلد مارشالات، لكن ما أصيب بهذه القارعة ولا رئيس دننما، فنخبرك بنصر مبين ما كان له نظير إلى الوقت، وأخذ عدة أماكن في هذه السنة من الفينلاند، منها مدينة قازا وقلعة نيسلوت، وبتملكها تمت إطاعة الفينلاند، ثم رجع إلى مدينته ظافراً، ودخل بموكب عظيم بعدما عاقه الريح ثلاثة أيام عند كترنيغوف، فلو كانت سفن البخار في زمنه ما كان انتظر ساعة، وكانت دبّرت عليه الأوقات، فما كان يفعل إذ ذاك، وبسبب هذا الظفر انتقل القيصر من رتبة الرئيس إلى رتبة نائب قبطان، وهنىء بذلك، وحصل له السرور بالظفر والاستحقاق الذاتي، فذهب إلى وسيلي أو ستروف في قصر إشراقة مينتيشيكوف للضيافة العظيمة التي عملها، وكان من جملة الحاضرين قبطان السويد إبرانسشليد، فقال القيصر للحاضرين مشيراً إلى القبطان، أنتم تنظرون بين أيديكم شجاعاً خادماً أميناً لملكه مستحقاً ليس فقط لإكرام شارل، لكن أيضاً لإكرامي، ومع أنه قتل من رعيتي كثيراً من الشجعان، لكن ما فعل في ذلك إلاّ الواجب عليه، ويقدر أن يتحقق رعايتي له لا تنقص أبداً، فعند ذلك قام القبطان ورق قلبه، وبعدما شكر القيصر وعمل له التمني أجاب، وقال: أنا ما فعلت إلاّ ما اقتضاه الواجب، وإن لم ١١٧/أُلاقِ الموت الذي طلبته في معارك الحرب فمما يسلبني الفكر بأن غالبي ضابط بحري متميز هكذا مثل أبهة القيصر، وإنني سعدت بالتماس أمانه وعفوه وإقرار بطرس الصادق للخصم، ضاعف مقامه في اعتبار الناس:

وما عبّر الإنسان عن فضل نفسه   بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

ويناسب أن يذكر هنا خطبة بطرس التي قالها بعد ذلك الظفر بمدة قليلة لما أنها تجلب العناية، وذلك يوم إنزال الغليون المسمى شليسبل بورغ من الترسانة ٢٨ تشرين أول، وهذا الغليون ابتدأته اليد التي تعرف القيادة بغاية الإصابة العقلية، وقادوم الشنان، تاج ملوك الدنيا، قال للسامعين: يا إخوتي، من كان يقدر

منكم من مدة عشرين سنة أن يتصور أن هناك على ساحل بحر بلطيق أن تغلب أعداءنا في دننما بنيناها بأيدينا وأن نسكن في هذه الأمكنة التي كسبناها باجتهادنا وشجاعتنا، هل كنتم تظنون في قليل من الزمن، تشاهدون جمّاً غفيراً من العسكر والنواتية شجعاناً مجربين من طينة الروس، ومدينة مسكونة ليس فقط بالأهالي المولودة في الروسيا بل بالمحترفين وبالأسطاوات والتجار والعلماء والغرباء الذين جاؤوا وتوطنوا بيننا، هل كنتم تظنون أن نعلم إلى هذا الحد أن نكسب تعظيم الأمم المنوّرة. المؤرخون نسبوا إلى الروم الشرف بأنهم كانوا مهد العلوم، لكن لما أجلاهم القضاء من بلادهم التجأوا إلى إيطاليا، ومنها انتشروا في كل الأوروبا، ودخلوا اللين وما وصلوا إلينا قط، بسبب جهل آبائنا، فبالنتيجة بقينا غارقين في ظلمة الجهل الذي كان غرق فيه، الغرماينا (Germanya) واللين قبل ظهور العلوم فيهم، وبواسطة اعتناءات الملوك العقلاء لهذين القطرين ما عوقوا في التمدن وتصدوا بنفسهم إلى نشر ١١٨/هذه العلوم التي الفضل فيها للروم بسبب القدم، وفي الآخر جاءت نوبتنا، والتمدن في هذا الوقت، وما بعد لا يجد عائقاً في وطننا بشرط أن تعاونوا مقاصدي بالخلوص والقبول وأن تقرنوا الاجتهاد والصبر بالطاعة والإذعان، وأنا أشبه تزايد العلوم بسريان الدم في جسم الإنسان، وأرجو أنها تمكث عندنا، وأنها تتقوى لتعود في الآخر بلاد الروم وطنها القديم، والكاشف أن الروس يخجلون الأمم المتمدنة يوماً، ويمكن في أيام حياتنا بتقدمهم في العلوم وحميتهم التي لا تنطفىء التي بواسطتها يستمرون على أشغالهم الشريفة ويرسمون اسمهم على قمة المجد المنيعة.

وهذه الخطبة التي أوحتها نفسه الكريمة الكبيرة سمعت بغاية الإنصات الديني وسببت حمية عمومية بين الحاضرين، ومن كان منهم يعترض على الملك لم يقدر أن ينكر حقيقة كلامه وعظم مقاصده ونفعها.

وفي ٢٤ تشرين الثاني من هذه السنة يوم عيد القيصرة، أحدث القيصر تشريفاً للقيصرة نشان كترين شكراً لها على أفعالها الجميلة للقيصر وللمملكة، وذلك أنها

أنفقت لسلامة القيصر والعسكر الروس كل ما كانت تملك من الجواهر، وأنها استمالت الصدر الأعظم حتى أذن للروس بمجاوزة حدودهم، ولهذا سمي ذلك النشان «نشان التخليص»، ومن حيث إن هذا النشان على اسمها، كانت أول من تقلد بحمالته، ثم بعدها شاه زادة حنا بتروفنا بنت القيصر لإشهار تزوجها، ثم تنقل القيصر إلى رتبة صاري عسكر، ثم قرت عينه برؤية رهائن الروس من اسلامبول.

وفي هذه السنة كتب فرماناً ٦ تشرين أول بعقاب النفي، وأخذ الأموال للخزنة لكل شخص بنى في غير بتر بورغ ١١٩/إلى وقت معين بيوت حجر، وهذا الفرمان ألجأ إليه حب القيصر لزيادة بلده المنشأة، وفي ٢٤ تشرين أول فرماناً آخر فيه أن كل سفينة تأتي إلى بتر بورغ لا بد أن تحمل معها بعضاً من الحجارة، بعضها ثلاثين وبعضها عشرين، وبعضها عشرة بحسب كبرها وصغرها، وكل عربة بضاعة أو أمتعة تحمل ثلاثة أحجار، والحجارة الآتية في المراكب لا بد أن تزن أقلاً عشرة أرطال، والآتية في العربات لا بد أن تزن خمسة، ومن خالف الفرمانات فعليه الغرامة عشرة كبيكات لكل حجر.

وفي ٦ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أنه لا أحد يسكن عنده شخصاً إلاّ بضمان أو أوراق الشهادة، وهذا سبب كثرة اللصوص والمعاكسين الذين عاثوا في المدينة.

وفي ٩ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أن يرسل من الأخطاط سبعة وثلاثين رجلاً من أهل الخبرة المجربين لأجل الجمرك وتفتيش المراكب، وبنى زيادة على الكنائس والبيوت التي أحدثت هذه السنة بيت لكونسلارية المملكة في غاية الترتيب ، وحسب من جملة المستخدمين فيها تراجمة لستة عشر لساناً وهي الروسي والليهي واللاطيني والنيمساوي والفرنساوي والإنكليزي والهولاندي والدانيمارقي والإيطالياني والاسبانيولي والرومي والتركي والتاتاري والصيني والمنغولي والقلموقي.

وفي سنة ١٧١٥م اعتنى القيصر بتحسين المدينة واستعجال الأشغال الدائرة في عشرين موضعاً، وكان يلاحظها كلها بنفسه، فكان يروح من كرونسلوت إلى بترغوف ومن هناك إلى كراسني سلو. الخ.

وفي أول هذه السنة أشهر عرس الأمير توزوف وكان عمره ٨٤ سنة وتزوج بعازبة عمرها ٣٤ سنة، وعمل رقص مسخرات، وأمور مضحكة مناسبة لذلك الوقت، وحضرت القيصرة وأتباعها والعائلة الملكية ونساء القصر في كسم غريب، وعقد قسيس عمره ٩٠ سنة، وقدم الخمر اختيارية لا يمشون إلاّ بغاية الصبر، وقصد القيصر من ذلك فكهة سكان مدينته بمناظر عجيبة بين الأشغال الشاقة. وفيها أرسل القيصر سفيراً إلى بلاد الفرس لعقد التجارة، وفيها طلب قيصر الصين من الأمير غاغارين حاكم سيبيريا حكيماً، ومعه كل العقاقير والأشياء اللازمة لصناعته، وغاغارين لما استعجل بإخبار القيصر، اغتنم القيصر هذه الفرصة لعقد المحبة، وأرسل له طبيباً إنكليزياً كان في عسكره وأصحبه بمهندس.

وفيها ١٢ آب، وُلد للقيصر حفيد وسمي على اسمه بطرس، وأشهر فرح الولادة أسبوعاً، وأرسل القيصر إعلامات بذلك للغائبين عن المدينة، فكتب إلى شيريميتوف: «أخبرك أن الله أعطاني هذه الليلة عسكرياً شاباً اسمه كاسمي، وأترجاك أن تخبر بهذا الخبر الجنرالات والضباط، ومن طرفي إلى كبار الناس وصغارهم»، وكتب مثل هذا إلى فون هوفت، غير أنه قال: نواتياً شاباً وزاد، ولما كتب إلى صولتيكوف: أرجو الله أن أراه يوماً تحت البندقية.

وفيها أُسست أكديميا الملاحة وتلك قوتها ٣٠٠ من الأعيان، ومع أن القيصر سافر سفرتين لرؤية البلاد الغربية فنَفَسه حاضر، فلم تنقص الأشغال، وسفره ما كان إلاّ لنفع وطنه، فإنه لما رأى نظام البلاد وبدائعها وحسن التمدن فيها، وتقدم العلوم ومنافعها أحب أن يقلد ذلك في وطنه ورعيته كما تراه في أخباره.

ومن جملة ما أسس من جديد قاعة التاريخ الطبيعي المزينة بجملة عظيمة من

الحيوانات والطيور والأسماك والحيوانات التي تعيش في البر والبحر والحشرات، وغير ذلـك من أشياء الصنـاعة، اشترى القيصر البعض من الأجزاء؛ شيئاً بقيمة ١٥,٠٠٠ مجر، والبعض اكتسب من هولاند سنة ١٦٩٧م، وبقي في موسقو. وفي هذه السنة ١٧١٦م، كل هذه الأشياء جمعت في بيت كيكين، وضم إليها جملة من الأحجـار المعـدنية، ومن الـودع ١٢١/اشتريت من العالم غوتفالد، وكتب عظيمة جلبها مينتيشيكوف من كورلاند سنة ١٧١٤م، وبعد سنة ضم أيضاً جملة كثيرة من هذا النوع كانت عند روش معلم القيصر التشريح، وبعد موته اشتراها القيصر من ورثته، ثم نقل ذلك إلى وسيلي أوستروف في المحل المسمى «كونست كامير» الموجودة فيه إلى الآن والمزدادة كل أوان، وهذا المحل قصر كبير محتوٍ على عدة أوضات واسعة توجد فيها كل أصناف الحيوانات والطيور والعصافير والحشرات والأسمـاك والمعادن والودع والملابس وغير ذلك، وفي كل سنة في الربيع تفتح لتفرج العامة فتذهب الناس أفواجاً لرؤية هذه العجائب ومشاهدة هذه الغرائب.

وفي سنـة ١٧١٧م، حفـر أربعـة خلجان، ورجع فيها القيصر من فرانسا، وعرض عليه السويد إرسال وزراء مختارة من الروس والسويد في جزيرة الأند، لعقد الصلح الدائم بين الدولتين، فأرسل القيصر بالسرعة الكونت بروس. وفيها بنيت بالحجر كنيسة إسحاق التي كانت من خشب، وعمل لها قبة طولها اثنا عشر سجيناً، وناقوساً أحضر لأجله القيصر من أمستردام ساعة كبيرة دقاقة بقيمة ٣٥,٠٠٠ ربل خربتها الصاعقة سنة ١٧٣٠م.

وفيها أُهديت للقيصر كرة سماوية كبيرة جداً بحيث تكلفت مبلغاً جسيماً في نقلها براً من كيل إلى بتر بورغ أهداها له دوقة شليشبل هولستين لما عرف شغفه بالعلوم، وفيها ابتدىء في بيت لعب التياتر بمعونة شاه زادة نتاليا الكيسيفيا.

وفي سنة ١٧٨٠م قضية ابن القيصر شاه زادة الكسي القاضية، وذلك أن سلوكه المنحل ومعاندته لأبيه وعدم استحسانه لأفعاله، وهربه خارج الروسيا، كل ذلك

أغضب القيصر حتى هدد بحرمانه من إرث التخت، لكن لم يفعل ذلك الأمر بسبب أنه كان ابنه المتوحد، لكن لما ولد بطرس الثاني وَلَد الكسي أراد القيصر أن يفرغ وسعه في تذليل الجموح، وكان ذلك بلا طائل:

إذا أظهـر الـدهـر شخصاً لبيباً فكـن في ابـنـه سيّءَ الاعـتقـاد
فلسـت ترى من نجيبٍ نجيبـاً وهـل تلد الـنـار غير الـرمـاد

ثم لما لم تنجح الوسائط اضطر إلى تهديده بالموت كالباغي، لكنه لما سمع ذلك أخذه الفزع، وملك قلبه الهلع، ووقع في حالة الغرغرة، وبلغت الروح الحنجرة، ولم تنفع اجتهادات الأطباء، ولا تسلية الأحباء المحققين له عفو والده، ولا رقة بطرس عليه في هذه الحالة، كأنه نسي عيوبه وأفعاله:

وإذا المنية أنشبت أظفـارهـا ألـفـيت كل تميمـة لا تنفـع

وفيها أمر بإحداث ضابط سياسي للمدينة، وترتيب كونسلارية السياسة، وقواعدها منحصرة في ١٣ نوعاً:

١ ـ الأبنية بحسب الأصول المقررة قبل.
٢ ـ أحكام شواطىء الأنهار والخلجان وحفظها.
٣ ـ السرقة.
٤ ـ النظافة وتعيين الأماكن لبناء القوارب المعينة لتجارة الوقود.
٥ ـ النظر في صفة البضائع المعروضة للبيع وثمنها وذرعها ووزنها.
٦ ـ رعاية النظافة أمام البيوت المسكونة وسوق السمك وحفظ القناطر.
٧ ـ فصل الخصومات والمنازعات بالسرعة.
٨ ـ النظر في مداخن البيوت والأقمنة والمستوقدات.
٩ ـ النظر في البيوت المتهمة والألعاب المحرمة.
١٠ ـ إمساك المساجين والهربانين والبطالين.

١١ ـ إلزام كل السكان أن ينهوا إلى السياسة كل الأشخاص التي تصل أو تسكن عندهم.

١٢ ـ الاعتناء بإمساك المؤذين وإطفاء الحريقة ووضع حاجز في طرف كل حارة، وإبقائه طول الليل.

١٣/١٢٣ ـ الاعتناء بنصب مسدّات في المدينة وأون [1] باشوات لحفظ السكون والترتيب العام.

وزاد القيصر بخط يده على هذه الأنواع.

١٤ ـ إسكان النظام في بيوت الناس أيّاً كانوا كباراً أو صغاراً.

قلت: هذه الأمور كلها مراعاة الآن بغاية الإحكام وألف شيء آخر، فالأبنية في غاية الإتقان، يبنى البيت الكبير بأربع أدوار أو خمسة في أقل زمن، وشواطىء الأنهار والخلجان مرصفة أحسن الترصيف، ولهم في كشف السرقة تفتيش حصيف، ولا تنفع عندهم حيلة السارق الظريف، والنظافة مراعاة، ففي الخريف والصيف، بكنس الطرق وتوصيل ماء المطر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات، وتجديد قطع الخشب والأحجار بالرمل، وفي الشتاء والربيع بكنس الثلج وتنظيف المماشي منه، وربما توالى الثلج، فكلما سكن نظفوا وإذا جمد حكوه بالحديد، ثم رشوا عليه الرمل وكنسوه، فدائماً يمكن التفسح بسهولة، وأمّا طرق العربات التي في الوسط فلا تنظف إلّا في آخر الشتاء، وكذلك الأسطحة قبل أن تحلل شمس الربيع ذلك، فيكون البلل والوحل، وأما شمس الشتاء فلا تحلل الثلج بل الصحو والنشف غالباً عند شدة البرد، فكأنها تبرد كما قيل:

يوم تود الشمس من بردها ... أن أتت النار إلى قرصها

وكذلك القناطر في غاية المتانة والظرافة، وإذا حصل أدنى خلل أصلح في

---

(١) أون: عشرة، أون باشي: رئيس عشرة، الكلمة تركية.

الحـال، وأمّـا المـداخن، ففي كل أسبوع يأتي الهبابون لتنظيفها لما أنها مظن الحـريقة، وهناك محال يرصد منها الحريقة فحينئذٍ يولع فانوس لإعلام الناس، فيأتي المـطفئـون بالطرنبات وغيرها من آلات الإطفاء وأمرهم في ذلك عجيب، والفلقات والخفراء في كل حارة، ومن سكن في محل فلا بد من التعليم على تذكرة مروره. ولكل أحد تذكرة يغيرها في الغالب كل سنة، ويدفع شيئاً مخصوصاً، ولكل بيت بواب أو أكثر بحسب صغر البيوت وكبرها، ويمشي البواب أمام البيت في الليل بعصـا يخبـطهـا على الأرض، وفي البيوت الميرية زيادة على ذلـك حراس وديدبـانات، وللأقوات من طرف الضابط سعر مخصوص يكتب في الجنرنالات لتعرفة العامة، ومن طفف في الكيل أو الميزان فعليه الغرامة. والمجرمون يُقادون في السلاسل ويعاقبون على حسب جريمتهم، إلى غير ذلك من أنواع السياسة الدقيقة الباعثة على الراحة العامة، والسّادّة على المُؤذين كل طريق.

رجع وبعد ما رتب القيصر السياسة، شرع في الأمور المسلية للعامة والخاصة الذين يرتاحون إليها بعد التعب، وينسابون إليها من كل حدب، كي تنشطهم وتلين طباعهم وتفتق أذهانهم للحكمة، ثم بعد هذه الملهيات تفكر أنه بقي عليه أيضاً تقـريب الأعيان المفترقين بسبب الأوهام الموجودة، وذلك بأن يستميلهم للّذات اللطيفة التي ما عرفها الروس، بل ولا تصورتها قبله، وبأن يسهل التعلقات بين النوعين الذكور والإناث، وليس إلّا في أيام القيصر الكسي ميخايلوفيج أن النساء ابتدأت في تحلية الجمعيات، وأطلق لهن العنان قليلاً في الروسيا، لكن كل ذلك معارضاً بحجر الآباء والأزواج، فكُنَّ يعشن في الخَزْن بلا رجاء ولا حظ ولا مَيل بسبب حَجرهن في البيوت، فلم يبق لهن إلّا التأوه والملل والإطاعة الكاملة لأوامر الظالم البيتي التي هي في الغالب هوائية، والإرادات التي هي تارة عنادية، لم تغير شيئاً من معيشتهن بالسكون والهدف والصلاحي، حتى لو صدرت من الطاعن في السن الذي شابت ناصيته، فكان يكفي في ضياع صيت المرأة شابة من الأكابر أن تخاطب رجلاً، ولو بكلمة، وإن صدر هذا الذنب المدّعى من امرأة متزوجة حرمت

في الحال من رضى زوجها، فعلى هذا يمكن ١٢٥/أن تقيس ما يقال وما يظن فيمن تعطي يدها لأول واصل وتتحدث معه وتمشي معه متفسحة في حضرة جمعية عظيمة، وهذه الهيبة بين الجنسين التي لا تتحد مع أنوار العلوم والتمدن المبتدأ بين أكابر الجمعية بسقت، وانكشفت بالتدريج رغماً عن اجتهادات القيصر، وعاقت أيضاً تحصيل مقاصده لكنه عزم على اجتثاث هذا الوهم، ولأجل ذلك كتب ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧١٨م فرماناً لترتيب الجمعيات المجهولة إلى ذلك الوقت التي فيها يحضر الرجال والنساء، سواء وبيان ذلك كما كتب في الإعلام أن الجمعية تكون في بيت أياً كان بلا تضييق، فتأتي الناس ليس فقط من شان الحظ، بل من شان أشغالهم أيضاً، لأن كل واحد يجيء هناك يرى الأشخاص الذين يحتاج أن يكلمهم في الأشغال، ويتعلم منهم الأخبار الواقعة، فقصارى الأمر أن الناس تذهب هناك للتسلي وقبل استعمال هذه الجمعيات عمل القيصر قوانين لترتيبها، وها هي:

١ - إذا أراد شخص أن يعمل جمعية، لا بد أن يعلم الأشخاص الذين يجيئون رجالاً أو نساءً بالكتابة أو غيرها محل الجمعية وأن يجيئوا إن يريدوا.

٢ - الجمعية لا تبتدىء قبل أربع ساعات أو خمس بعد الظهر، ولا تمتد بعد الساعة عشرة.

٣ - صاحب البيت ليس مضطراً إلى ملاقاة المعزومين ولا توصيلهم ولا تحيتهم وموانستهم، بل بقدر أن يغيب بلا لوم في وقت الجمعية بشرط أن يهيىء ذلك الأوض بالسّفر والنور اللازمين والمشروبات التي يطلبونها، وأن يضع على سفر مخصوص ما يلعب به كالورق.

٤ - لا تعين الساعات بل الضيوف يقدرون أن يجيئوا في أي ساعة شاؤوا بشرط أن لا يكون قبل ٤ ولا بعد ١٠.

٥ ـ يمكن التفسح واللعب في الجمعية بلا مضايقة ولا إضرارٍ لآخر، ١٢٦/ويمنع من القيام عند ذهاب أيٍّ كان، ومن توصيله إلى الباب، أو فعل التكلف والرسم، وفاعل ذلك يعاقَب بالنسر الكبير، وذلك أنه يلزم أن يشرب كاساً كبيراً عليه نسر، ولا يقبل الاعتذار، فبمجرد الإثم يصب الآثم ويحتسي فقط. يلزم الاقتصار عند الدخول على توطئة الرأس قليلاً للسلام على الجماعة.

٦ ـ يعين كل أنواع الناس الذين يترددون في الجمعيات وهم كبراء العساكر والأعيان وأصحاب الخدم الشريفة كلهم مع زوجاتهم.

٧ ـ الخَدَمَة والقواسة لا يدخلون داخل الأوض، لكن يمكثون في المدخل أو في محل آخر يعينه لهم صاحب البيت، وهذه الشروط ملاحظة في المضايف ونحوها إن أعطي فيها رقص أو ضيافة.

٨ ـ الرقص في أوضة، وفي أخرى يُلعب الورق أو الضامة أو الشطرنج، وفي ثالثة يشرب الدخان والسيجار، وفيها سفرات عليها الخمر والكبريت. . . الخ. والقيصر كان يحب لعب الضامة، وكان ماهراً فيها بحيث يندر من يغلبه.

وأوّل الجمعيات كان عند ابراكسين، ثم عند الأمراء، ثم عند أهل الاعتبار. وفي يوم الجمعة يحضر رئيس السياسة يكتب أسامي الواصلين، ويجيء القيصر في الساعة ٦ مع القيصرة، وباقي العائلة الامبراطورية، ويفتح الرقص بالرقص الليهي ثم الإنجليزي، وضباط السويد كانوا متميزين في الرقص حتى إنهم زماناً طويلاً أعطوا دروس رقص لنساء الروس ورجالهم. وفي وسط أدوار الرقص تحضر الستات الشاي والقهوة وشراب العسل وغير ذلك، وبعد ذلك كانت العادة بإحضار الشوكولات وشراب الليمون، وذلك أن دوق هولستين فعل ذلك أوّلاً فاتبعه الناس، وهذا الدوق أوّل من أظهر لكبراء بتر بورغ حسن الموسيقى، وعنده نوبة أحضرها ١٢٧/من ويج، وما كان سمع إلى ذلك الوقت في الرقص إلاّ أصوات الطرنبيطة المصمتة والبوق ونحو ذلك، وكان ذلك حسناً يفقد الأحسن.

وفي الصيف كان القيصر يعطي الجمعيات في جنينة الصيف التي أنشأها على الذوق الهولاندي من عدة خطوط مستقيمة. وفيها حفر القيصر خليجاً بين النيفا وفولكوف دفعاً لخطر الغلّال ونحوها إذا أحضرت من طريق آخر.

وفيها أنشأ عدة مدارس منها مدرسة الأشغال المتعلقة بالبلاد الغريبة، ومنها مدرسة الحرب، وأحدث البوصطة على الخيل، وكرخانة الورق في دويدروف، وفبريقة بُسُط وأقمشة من الحرير والصوف والمقصب، ومعملاً للغزل فيه يشتغل ٨٠ امرأة فقراء وعجائز تحت نظارة امرأة من هولاند.

وهذا الغزل قوي ورفيع لا ينقص عن غزل هولاند، فأنت ترى كيف حوت المدينة في هذه السنة زيادة على الأمور النافعة اللازمة أصناف الفنون والحكم وأنواع التَرفّه والنعم.

سنة ١٧١٩م فيها أرسل القيصر رجلين عارفين، لكشف شبه الجزيرة «كامشاتا» التي تدفع الخراج للروسيا من سنة ١٧٠١م، ونعتها بالتفصيل، ولمعرفة هل آسيا ملتصقة بالأمريقا بلسان الأرض. وأرحَلَ آخر لمعرفة سواحل بحر كيلان بين استراخان واستراباد.

وفيها أمر في شهر آذار أن يكون أوّل نيسان كوميديا عجيبة، فأحطع الناس زرافات ووحداناً لرؤية اللعب، لكن بدل الكوميديا رأوا ألواح خشب مكتوب عليه بحروف كبيرة «هذا اليوم أوّل نيسان»، ففهموا وسروا بمباسطة القيصر لهم، كما يباسط الأب أولاده، وذلك أن العادة في هذه البلاد أن يلعبوا لعباً في شهر نيسان يسمى «سمك نيسان»، وذلك أن يخدع شخص آخر مثل يَدَسْى عندنا، وفي السنة السابقة فعل القيصر هذا اللعب بنوع آخر، وذلك أنه ذهب أوّل نيسان إلى بيت خشب قديم منفرد، وأمر ١٢٨/بإحراقه فسارع الناس والعساكر بآلات الإطفاء، فسره اجتهادهم وغيرتهم، وقال للجماعة مبتسماً منبسطاً: هذا أوّل نيسان، ثم وضع لهم براميل خمر وبوزة لإزالة فزعهم، واجتثاث هلعهم. وفيها غنموا من السويد

ثلاث سفن حربية، فشكر القيصر الله وصلى في كنيسة القلعة، ضربت صفيحة لتذكار هذا الفتح.

وفيها تحمل بناء تسارسكيا سلو وابتداؤها في سنة ١٧١٠م، ولم تزل تزداد بالسكان الآتية من النواحي ومن موسقو، ومن حيث إنها إقطاع القيصرة كترين عملت لها طريقاً عريضة، وبنيت فيها قصر بغير علم القيصر، وعندما تم عرضت عليه أن يذهب معها للتفسح، فلما رأى ذلك سُرَّ وانبسط، ومن ذلك الوقت صارت متنزهاً لسكان المدينة يذهبون إليها كل يوم، والآن زادت حسناً وجمالاً وبهجةً ودلالاً.

سنة ١٧٣٠م فيها غنم الروس من السويد ٤ فرقيطات، وأنعم القيصر أوّلاً على البشير بهذا الخبر برتبة قولونيل، وعلى الأمير غاليتسن الغالب بسيف وعصا مرصعة بالجواهر، وكتب له رسالة يشكره فيها، ورقّى رتبة معاونيه، وأعطى للضباط صفائح ذهب مضروبة لشرف هذه الواقعة، ولمن تحتهم صفائح فضة، وأشهر النصر بإطلاق المدافع، وبالصلاة في الكنائس شُكراً لله، وأمَرَ أن تدخل السفن المكسوبة بموكب عظيم إلى بتر بورغ، فدخلت وأطلقت المدافع لدخولها، وقيدت قرب كنيسة التثليث، ونصب هناك حرم من الخشب مزين وصور مختلفة لإشهار ذلك الفرح، وعملت في الليل حريقة أمام الكنيسة ووقدة في المدينة، وبقي الهرم مدة مملكة بطرس، وكان يسمى هرم الأربع الفرقيطات، ومع كبر المدينة يوماً فيوماً، وازدياد السكان وقتاً فوقتاً، وتكاثر الفتوح حيناً فحيناً، وتظافر العلوم والفنون آناً فآناً، فالمخالفة التي كانوا يحدثونها في كل وقت كانت عائقاً صعباً يتعب ١٢٩/القيصر في قطعه، وثعباناً لسّاعاً لا بد من ضربه قبل لسعه، فمن ذلك الأوهام وأراجيف العوام، كما وقع في هذه السنة ١٧٣٠م أن فلاحاً كان يدعي الكهانة، وقال: إن في شهر تشرين يكون طوفان يغرق المدينة والسكان، ويرتفع على الشجر الموجود في القلعة، فصدّقه كثير من العوام، وجم غفير من الطغام

والتجار إلى أعالي بتر بورغ، لكن القيصر قمع الفتنة، ولما عرف المذنب حبسه في القلعة، وفي اليوم الذي ادعى أن يكون فيه الطوفان عوقب بالشدة، وأوصى الناس أن لا يصدقوا مثل هذه الخرافات والأوهام.

قلت: في سنة ١٨٤٠م قال بعض القسس مثل هذه المقالة، وكذّب الله أقوالهم، ولله در أبي تمام حيث حضّ على عدم سماع هؤلاء الدجالين فقال:

السيف أصدق أنباءً مِن الكتُبِ … في حده الفصل بين الجَدِّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في … متونهن جلاء الشكِّ والرِّيَبِ

وقال آخر:

دع النجوم لطرقيٍ يعيش بها … وقم لوقتك وانهض أيها الملك
إن النبيّ وأصحاب النبي نَهوا … عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

وكما وقع أيضاً في سنة ١٧٣٠م أن قوماً أهل سوء خدعوا الناس، فلما دخلوا كنيسة التثليث، وجدوا الدموع تجري من صورة العذراء، فقالوا: هذا دليل غضب العذراء على المدينة، وهموا بالخروج، وكان القيصر غائباً ذلك اليوم، وما قدر الكونت كالوفكين أن يُسَكِّن الناس، وخاف وخامة عاقبة هذه الحادثة، فكتب للقيصر، فجاء في اليوم الثاني، فامتحن صورة العذراء وكشف الحيلة، وانكشف المذنب، وعوقب، وأُظهرت صورة العذراء فسكن الناس، وهذا كما وقع للمرحوم السلطان محمود خان ممدّن الترك في هذا الأوان، فإنه تعب كثيراً في قمع الأوهام حتى وضع قوانينه على طرف التمام، وبقيت بقايا نرجو أن تندفع ١٣٠/بهمة ولده مولانا السلطان خليفة الوقت والزمان.

سنة ١٧٣١م، فيها وصل خبر الصلح، ولذلك أرسل القيصر للأمير غاليتسن رئيس الدننما التي في فينلاند بترك الحرب في الوقت، وقطع العداوة والرجوع، وذلك الخبر جاء به أوبريسكوف في ذلك الصلح على أن أستونيا وليفونيا واينغرى،

وجـزءاً من فينـلانـد مع مدينة بتر بورغ للروسيا، ولما رجع إلى المدينة أُطلقت المدافع، ودقت الطرنبيطات، فظن الناس حصول واقعة غريبة، وسارع الكبار إلى فسحة كنيسة التثليث لرؤية القيصر، فأخبرهم بانقضاء الحرب وعقد الصلح. وبعد الصلاة صعد القيصر على منبر، وهو في لباس العرض متلقداً بحمالة مار أندريا، وسلم على الناس بالحشمة، وقال: «أسلم عليكم أيها النصارى الحقية، اشكروا الله القـادر الـذي أعـطانا وأعطى السويد صلحاً خالداً بعد حروب دامت إحدى وعشرين سنة»، ثم اغترف من برميل خمر وشرب على صحة الرعية، قائلاً: «أسلم عليكم يا أحبـابي الطيبين، أعاننا الله على تنفيذ مقاصدنا في الصلح لأجل نمو سعادة هذه المملكة، وتخفيف الأثقال التي حملناها من الحرب». ثم عرض أهل الحل والعقد على القيصر أن يقبل رتبة باش قبطان، فقبل ورقّى أوبريسكوف سفير الصلح إلى رتبـة الضـابط، ونشـر خبر الصلح في المدينة، ودارت العساكر في الحـارات متلفعين بشمـلات بيض، وفي أيديهم بيارق بيض مزينة بتيجان الغار الأخضر، وتبعهم الطرنبيطات.

وفي المـدينـة عدة أفراح وألعاب عامية، ثم في ٢٠ تشرين أول حكم أهل سنيات أن يترجى القيصر باسم كل الرعية، شكراً على سعيه الجميل أن يتلقب أب الـوطن وامبـراطور كل الروسيا وبطرس «الكبير» بسبب القوة والغنى وأنوار العلوم وتـوسيع الـرقعـة، التي كانت الروسيا بسببها ممنونة لاجتهاداته، وبسبب رحمته وشفقتـه ١٣١/واعتناءاته الأبوية وصلت رعيته باتباع أثره العظيم فقط إلى أعلى درجة من المجد بين العالم، فامتنع أوّلاً تواضعاً لكن الإلحاح القائم والالتماس الدائم ألجأه إلى القبول، وذلك أن الأسقف خطب في كنيسة التثليث خطبة في ذلك الغرض، أوّلاً مدح فيها بطرس وأفعاله، ثم دعا الناس إلى شكره والاعتراف له بما يليق بواجبِ حقه وحرمته، فقربت كبار القسس من القيصر وشكره الكونت كالـوفكين من طرف الرعية على إخراجه الناس من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمجـد العام، وعلى إخراجها من العدم ونظمها في سلك الأمم المتمدنة، ثم

ترجى الكونت بعد ذلك القيصر أن يقبل الألقاب المذكورة آنفاً، ثم قال: «نحن لا نقدم لك باسم رعيتك إلاّ ما تستحق الحياة، الحياة الحياة الحياة لبطرس الكبير، أب الوطن، إمبراطور كل الروسيا»، وبمجرد ما قال ذلك انطلقت أفواه الناس بذلك داخل الكنيسة وخارجها، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس وأُطلقت المدافع من القلعة والترسانة، فلما سكن الصدى رق القيصر بأعلى صوته:

«أتمنى أن كل رعيتي تعلم بالحقيقة ما فعل الله لنا مدة الحرب التي انقضت الآن وتبدلت بالصلح، نحن نلزم أن نوجه إلى الله شكراً صادراً من القلب، لكن مع اعتمادنا على الصلح لا يلزم أن نغفل صنعة الحرب، وألاّ تقاسي الروسيا ما قاست الروم، فالمناسب لنا أن نشتغل في النفع العمومي، ونحقق المنافع التي منّ الله بها علينا داخلاً وخارجاً، لنخفف بها أثقال العامة»، ثم صلوا وقرأوا الإنجيل، ثم أُطلقت المـدافـع أيضاً، ثم جثا كل الناس وقرأ المطران الدعاء، ولما خرج القيصـر من الكنيسة سلمت عليه كل الناس بأصوات متفقة «الحياة للامبراطور، الحياة لأبينـا»، ودقت الطرنبيطات ١٣٢/والطبول والنواقيس والمدافع، وهو في قلب رعيته، يزدحمون حوله لتقبيل يده بغاية المحبة وانفتاح القلب، إلى أن وصل سنيات، وهناك نصبت سفرة لألف شخص، وبعد الوليمة المفتخرة كان التياتر، ثم الرقص في القصر، وعمل إنعام عام للعامة بإطلاق أهل اللومان والمحبوسين لغير قتل أو كفر، أو قطع طريق، ورفعت البواقي من سنة ١٧٠٠م إلى سنة ١٧١٨م التي كانت ملايين، وكـذلـك غرامـات في كل مملكة الروسيا، وعملت للعامة وليمة مخصوصة، مركبة من ثور قمين ومزين، ومغروز فيه كثير من الطيور، وفي كل جنب عين واحدة، ينبع الخمر الأبيض منها، ومن الأخرى الخمر الأحمر، ثم بعد الرقص عملت الحريقة، ورتبها القيصر بنفسه، فأظهر أشياء عجيبة منها معبد بانوس وأبوابه مفتوحة ومنورة بعدة ٢٠,٠٠٠ نور مختلفة الألوان، وفارسان أحدهما يحمل على مجنه سلاح الروس، والآخر سلاح السويد تقاربا قليلاً من أبواب المعبد وتصافحا علامة الصلح.

وفي ذلك الوقت دقت الطرنبيطات، وأطلق ألف مدفع، وزادت الحريقة جداً، حتى كانت أسوار بتر بورغ والنيفا من اللهب، وعلى يمين المعبد ترس عليه تمثال الحق يفعص برجله جنية، وعليه مكتوب «الحق دائماً يغلب»، وعلى الشمال سفينة تاركة بحراً عجاجاً لأجل أن تدخل في المينا، وفوقها مكتوب «إنما الأعمال بخواتيمها»، ودامت الحريقة إلى ما بعد نصف الليل، ورجع القيصر إلى سنيات، وهنأ الجماعة شاربين الخمر، وامتد الرقص إلى الساعة الثالثة، ودقت صفائح من الذهب والفضة وجوزي كل مَنْ حارب السويد من الضباط والعسكر كلٌّ على حسب حاله، وأنعم القيصر على قبطان السويد ايرنسشليدا المذكور سابقاً بإعطائه صورته المرصعة بالماس، وأكرمه بتلقيه للوداع، وكتب معه كتاب وصية لملك السويد ١٣٣/على هذا النمط الواجب علينا أن نشهد له شهادة عادلة مخلصة أنه في الأشغال التي كان فيها أسيراً أبلى بلاءً حسناً، وأظهر الشجاعة التي لا تنتظر من أحد، وبالحقيقة استحق تعظيمنا، ومثل هذا المدح لا يكون بلا نتيجة، فلما وصل القبطان إلى وطنه بالكتاب رقّاه الملك إلى رتبة قبطان باشا، ثم لما أراد القيصر أن يشركه في الحظ والفرح أهل موسقو سافر في الجرار، يعني عربة الزحلقة مع عياله ومع عرضيين من الخفر لإشهار ذلك الفرح فيها أيضاً، ولا تظن أن كل ذلك يعوق عن زيادة الأبنية والعمارات في هذه السنة التي من جملتها معمل لتكرير السكر واصطبل كبير من الحجر للخيول القيصرية، ومحال للعربات الامبراطورية، وتكبير قصر الشتاء، وتأسيس أوّل مدرسة القسس إلى غير ذلك، وقد فاض النيفا في هذه السنة، و ١٠ كانون الأول وبلغ ٧ أقدام، و ٤ أصابع، وفاض الماء في الحارات وقطع العبور ومات بعض الناس، لكن ما هذا بأدهى وأمر من فيضان سنة ١٨٢٤م، فلنكتف عن تفصيل هذا بتفصيل ذلك، والحدث الأصغر يندرج في الحدث الأكبر.

سنة ١٧٢٢م فيها قضى القيصر جزءاً من السنة في أشغال حرب الفرس، وبنى أماكن خارج المدينة عن أوخته وحارة بكنيسة النجارين الذين يبنون المراكب.

سنة ١٧٢٣م فيها، وصل أميرا هيس هومبورغ أخوان، البكري عمره ١٧ سنة، والثاني عمره ١٦ سنة، وسألا الدخول في خدمة الروسيا، وقُبلا، وأُعطي لكل رتبة قبطان وجامكية ستة آلاف ربل في السنة.

وفيها ٢٦ آذار انسَرَّ أهل المدينة بفرح أُعلن أكثر من سائر الأفراح، وزاد به للسكان البسط والانشراح، وذلك أنه كان للقيصر الكسسي ميخايلوفيج زورقاً، وفي سنة ١٦٩١م رآه بطرس وهو شاب في قرية ازمايلوف، قرب موسقو، فولد ذلك في فكره عمل دننما في الروسيا، وبناء هذا القارب المخالف لبناء القوارب المستعملة إذ ذاك في الأنهار جذب ملاحظة بطرس وسأل عن أصل الزورق، ولما علم أنه يمكن أن يعوم ليس فقط بواسطة المجاديف، لكن ١٣٤/أيضاً بواسطة القلع ضد التيار، وحتى في الريح المخالف، اشتاق إلى وجود من يعرف أن يُسيره، فكشف في موسقو رجل هولاندي إسمه برانت، كان مستعملاً في أيّام القيصر الكسي في الفرقيطة المسماة «أرول» يعني النسر، المصنوعة لجماعة التجار الروسية على بحر كيلان، والمحترقة في سنة ١٦٧٠م تحت أسوار استراخان حرقها قاطع الطريق رازين، لكن برانت تخلص من الحريق، وذهب إلى موسقو، وآل حاله في مدة عشرين سنة إلى الفقر المدقع، والضنك الموجع، لا يعيش إلّا من صنعة النجارة، فأخذ إلى بطرس، وعمّر الزورق، ونصب فيه صارياً وقلوعاً كافية. وصار مقاطعاً لتيار لاوزا بمرأى القيصر المتعجب من هذا المنظر الجديد من شأنه، ومن ذلك الوقت صار برانت معلم بطرس الذي بالسرعة تعلم مسك الدفتر بالشطارة، وصرف أوقات البطالة في التفسح على أمواه لاوزا والبرك التي قرب موسقو. فانظر إلى هذه الحالة التي هي غير مهمة في ذاتها، لكن تولد عنها الفكر في عمل دننما صارت في حياة مؤسسيها سبباً لمجد الروسيا الأثيل، وتمدنها الجزيل، وعزها الجليل، وجولانها في البحار إلى البر الأبيض «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

فلما تمّ الصلح المسبب لكل المنافع، والذي هو نتيجة هذه الدننما الظافرة في سافكات الوقائع التي هي ساعد المملكة، كما قال مؤسسها بحسن الملكة،

وبسببها قُلِّد بطرس نيشانات النصر الموقور، ولُقب بالامبراطور، وسُلِّمَ عليه باسم الكبير، والأب الخطير. لم يكتف القيصر بعد إعلان أيام الفتوحات الناشئة عن اجتهاداته المهمات بمجاراة مشاركيه، ومكافأة معاونيه، بل أراد أن تتذكر الذرية جالب هذه السعادة السرورية في زمان قليل بالنسبة لهذا الفتح الجليل، فأمر بإحضار الزورق من موسقو إلى شليسبل بورغ في ربيع سنة ١٧٢٣م.

١٣٥/بعدما استراح ٣٠ سنة، وفي ٢٨ آذار فخرت الدننما المزينة بأحسن زينة في النيفا، وأُطلقت مدافع القلعة، وأُرسلت الدننما عند ديرنيفسكي ومكثت طول النهار.

وفي اليوم الثاني، وصل القيصر في الزورق يسيره بنفسه هو وكالوفكين والرئيس سينياوين، ويتبعه ٩ سفن، فلما وصل الزورق أدنت السفن بنديراتها للسلام عليه، وضربت الطرنبيطات، وأُطلقت المدافع، ودقت الموسيقى العسكرية، وفي اليوم الثالث ذهب القيصر في الزورق، ورقى إلى المدينة، ولما وصل إلى المحل الذي فيه الأمير يديراسموليني رحبت القيصرة بهذا الزورق الذي هو أصل هذه العمارة الكبيرة، ثم لما وصل الموكب إلى مرسى كنيسة التثليث، أطلقت المدافع من كل طرف، وسلمت العساكر على الزورق بعمل شنك، ودخل القيصر والعائلة الملكية، وأعيان الدولة في الكنيسة للدعاء والصلاة، ثم خرجوا، وأطلقت لخروجهم المدافع، وعمل الشنك، ثم عملت وليمة في قصر سنيات في غاية النفاسة، ودام في كل هذه المدة الانشراح وشرب الراح، أوّلاً على صحة القيصر، ثم على شرف الزورق، ثم على شرف ذريته، يعني الدننما، ثم عملت الحريقة في الليل. بعد هذا الموسم بأيام وضع الزورق في النشف وما جرى «إن السفينة لا تجري على اليبس»، وحفظ قرب مرسى الكنيسة تخلف بعض الملاحين عن حضور هذا الفرح المتين غرمهم ١٥ ربلاً لكل سفينة.

ومنها طاب الهواء في نيسان وأيار وحزيران، فكانت الدننما كل أسبوع تجول

في النيفا وتتردد، وكان التفسح إذ ذاك في الزوارق من الحظ المؤكد إذ لا سرور في هذه المـدينـة أعـظم من طيب الهواء وانقشاع الغيوم وابتسام السماء، وهذا الزورق مكث مدة عيد فيها، فلو كان له نفس ناطقة لكان مسرور البال، أو لسان منطلقة لأنشد بلسان الحال:

١٣٦/ أنــا والله أصْلُحُ للمعــالي وأمـشـي مشيتـي وأتـيهُ تِيهــا

وبالجملة فقد صدق من قال:

إنّي اطّلعت على الـديار وجـدتها تشقى كمـا تشقى الـرجال وتسعد

فتـارة يحمل في قنجة وتدور حوله الدننما، وتارة ينزل فيه القيصر ويجدف بنفسه، وفي آخر الأمر عملت مسخرات أسبوعاً لإشهار النصر أيضاً، فانظر كيف اعتبر القيصر هذا الكثير المنعقد للروسيا، وما نزل الزورق في القنجة وعَامَ والدننما تشيعـه حتى وصـل إلى باب القلعة، وأُخرج إلى الساحل، وسُلّم لحاكم القلعة للحفظ فيها تذكرة للدننما، وهذا الفرح المصنوع لهذا الزورق كان كثير المصروف جداً، فالبارود المحرق وحده كان ثمنه ١٢٠٠٠ ربل، والقارىء يفهم عظم هذا المبلغ في ذلك الوقت، ومع أن بطرس كان يحب التدبير في المصرف، لكن هذا عيد أساس الدننما التي بها شرفه، ولذلك سمي هذا الزورق جد الدننما.

وفيها وصل سفير الفرس ومعه تبع ثلاثون نفراً، وأُطلقت لقدومه المدافع وشيعه العســاكـر إلى البيت المعد له وقبله القيصر، وكانت نتيجة هذه السفارة اعتراف الفـرس بتـرك خمسـة من أخـطاطهـا للروسيا، وهي ضاغستان وشيروان وكيلان ومازندران واستراباد. ومن الأبنية في هذه السنة ببيت كبير من الحجر في وسيلي اوستروف لأجل المدارس، وهذه البنية أكبرها بني في هذه الخمسة والعشرين سنة، وهي موجودة إلى يومنا هذا دليلاً شاهداً على سرعة زيادة المدينة، وكذلك موجود الآن بيت بطرس الكبير، وقصـر في جنينـة الصيف، وكنيسة التثليث، وجزء من

أكديميا العلوم التي كانت قصر الملكة براسكوفيا فيدروفنا وتبدياَفلوسكي، وفيها كان مدخول المدينة ٥٨٠,٠٠٠ ربل، مدخول خمسة بيوت الآن، ١٣٧/وفيها مات الأمير بوتورلين، وحضر مشهده أهل القصر، وقبل إخراج جسده من البيت شرب الحاضرون على روحه كؤوس الخمر، وبعد الرجوع تغدوا في بيته وشربوا كذلك الخمر على روحه سنة ١٧٢٤م.

من أعظم الأبنية فيها أكديميا العلوم لتعليم أشخاص يكونون علماء في المملكة، ولتصنيف الكتب النافعة، وحل المشكلات، وكتابة الوقائع والتاريخ والملاحظات المتعلقة بالروسيا، وهذه الأكديميا تتركب من رئيس واثني عشر عضواً ماهراً في أنواع العلوم، وكاتب وناظر كتب وأربع مترجمين، واثني عشر تلميذاً، وعين للأكديميا ٢٤,٩١٢ ربل، ودعي كثير من العلماء المشهورين الغرباء للدخول فيها ليكونوا مِن أعضائها، وكان بعضهم على جناح السفر إلى بتر بورغ، لكن الله ما أذِنَ لمؤسس الأكديميا أن يعيش زماناً طويلاً حتى يرى مجلس فتحها الذي ما كان إلاّ بعد وفاته ٢٥ كانون الأول سنة ١٧٢٥م، وذلك أن الأشغال الناصبة والحركات اللازبة أضعفت القيصر وأوهمت جسمه، وألجأته إلى أن يسافر أوائل نيسان سنة ١٧٢٤م إلى الماء المعدني في أولونيتز، كما هي العادة في مداواة المرضى بالذهاب وشرب الماء المعدني مدة من السنة، خصوصاً في الربيع، ونفسه المتعودة على الأشغال ما رضيت براحة البال، بل اشتغل في مدة هذا العلاج بخفة من العاج، وأرسلها إلى بتر بورغ في كنيسة القلعة، ثم نقلت إلى قاعة العجائب، ومنها إلى كونست كامير في الأكديميا، وحفظت إلى هذا الوقت، هي وعدة أشياء منسوبة جميعها إلى بطرس الكبير، ثم رجع القيصر من أولينتز إلى موسقو، وأشهر تتويج القيصرة بعده لأن الموت لم يُبق له ذَكَراً وارثاً للتخت، ثم رجع إلى بتر بورغ، وزار قصوره الحظية في بترغوف وغيرها، ثم لما أتم لقومه الصلح على أحسن الأنواع بعد الحرب الغول ذات الأوجاع، ١٣٨/وأراد أن يقدس في وجه عالمه الأرض التي اشتراها بلحمه ودمه التي كانت عرضة الخطوب ومعترك

الحروب، عزم على نقل عظام الأمير الكبير اسكندر النيفسكي من فلاديمير إلى بتر بورغ، ودفنها في الدير المبني بهذا الاسم، لأن هذا الأمير قبل ٤٨٠ سنة كان غلب السويد وتوج بالنصر، وعمل موكب عظيم لهذه الواقعة، وذهب العظام للقاء العظام من ٧ فرست من الدير، ووضعت السفينة التي أمسك القيصر دفنها، وشجعان دولته جدفوا إلى الدير، وأطلقت المدافع، ودقت النواقيس عند إخراج النعش الذي رفعه القيصر وأعيان الدولة، ووضعوه تحت قبة من القطيفة التي تعلقت بأهدابها الأمراء، والقسس شيعوا المشهد في لباس فاخر على القنطرة الجديدة المبنية بالخصوص على تشورن ريتسكه، يعني الخليج الأسود، ودفن بمرأى الخاصة والعامة في ٣٠ آب وأمر أن يشهر كل سنة هذا اليوم السعيد على الروسيا، وأن يقوم فيه الزورق الذي قدمنا ذكره آنفاً.

ومرض القيصر الذي ظهر عند رجوعه لم يزل في ازدياد طول هذه السنة، ولهذا ما فارقته الأطباء، ولما وجد بعض خفة في شهر أيلول عزم أوائل شهر تشرين الأول على الذهاب في سفينة لمباشرة أشغال خليج لادوغة مع منع الحكيم له، لكن لازمه. ومن هناك ذهب إلى معمل الحديد في أولوينتز، وطرق بيده صفحة جديدة وزنها ٣ بود، وهي محفوظة في كونست كامير مع مخلفاته، ثم رجع إلى لاختا في عشية مَطِرَة كثيرة الرياح، فرأى في البحر زورقاً آتياً من كرونشتاد وتلعب به الأمواج، وقف في الرمل، فأرسل لإعانته زورقاً، ولا زال مُتبعه نظره فلاحظ غلبة الموج للجميع وأخذته الرقة، فلم يقدر أن يبقى ناظراً بلا فائدة، ونسي مرضه وألمه واندفع في زورق، لكن الرمل منعه من القرب من الزورق الراسخ فترك في الماء ١٣٩/إلى الحزام بلا حزم لفرط الرأفة وعوم الزورق وأذهب الرجفة، وهذه الرقة الأبوية والشفقة الرحمانية حركت ساكن المرض، وضاعفت الضعف والمرض، وألجأته إلى لزوم الفراش، وكانت سبباً لاخترام المنية وفراق المعاش، فلما ازدادت علته في ١٦ كانون الثاني سنة ١٧٢٥م، روجعت كل الحكماء الموجودة في بتر بورغ، ولكن إذا جاء الأجل بطلت الحِيَل:

كلُّ شيءٍ قاتلٍ حين تلقى أجلَك

ثم في ٢٦ وجد خفة لإملاء بعض فرمانات، لكن في ٢٧ ثقل عليه العياء، وأراد أن يكتب لكن وقعت من يده الريشة وآذنت بدنو فراق المعيشة.

وفي ٢٨ انطفأ بموته شهاب الروسيا الثاقب، راجم شياطين الأوهام الكواذب، وخسف بدرها المنير بعد أن تكامل وتناقض حتى حلول المحاق وزاول:

توقى البدور النقص وهي أهلَّة ويبدو عليها النقص وهي كوامل

وكسفت شمسها المنيرة في الآفاق، ففاضت عليها بسحاب الدموع المآق، فسبحان من لا ينفذ مُلكه ولا يبقى إلاّ ملكه، له الحكم وإليه ترجعون.

الفَصْل الثالث

لما انتقل القيصر بطرس الكبير إلى الدار الآخره، وبقي اسمه مخلداً ومفاخرة، خلفته في الجلوس على تخت المملكة المتينة زوجته كترين، وقد سلكت نهج زوجها، فوضعت المملكة في أعلى أوجها، وبنت قريباً من مائتي مدينة، وملكت قريباً من ثلثي بلاد اللينة الحصينة، وبهذا السبب ما زادت في بتر بورغ من الأبنية ما يستحق التسمية، ثم جلس بعدها على التخت بطرس الثاني حفيد بطرس ١٤٠/الأول، وكان عاش طول عمره في موسقو، وقد أمر بعمارة بعض جزائر، وبني في شارع نيفسكي كنيسة للوتيريانين، واتخذ قصر مينتشيكوف في وسيلي أوستروف مسكناً له، وسماه بتسمية نوفويري أوبرازتسكي، والقيصرة حنا يوحانوفنه، وأظهرت رجحان بتر بورغ، وأبدت ذلك بأفعالها، واختارت لسكناها قصر قبطان الكونت ابراكسين على النيفا قرب الترسانة الذي أعطاه له القيصر بطرس، وبأوامرها أحيط بجدران من الحجر، لكن غير لطيفة، وبخندق عميق، ثم هدم بعدها، وبني محله قصر الشتاء، وهي التي أمرت بصنع الهلال الكبير المذهب

اللامع على برج الترسانة، وهذا الهلال يهتدي به من لا يعرف حارات بتر بورغ.

وفي زمانها أيضاً عمقت مويكه، وبني محل كبير للعسكر عند قنطرة ازمايلوف وبدل بيوت الخشب القديمة التي كانت ببيوت الحجر، وفي ذلك الوقت صدر الأمر العالي بأن في حارة مليون، وعلى الساحل القصري لا يبنى غير بيوت الحجر، ونقل بيت الأجزاء من القلعة إلى حارة مليون وزيدت عدة كنائس ببناء كنيسة الصعود التي سميت باسمها حارة فوزينسيكي، يعني «حارة الصعود» وصورت القيصرة بنفسها الحارات.

وفي سنة ١٧٣٧م، ما كانت تجاوزت بتر بورغ من ناحية الجنوب حدود فونتانكه التي لا تتميز بحسن الأبنية، وفي الجهة المسماة فيبورغسكي سترنا ما كان زيادة على معمل البوزة الهولاندي المنقلب إلى أكذيميا الحكمة والجراحة إلّا حارتين أو ثلاثة، وكنيسة سامسون.

وفي ذلك الوقت كان الشغل دائراً في حارات وسيلي اوستروف المسماه الخطوط، وما كان جاهزاً حقيقة إلّا الأوّل وبتر بورغ القديمة، كانت كثيرة السكان، لكن جزيرة الأجزاء التي يغرقها من ١٤١/بتربورغسكي سترنا خليج كاربوف لم تكن إلّا خميلة عريضة غلباء منطقة مملوءة ليس فقط بالنباتات الغربية والأوروبية، لكن أيضاً بالنباتات الآسية والإفريقية المحفوظة بغاية الاعتناء. ولم تزل القياصرة تعتني ببتر بورغ التي صارت تخت المملكة الجديدة، لكن بلوغها إلى هذه الدرجة التي نراها الآن من الفخر والنظافة والحس، اقتضى زماناً طويلاً ومالاً جزيلاً، وتعباً جليلاً، وذوقاً جميلاً، واليزابيت على الخصوص اعتنت بها، ففي أيام ملكها شادت كنيسة نقولة البحري المفتخرة بقباب مذهبة، ومنارة كبيرة للناقوس، وكنيسة الخلاص في سينوى على ساحل النيفا أمام أوختة عند حوش اسموليني دير التثليث للنساء، وكنيسة التثليث المشهورة التي بناها المهندس المشهور الكونت رستريلي، وهذا المعبد الكبير بقي ثلاثين سنة بلا أبواب ولا شبابيك، وكمل بهمة

القيصر الحالي نقولة الأول. وهذا الكونت قد زين المدينة في أيّام القيصرة إليزابيت بقصر انيشكوف في ١٧٤٨م، وابتدأ قصر الشتاء في سنة ١٧٥٤م، وكمل في سنة ١٧٦٢م، بعد موت القيصرة، وفي سنة ١٧٥٥م، وضع أساس غوستين دفور يعني قيسارية التجار، ولكن أكلته الحريقة، وما كمل ووصل إلى المنظر الجديد الذي هو فيه الآن إلاّ في مملكة كترين الثانية سنة ١٧٨٥م، وكترين هذه اعتنت جداً ببتر بورغ وكبّرتها وحسّنتها واجتهدت في فعل كل الوسائط التي صيرتها أول مدينة في الدنيا.

ففي أيامها، بلط ساحل النيفا بالحجر الصوان بغاية الإحكام والإتقان، وكذلك سواحل الخلجان، وعملت بالوعات في الحارات، ومهدتها بالتبليط اللطيف، وعملت لها مماش موصلة إلى القصور الخارجة عن المدينة، ولأجل إحياء هذه الطرق التي في وسط الغابات وتسهيلها، وزعت هذا الفضاء إلى الأبنية القريبة منه في كلا الطرفين إلى تسارسكيا سلو وستريلنا وبترغوف، وأبيات الصيف اللطيفة بحدائقها الظريفة وغدرانها الصافية، وعيونها الجارية، وأحدقت جنينة الصيف بدرابزين كبير، حسن الصنع، عجيب الوضع من السبع المعادن، وزينت بتر بورغ من ناحية ريغا بباب النصر العظيم، وزاد عدد قصور الخط ببافلوفسكي وغاشيتين، وبنيت ثلاث قرى نيمساوية حول المدينة ووضعت أثر البطرس الكبير ممدن الروسيا، وكتب عليه لبطرس الأول من كترين الثانية.

وفي مملكتها ازداد قصر الشتاء عظماً وحسناً ومعنى، وزين زينة خضعت لها الثريا، وهذا القصر العظيم، مربع الشكل قليلاً، وطوله ٦٥ سجيناً وعرضه ٥٠، وسمكه نحو ١٢، وفي وجهه الأصلي فرجة كبيرة جداً في الوسط مكشوفة، والدور الأول يسكنه الخدمة والمقدمون، ونحوهم وفي الدور الأخير مسكن الأعيان من الرجال والنساء الذين يسكنون دائماً في القصر، وفي الدور الوسطاني مقعد كبير فيه يجلس القيصر للسفراء وعمل الخدم والعبادات القيصرية، وهناك مقعد الرقص

ومقعد المرمر ومقعد جرجيس المزين برايات كل العساكر وبيارقهم ، ومقعد التخت كان فيه تختاً عظيماً على الذوق القديم بأربع درجات مغطى بالقطيفة الحمراء، وهذا التخت يتركب من كرسي عظيم مغطى أيضاً بالقطيفة الحمراء وقبة مزينة بالتاج القيصري، وكل التاج القيصري الكبير مسبوك من العسجد، وفي خلاله القطيفة الحمراء، ومرصع بالجواهر وأعلاه مرصع بالياقوت الكبير كبراً خارجاً عن العادة، والتاج الصغير مرصع بالألماس ورأس قضيب المملكة ١٤٣/مرصع بقطعة ألماس كبيرة اشترتها القيصرة كترين الثانية من الرومي سافراتسيا بنصف مليون ربل فضة، يعني بمليون وثمانماية ألف ربل حوالة، لأن الربل الفضة في زمان كترين كان يساوي ٣ ربل، ٦٠ كيبك، والآن يساوي ٣ ربل و ٥٠ كيبك، وعبرة ذلك بالقروش الرومية ٩ ملايين قرش، لأن الربل يساوي ٥ قروش. والعسكرة القيصرية مرصعة إلى أكثر من النصف بجواهر ثمينة مختلفة النوع والمقعد الفيلدماريشالي مزين بصور الفيلدماريشالات الروسية الملقبين بهذه الألقاب، زادونايسكي وزيمنيكسكي وإبريفانسكي بسبب نصرتهم.

والمقعد الحربي، يعني مقعد سنة ١٨١٢م، وجدرانه مرصعة بصور الشجعان الذين حاربوا لأجل الوطن، وهو بين المقعد الأبيض ومقعد جرجيس متسع جداً، طوله ٧٧ ذراعاً روسياً، مقبب بغاية الصناعة، وفيه صورة القيصر اسكندر على الحصان الأبيض الذي ركبه لما راح باريس، وفي زمان كترين كانت التحف والجواهر القيصرية وخواتم الألماس والمنشقات الذهب المرصعة بالألماس والنشانات والرايات والشيش بقبضة ذهب، وغير ذلك في دواليب أبوابها من الزجاج موضوعة في قصر الشتاء، لكن الآن هذه الأشياء محفوظة في الأوضة القيصرية في قصر انيتشكي. قلت: قصر الشتاء هو محل إقامة القيصر وعائلته وحاشيته في الشتاء، وهو من عجائب الأبينة، وظاهره ليس محلى بالألوان كغيره من العمارات اكتفاءً بحسن شكله ولطف هندسته:

وما الحلى إلّا زينة لنقيصة يتمم من حُسنٍ إذا الحسن قصّرا
فأمّا إذا كان الجمال موفّراً كحسنك لم يَحْتَجْ إلى أن يُزوّرا

١٤٤/وفي أول كل سنة يفتح في المساء ويؤذن لعامة الناس ذكوراً وإناثاً بالدخول بأوراق أكثر من ثلاثين ألفاً، ويسمى ذلك رقص المسخرة، وليس في الحقيقة رقصاً، إنما هو تفسح، فتدخل الناس في المقعد الأبيض ومقعد المرمر وبعض مقاعد أُخر كبيرة للغاية، فما ألطف هذه المقاعد وأبهجها، وفي أركان بعض المقاعد أواني من الذهب وأشياء عجيبة وصور غريبة، وفي هذه الليلة يدور القيصر يتفسح مع عائلته، ويرى قومه كالأب الشفوف مع أولاده، ويكثر الزحام جداً حيث القيصر وعائلته، بسبب أن كل شخص يتمنى رؤيتهم، فهو حقيقة محبب في قومه لا يشبع من رؤيته، سواء كان في القصر أو غيره.

ومن جملة من يرى من الناس، الكرج والشراكسة التاتار في لباسهم الأصلي، وهناك بعض سودان من خدمة القصر، وكل من أراد الشاي، أو شراب العسل، أو بعض مآكل، ذهَبَ إلى المحل المعد لذلك وأكل ولا يدفع شيئاً، وقد أصابت هذا القصر عين الكمال فاحترق، وما قدروا على إطفاء النار منذ ١٣ سنة، لكن همة ساكنه القيصر الحالي أعادته إلى رفعته الأولى، بل أحسن في أسرع زمن، ومن مدة سنوات سقط سقف مقعد جرجيس، لكن عمر بالسرعة، وهذا القصر كالمدينة في الكبر والاتساع، وقد ذهبت عند بعض المعارف الساكنين فيه، فعددت مائة سلم، مع أن هذا ليس في الدور الأخير، والمحل المحرم دخوله مطلقاً إنما هو حيث يسكن القيصر والعائلة الامبراطورية، أمّا المحال الأخر فكغيرها يجوز لمعارف سكانها أن تزورها.

وفي شهر أيار حين يذهب القيصر وعائلته لتقضية الصيف في تسارسكيا وبترغوف، يجوز الدخول بأوراق في مسكن القيصر والعائلة الامبراطورية للتفرج على هذه البنية العجيبة وما فيها من البدائع الغريبة ١٤٥/والذخائر اللطيفة.

وفي سنة ١٧٦٨م، وضع أساس كنيسة إسحاق، لكن غير هندستها القيصر اسكنـدر الأول إلى أحسن، ثم تلاه أخـوه القيصر الحالي. وفي طول مدة أيامه والشغـل فيها دائر، وهي الآن على طرف التمام بقبابها المذهبة العظام، شاهقة العلو والارتفاع، محكمة الأبنية والأوضاع، خصوصاً القبة الوسطى الكبرى، فإنها تكاد أن تنال الشِعرى، ولا يمكن لوصف أن يحدها لا نثراً ولا شعراً، بل بالعين وحدها بصحائف هذه المحاسن تقر حين تقرأ.

وفي سنة ١٧٧٠م ابتدأ قصر المرمر على النيفا وكمل في سنة ١٧٨٣م. وهو يتميز على الخصـوص بأنـه لا يوجـد فيه أصلاً خشب، بل بمثابته دائماً المرمر والصوان والمعادن، وتبدل بهذه القصور والأبنية الحسان الصحارى التي أحاطت بالنيفا، وكذلك بني قصر الأمير ترويسكي الذي أسس دننما البحر الأسود، وفتح بندر أوجاكوف وضم القرم إلى الروسيا، وفي شأنه قالت كترين الثانية:

«هو وحده يفهم مقاصدي»، وغرس في هذا القصر جنينة الشتاء المعروفة الآن «بجنينة توريد»، حسنة للغاية حتى إنه لا يباح لكل الناس دخولها إلاّ بورقة إجازة لئلا تفسدها لاعامة، وفي هذا القصر سكن خسرو مرزا حين أرسل سفيراً إلى بتر بورغ من طرف شاه الفرس، وعمل الأمير يوتومكين وليمة عظيمة لكترين، ولما مات يوتومكين أوصى بهذا القصر إلى كترين، وهي تشريفاً له سمت القصر قصر توريد، و كترين الثانية اعتنت أيضاً بإحياء العلوم والصنائع فشادت أكديميا التصوير على ساحل النيفا الشمالي، وأحسنت وضعها الذي بقيت عليه إلى الآن، وهي كبيرة شاهقة في العلو، فيها كثير من الصور البديعة، وفي كل سنة تزداد لاعتناء هذه البلاد بهذا العلم حتى ١٤٦/يسمونه الصنعة النفيسة، وأمامها على ساحل النيفا صنمان كبيران من الحجر يسميان أبو الهول، جلبا من مصر سنة ١٨٣٢م، وتحتهما سبعان من الحجر، فهما على الحقيقة مسلياني في هذه المدينة، إذ ليس من بلدياتي أحد غيرهما فيها.

وفي سنة ١٧٨٤م إلى سنة ١٧٩٠م بني على هذا الساحل أكديميا العلوم، لكن أقل علواً، وفي هذه الأكديميا العلماء الروسيون والغرباء ينتسبون إلى الأكديميا فيسمون الأكاديميين، وكل منهم مشتغل بصنف من العلوم، بعضهم بالرياضيات مثل بنياكوفسكي، وبعضهم بعلم المعادن مثل كوفر، وبعضهم بالعلوم الشرقية مثل فرين، فإنه مشتغل بالعلوم المتعلقة بالشرق من معاملات وتاريخ ونحو ذلك.

ودائماً يسافر الأكاديميون على مصروف الميري لكشف بعض الأشياء، كما سافر كوفر إلى سيبير محل المعادن، كما سافر بروس إلى تفليس لتحقيق تاريخ الكرج وآثارهم، وفي آخر سني مملكة كترين وضع أساس بيت مكتبخانة العمومية الحجري في شارع نيفسكي، وبنى التياتر الكبير الذي كان أوّلاً في سوق سنوي مزيناً لحارة الجنينة، مثل اللعبة ومحله صار القومبانية يعني مستودع المال والسلف بالمكسب، وبالجملة فكترين الثانية أكملت زينة هذه المدينة السامية، ورقت المملكة إلى أعلى درجة، وهمتها كانت بهمة الرجال مزدوجة، بل أعلى من همة الرجال، وحق فيها قول المتنبي، حيث قال:

ولو كان النساء كما رأينا ... لفضلت النساء على الرجال

ومع أن تملك القيصر بولص كان قصير المدة، لكن كان نافعاً لبتر بورغ، لأن هذا القيصر بنى عدة مساكن لطيفة للعسكر ولتعليمهم، وبنى في وسيلي أوستروف مدرسة البحارة، وكمل بيت تعليم الأطفال اللقطاء، ١٤٧/وبنى بيتاً لسقط العسكر في جزيرة الحجر، وبعض قشلات وبيوت لإيواء الفقراء الطاعنين في السن، وبنى قصراً عند جنينة الصيف صار بعده مدرسة المهندسين، وبنى في شارع نيفسكي محلاً للتجار يسمى «أومه»، وزينه ببرج مربع، وبلط ساحل مويكه في طول ١٥٠٠ سجين، وزين كثيراً شارع نيفسكي الذي كان إذ ذاك في وسطه بولفار، يعني سطور من الشجر لإظلال المارين، ووضع لجده الكبير بطرس الأول أثراً أمام قصره، وآثر

رومانتسوف في المرج القيصري، لكن نقل بعد ذلك أمام أكديميا التصوير، ومكتب كديت وأسس أيضاً أكديميا الطب والجراحة، ووضع لكنيسة كران الأساس وكملها بعده وارث تخته، وولي عهده القيصر اسكندر الأوّل الذي بنى الممشى على النيفا أمام جنينة الصيف، ونصب قنطرة ترويسكي قرب جنينة الصيف، ونصب في المرج القيصري أثر سوفاروف في سنة ١٨٠١م، ليس بعيداً من قصر المهندسين وقشلة للبحرية واينيستيوت كترين لتعليم البنات الأكابر، وعند شارع فوسكربسنيكي بنى كنيسة المصابين، ومن أعظم مبانيه قصر الوزارة، ودواوين الأشغال بقبوبه العظيم التي فوقها صور خيول، وهو عظيم جسيم يشتمل على أقسام منها: الديوان الأسنى، وهذه البنية العجيبة أمام قصر الشتاء وبينهما ميدان. وأما القيصر الحالي نقوله الأول، فإنه ما قصر عن سلفه ولا أبقى تعباً لخلفه، إذ قد صرف اجتهاده إلى ما يكمل المدينة والمملكة، فبنى تياتر ميخائيل وتياتر اسكندرة باسم زوجته القيصرة اسكندرة فيدوفنا ومجمع الأعيان، وقد عبث به بنان الحريقة منذ سنين، لكن تدورك الخطر وتلوفي الضرر، وبنى عدة حارات منها حارة مورسكوي وكارافاني، وأحدث بولفاراً جديداً في طرف حارة ١٤٨/غالدني، ومن أفعاله الجميلة تبليط شارع نيفسكي بقطع الخشب المسهلة لجري العربات، وأمره بقلع الأشجار التي كانت في ذلك الشارع وتبليط محلها ليتسع الممشى، وهذا عين الصواب، لأن هذه الأشجار كانت في الشتاء ثقيلة المنظر، مضيقة المعبر، وفي الصيف لا حاجة إليها في ذلك المحل، للاستغناء عنها بالبساتين، ونصب في الميدان أمام قصر الشتاء عموداً شاهقاً في العلو كله من الصوان المائل للدهمة أثراً لأخيه اسكندر الأول، وليس له في الدنيا نظير، وهو أطول من ٢٢ سجيناً، فهو أطول من جميع الآثار الموجودة في الدنيا حتى من عمود الصواري باسكندرية، والحجر الكبير جلب من بتر بورغ في سفينة مبنية له بالخصوص ١ تموز سنة ١٨٣٢م، وأخرج إلى الساحل ١٢ تموز، ورفع بإعانة عسكري الخفر الذي له صفيحة الفخر سنة ١٨١٢م، في ١٣ آب، وإلى نصف سنة ١٨٣٤م، حصل فيه الشغل والعمود كان أوّلاً مغطى

بالأشجار، وبعد ذلك هذا الأثر الباقي ظهر لكل عين في يوم عيد «اسم اسكندر» ٣٠ آب سنة ١٨٣٤م، تحفة سنية لهذا العيد الكبير وسحر يخطف أبصار الجم الغفير، وقاعدته أيضاً من الصوان، وعمل موكب عظيم حفل وعملت وقدة في المساء في الميدان، والحارات، ومن جهة قصر الشتاء مكتوب عليه الروسيا تشكر اسكندر الأول، وعلى أعلاه معلق صليب كبير، وصورة ملك ماسك الصليب بيده اليسرى واليمنى مشيرة إلى السماء، ويفعص برجله ثعباناً، وحوله الآن فينارات تولع بالغاز كل ليلة، ويحسن هنا إيراد القصيدة الفارسية التي قالها في هذا الأثر صديقنا وعزيزنا الجنرال ميرزا جعفر طوبجي باشا معلم اللسان الفارسي في المدارس القيصرية ببتر بورغ، وها هي مثنوي:

١٤٩/أزين درسكنتم كهي درستوه | كه يك قطعه سنكست اين ياره كوه
بكاخ سيهرش ستون ساختند | خردخيره كر دركه جون ساختند
جه كغتم بكردون ستون ك رواست | مكر سوى افلاك راه دعا است
ازين به بمطلب نبا شدكواه | كه ما بشد ملك رابرش جلوه كان
بلى دربر هيكل اين ستون | ستون بيستونست وانن بستون
نه وهم شتابان وفكر يلند | برار دور اسرابز يركمند
نظر رابسرعت به يحشنى شودا | به ست يلبس برشده اين نشاره
شند جند جاتابا وجش رسته | بنام يكي ينوونوشين روان
بمهر برادر براوز مهر | جومهر فروزات بطاق سيبهر
برافراخت اين ناموريا دكار | برافرخت اين مشعل روزكار
بسي بك زدكرنشان جنين | نباز دبكيتي بساط زمين[1]

---

(١) وترجمتها:

=

ومن مآثر هذا القيصر طريق الحديد التي حدث فيها الشغل من مدة سنين بين بتر بورغ وموسقو، وإلى الآن ما تمت وكذلك القنطرة المثبتة، وكان فيها الأشغال في مدة الجليد بدق الأخشاب في الجليد، والأعمال الشاقة، وقد تمت الآن، وفي أيام بطرس الكبير ما كانت على النيفا قناطر بالكلية، وكانت الناس تعدي على القوارب، كل شخص يدفع كيبك، وعلى مويكة وفونتانكة كانت قناطر نقالة يمكن رفعها، لكن لا يمكن أن يمر عليها أكثر من عربة بفرسين، وأمّا الآن فعلى فونتانكة ومـويكة من كل جهة قناطر في أعلى ما يكون من الحسن والأحكام من الحجر الصوان والدرابزين الحديد الذي في غاية الذوق، وكذلك على جميع الخلجان والكـل كالنيفا مرصع الحوافي بالحجر الصوان العريض، مرصف تمر على هذه

= تسيطر عليّ الدهشة أحياناً. . . ويمتلكني العجب.
مما يجعلني أتساءل أهو حجر واحد أم جزء من جبل. .
ذاك الذي صنعوا فيه عاموداً لقصر الملك،
عاموداً يحار العقل في كيفية صنعه.
ترى ماذا أقول لو أردت الحديث عن هذا العمود؟
يجدر بي أن أقول إنه طريق توصيل الدعاء إلى السماء
ولا أوّل على هذا من صورة الملك المنقوشة عليه والمتوجه لأعلاه.
أجل، إن هيكل هذا العمود يذكرنا بنفس بيستون
فعن طريقه يدرك ذوو الحجى ـ دون توهم ـ كيف تلحق الذلة بالأسرى. .
وترى العين على الفور دليل ذلك. .
حين تشهد الصليب وقد رفعته يد الملك.
لأكثر من سبب تم الاحتفال. . وقد جاء تخليداً لذكرى راحل عظيم
بالحب أحيا الأخ ذكرى أخيه، فكأنما بعثت الشمس أشعتها إلى قمر السماء.
لقد أحيا هذا ذكرى أحد العظماء
وأنارت هذه مشعل الزمان
وبفضله وبركته نرى ما نراه. . فما تتيه أرضاً دلالاً على الدنيا

القناطر العربات الكثيرة، وهناك قناطر صغيرة للمشاة وقدام القيصر سنة ١٨٤٠م، بتعريض قنطرة انيشيكوف مع انها ١٥٠/ محكمة إلّا أنه لاعتنائه بتحسين مدينته أراد تعريضها بعرض الشارع ليكون المنظر أجمل، ففعل ذلك ودام فيها الشغل نحو ٨ شهور، ولما فرغت أغلقت أبوابها، وقيل له: هيت لك، واجتمع محفل عظيم من الناس، ولما وصل القيصر راكباً في كاروصته فتحت له أول مرة، واستمرت مفتوحة إلى الآن، ووضع على أطرافها الأربعة أربعة خيول كل بقائده العريان، وقلت في ذلك:

وضعوا بأطراف القناطر إذ بدت	خيلاً مصورة بأحسن منظر
كلٌ يُقاد بسائس ما غُطيت	بالدرع قامته ولا بمغافر
هذا دليل الخيل والرجل التي	قويت بلا خوف جميع الأعصر
من يقوَ إن لم يرضَ مالك أمرهم	أن يدخل الساحات أو من يجسر

وفي سنة ١٨٤٢م شرعوا في توسيع القنطرة الزرقاء، وفي ذلك الوقت كنت ساكناً في بيت أمام القنطرة، فكنت أشاهد الأشغال الشاقة المتوالية من دق أعمدة الخشب في الماء، ثم تنشيفه، وقد تمت هذه القنطرة، وسبب هذا التحسين أن هذه القنطرة أمام القصر المبني لشاه زادة الأمير الكبير مارية نيقولاونا الديني هو أيضاً من مآثر هذا القيصر، فأراد القيصر توسيع القنطرة لتتسع ساحة القصر، ولذلك هدموا بعض بيوت حائلة هناك بين القصر وبين كنيسة إسحاق، وبالجملة فمآثر هذا القيصر لا تحصى، ومحاسن تدبيره لا تستقصى.

تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا

الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي

1850م - 1266هـ

الباب الثالث

في عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك

الباب الثالث

في عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم وأعيادهم وأديانهم وخطوطهم وتقدمهم في العلوم والفنون وغير ذلك، وفيه فصول.

الفصل الأول

١٥١ /اعلم أن عادة الروس وأخلاقهم الكرم والإنفاق وحسن معاشرة الناس، خصوصاً من مدة ما تقدموا في التمدن والعلوم، وصدقت فيهم فراسة بطرس الكبير، ويميلون إلى الفخر والكبر، قال العلاء في أخلاق طائفة الروس: «موصوفة بحسن الشكل وبياض اللون، وقابلية الصنائع ولطافة الخدمة وإطاعة السيد، وقلة العبادة، وقلة الصلاح، وكثرة الأباق». وفي القديم كانوا مشهورين بالجبن حتى استعبدتهم التاتار حيناً، لكن الآن انعكست القضية، وصار التاتار مذعنين لهم ومن رعاياهم، وليس الناس عندهم رتبة واحدة، بل مراتب:

الأولى: الأعيان، وهذه الرتبة متوارثة، فابن أحد الأعيان يعد منهم، وأصحاب هذه الرتبة يتميزون جداً، بحيث يجوز لهم شراء الأراضي والعبيد، ولا يحرمون من مجالس الشرف، وإذا تزوج أحدهم بامرأة دون مقامه رفع رتبتها وتسمت باسمه، ثم إن هذه الرتبة تنقسم إلى قسمين:

أعيان الأعيان: وهم من كانوا أعياناً قبل زمان بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب الثالث.

وأعيان: وهم من بعد بطرس، وتوجد أسماؤهم في الكتاب السادس.

مثــلاً في تربية بنــات الأعيان في ديراسمـوليني، يشتـرط إن لم يكن إذن مخصوص من القيصر، أن يكون من أعيان الأعيان، وإذا دخل أحد الأعيان طوعاً في النظام دخل مثل تحت ضابط، وبعد سنتين يصير ضابطاً.

الثانية: الأعيان الذين لا تتوارث رتبهم، وهم الغرباء والمستخدمون ونحوهم الذين أنعم عليهم القيصر بالنشانات، فإذا نالوا رتبة من القيصر عدوا من الأعيان المتوارثة رتبهم، ولهم اشتراء الأرض والعبيد الروسية إلّا في اختلاف الدين، فيمنع دخـول الـروس في ملك المسلم، كمـا أن العبد المسلم يمنع شرعاً دخوله في ١٥٢/ملك النصراني ومخالف الدين.

الثالثة: التجار لا يعدون في الروسيا من الأعيان، فالتاجر ولو ملك ملايين لا يعد من أهل هذه الرتبة، إذا تزوج واحدة من الأعيان حط رتبتها، وصارت تعد من التجـار، لأن الـزوجة تابعة لزوجها في الشرف والخسة، وبنت الأعيان لا تتزوج التاجر إلّا بسبب غناه، كما أن أحد الأعيان لا يتزوج التاجرة إلّا لغناها، فيختارون التمتع بلذة العيش ولا يبالون بعقد الكفاءة، ولله القائل:

قالــوا الـكـفــاءة سنــة فأجبتهم   إن الكفــاءة في يســـار الــدرهم

الرابعة: أولاد البلد وإذا ترقوا إلى التجار ونزلوا إلى النظام فلهم حكمهم.

الخامسة: الفلاحون إذا أخذوا في النظام، فلهم حكمهم، وإلّا فلا يترقون إلى الرتبة الأولى.

الســادســة: العسكـر، لكن إذا ترقى العسكري إلى رتبة يستحق فيها كسوة الأكتاف بالقصب صار من الأعيان، وذلك أنه لا بد أن يخدم ١٥ سنة، فإذا كان حسن السلوك ربمــا ترقّى إلى مرتبـة تحت الضـابط، ثم إلى مرتبـة الضـابط، ١٥٣/ومن خدم ١٥ سنة له الخروج من النظام إن أراد.

السابعة : الأرقاء، ولا يجوز لكل أحد شراء الأرقاء كما عندنا، بل بشروط أن يكون المشتري من أعيان الروس، وأن يكونوا تبعاً للأرض، فليس للأرقاء سوق يباعون فيه، إنما بيعهم تبعاً للأرض، وتارة يباعون بالاستقلال، ويجوز إعتاقهم، ومنهم من يشتري نفسه كالمكاتب، ولا يصير الرقيق، ولو بعد العتق من الأعيان إلّا إذا صار عسكـرياً وترقّى، ثم إن الأعيان لا بد لهم من التربية والتعليم الذي يكتسبـون به الرتب. فإذا تعلموا في المدرسة الكبرى، ونحوها حتى وصلوا إلى درجـة «كـانديدان» يعني النجيب، يكونون من الصنف العاشر، هذا إن أحسنوا الجواب في البحث، وإن قصروا قليلاً فيعطون درجة التلميذ المجتهد، وإلّا فلا يستحقـون شيئـاً، وإن تعلمـوا في المـدارس الصغيرة لا يستحقون هذه الرتبة، ويخدمون بلا رتبة حتى يعطى لهم رتبة، وأوّل المراتب الصنف الرابع عشر، ثم يترقون إلى رتبة الجنرالات، وكذلك أولاد التجار إن تعلموا في المدرسة الكبيرة، وبلغوا رتبة النجيب، ثم النجيب إذا اجتهد وكتب شيئاً في العلوم، وعمل بحثاً في العلوم، وناقشه العلماء، وأحسن الجواب وصل إلى رتبة مجستير، يعني «عالم»، فيكـون من «الصنف التـاسع»، ثم إذا اجتهد أيضاً، وكتب أيضاً، وعمل بحثاً، ونوقش فيه ومَهَر وصل إلى رتبة دوكتور، يعني «فاضل»، فيكون من الصنف الثامن، ثم إذا خدم ترقّى بالخدمة إلى الصنف السابع، وهكذا، «والفاضل» يمكن له أن يكون مدرّساً أوّلاً، يعني عادياً، وثانياً يعني خارجاً عن العادة، هذا كله في الرتبة المكتسبـة من التعليم، وقـد يصـل النجيب بواسطة الخدمة إلى هذه المراتب، فيكـون جنـرالاً، وإن لم يكن عالماً ولا فاضلاً، وأمّا وصول ١٥٤/غير النجيب فيمكن، لكن لا كالنجيب إلّا نادراً، والنشانات يعطيها القيصر بعض الوزراء لمن يستحقها بسبب التقدم والتمييز، وهي كثيرة، منها نشان ستانيسلان وحنه وفلاديمير، وشـريط الأول بحاشية بيضاء، والثاني بحاشية صفراء، والثالث بحاشية سوداء، وكلها حمر، والشريط للرتبة الأخيرة صغير يعلق على الصدر، وللرتبة الأولى طويل يعلق كالحمالة، ولا يعطى إلّا للجنرالات وللرتبة الوسطى كالقلادة في العنق، وقد

أنعم عليّ القيصر بالنشانين الأولين، وقلد بهما عنقي بسبب امتياز التلاميذ في البحث، وقلت حين قبلت الثاني مورّياً:

إنّـي رأيتُ عجبـاً
في بتـر بورغ وإنـهْ
شيخ من المسلمين
يضم في الصدر حَنـهْ

وقد أنعم عليّ القيصر أيضاً في البحث الثالث بخاتم مرصع بالألماس الغالي، وفيه أوّل اسمه العالي، وقد تنبه القيصر إلى أن المسلمين لا يحبون التصوير الذي في النشانات المعطاة للمسلمين، فأقام مقامها صورة النسر هذا، وقد قلدنا الأوروبيين في إعطاء الرتب والنشانات للمستخدمين، لكن إلى الآن ما فعلنا ذلك مع «التلاميذ والمعلمين»، فأي مانع من ذلك، بل المقتضي موجود وهو تحريض التلاميذ على التعليم، مثلاً إذا فرغ الصبي من التعليم في المكتب، ودخل في المدرسة لتعلم العلوم، فبعد أربع سنين إن شهد شيوخه بالنجابة سميّ «نجيباً» ولا بأس بعمل بحث لذلك، وإعطائه ثبتاً وإجازة. لكن في كاغد منشن، ثم إن استمر فبعد سنة مثلاً أو سنتين يعطى رتبة العالم ثم الفاضل، والفاضل له رتبة المدرس الأول والثاني، وغيره رتبة المعلم أو المعين، ثم ١٥٥/حيث نوعنا المراتب، فلِمَ لا نخص كل رتبة بلفظ، فنعطي مثلاً للجنرالات لفظة الجناب، وللوزراء لفظة السعادة، والشاه زادة وعائلة السلطان لفظة السيادة، وللسلطان لفظة الأبهة، ونحن إلى الآن ما فعلنا ذلك، بل نقول لكل الناس حضرة الجناب العالي، وتستعمل لفظة الحضرة التي تستعمل حتى في جانب الله والرسول، ونبتذلها جداً كأننا نظرنا لقول القائل:

إذا شوركت في وصفٍ بدون ... فلا يلحقك عارٌ أو نفورُ
ففي الحيوان يشترك اضطراراً ... أرسطاليس والكلب العقور

لكن هذا شيء آخر، لأننا لا نقول لأرسطوطاليس حيوان، ولا يحسن أيضاً أن ننظر لقول الآخر:

العبد عبد وإن تسامى والمولى مولى وإن تترّك

لأن هذا في تسامي العبد نفسه، وتنزل المولى وتواضعه، وأمّا من طرفنا فيليق أن لا نرفع العبد فوق مقامه ولا ننزل المولى عن رتبته، إنما المقام الذي نحن فيه من باب قول القائل:

اجعل لكل مكان ما يناسبه فإنّ للزند حُلياً ليس للعنق

الفَصَل الثـاني

في ملابس الروس

اعلم أن ملابسهم القديمة الباقية في عوامهم إلى الآن مشتملة على قميص افرنجي والغالب أنه من الشيت، لأن العوام يحبون الألوان. ثم لباس من البفت أو الجوخ، ثم جبة طويلة محزقة، ولقسسهم جُبب طويلة عريضة الأكمام مثل فرجيات علماء مصر أو بنشات السفطات، ولكن من منذ مدَّن بطرس الكبير الروسيا، صارت ملابسهم كملابس غيرهم من الأوروبيين، فيلبسون الأقمصة البيض، ويضعون على الصدر ١٥٦/فوق جيب القميص قطعة بفت عريضة بطيات مكوية، وتارة يفصلون القميص ويجعلون على صدره طيات، فيكون ذلك ساتراً، ثم الصدريات المفتوحة، ويتأنقون في تفصيلها حسب الكم، ثم السروال الضيق ثم الجبة الافرنجية القصيرة، وفي مراسم التكلف هذه الجبة مقطوشة الذيل من الطرفين، وطوق الصديري والجبة مرتفع فوق القفا بسبب البرد وللنظام ملابس مختلفة على حسب اختلاف خدمهم، فالضباط ومن فوقهم يضعون على أكتافهم قرصاً من القصب الأبيض أو الأصفر، ويلبسون السيوف، وأمّا أرباب القلم فلا

يلبسون السيوف، إلاّ في مراسم التكلف، وكذلك يلبسون فيها بدلة بطوق قصب بحسب رتبتهم، وبعضهم من يلبس البدل المقصبة كلها، وبالجملة فلكل رتبة نوع مخصوص لا يتعداه يلبسه صاحبه في الأعياد، والرواح إلى الكبار خصوصاً رؤساء الشخص، وعند الذهاب إلى مجمع الأعيان حيث الرقص ويسمى ذلك بدلة الوَلْبَة، وأمّا البرانيط فأنواع، المسنمة التي فوقها ريش، أو بلا ريش، وهذا لبس القيصر، والكبار أرباب السيف، وكذا لبس أرباب القلم في التكلفات، وأمّا لبسهم في غيرها، فالبرنيطة السوداء المدورة العالية بحواف عراض قليلاً، وهناك أنواع أخرى خصوصاً للنظام بعضها مستطيل وبعضها مربع، وفي آخرها مثل الدبوس فوقه كرة، وحدث منذ بعض سنوات للنظام نوع آخر من البرانيط فوقه شرابة من شعر الخيل، والآن كثيراً لبسه حتى إني رأيت القيصر بنفسه لبسه، ويربطون على العنق منديلاً أسود في الغالب، وخصوصاً في الشتاء، وتارة من لون آخر وخصوصاً في الصيف، وأبيض في التكلفات، وهذا لا بد منه في ١٥٧/هذه البلاد لبرودة الإقليم، ولما وصلت بتر بورغ كان وقت الصيف، فصرت بلا منديل على العادة، فلما أقبل البرد لم أقدر على الخروج فربطت المنديل على الرقبة وتارة منديلين إذا اشتد البرد، وقلت في ذلك مضمناً بيت المتنبي:

وما حيلتي في بتر بورغ وقطرها وفي عنقي غل له ألجأ البرد
ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بُدُّ

لكن أرباب السيف يستغنون عنه بالقَبَّة المستطيلة، وكذلك في أيام الشتاء لا بد من لبس الفراء خصوصاً للغرباء لقساوة البرد، وقلت مورياً:

واصلتني يا بدر حتى كان لي ببلوغ وصلك في الدجا آمال
لِمَ تفتري في موعدي فأجابني الافتراء ببتر بورغ حلال

وأما النساء: فالكبراء كلبس الفرنساويات يعني الأقمصة والألبسة، ثم الإزارات المربوطة على الوسط، وهي كثيرة، ثم الفسطان، ويجوز لهن كل الألوان

والتنوع على حسب النسيم، ويعملون للفساطين وشاحاً يسمى الكرسيت، وهي خرقة فيها عيدان مثل الجبيرة لترفيع الخصر، وتارة يتزنرن، وتارة يفصلن الفساطين واسعات الجيوب، بحيث يرى عنقهن لكن يضعن على ذلك منديلاً أو شيئاً رقيقاً شفافاً من الشاش حسن الصنع مشغولاً بالطارة أو الإبرة، وفي الرقص لهن فساطين بلا أكمام، فذراعهن ونصف صدرهن مكشوف، إلّا أنهن يلبسن الكفوف، وهذا باب واسع الذيل، ويجر كثير السيل، فالكسم في كل وقت يتغير، ويكتب ذلك في الجرنالات، حتى أن للكسم جرنالاً مستقلاً فيه صورة امرأة لابسة بغاية التأنق، أو رجل، وهذا كله يأتي من باريز، ويتبع ذلك نساء الأوروبا، وتارة تلبس ١٥٨/كبار نساء الروسيا السرفان، وهو لباسهم القديم، والفلاحات يلبسنه وهو معلق بأشرطة، لا صدر له، لكن سرفان الكبار مرصع باللؤلؤ أمام، ولهن برنيطة عريضة من فوق مدورة، ومن أسفـل أقل عرضاً، كذلك مرصعة باللؤلؤ يلبس ذلك في التكلفات الكبيرة، مثل الأفراح القيصرية، والولائم الامبراطورية، وأمّا نساء العوام فمختلفات الملابس بعضهن بالسرفان، وبعضهن بالفسطان، وبعضهن يلبس فوق الفسطان مثل الصديري، وبعضهن يتعصبن بالمناديل، وهذا باق حتى عند نساء التجار إلى الآن، لكن الأكثـر يقلدن الأعيان، وقد رأيت مرة في دير اسموليني بنات الأعيان لابسات السرفان والبرنيطة الروسية، وكان ذلك أسبوع الميلاد.

وفي هذه الجمعة على العادة القديمة تجتمع العذارى، ويأخذن طبقاً ويضعن فيه ماء، ثم يغنين ثم يعطين الخواتم للحاضرين يزعمن أن ذلك يدل على البخت، وتارة يبذرن الشعير أمام البنات، ويضعن فيه خاتماً، ثم يرسلن ديكاً يلقط الحب، فإن نبش الديك وأخرج الخاتم، فمَن كان أمامها فإنها تتزوج في ذلك العام، إلى غير ذلك من الأوهام القديمة، وفي هذه الجمعة يمسخون أنفسهم ويغيرون زيهم، فبعضهم يلبس وجه شخص قبيح الصورة، وبعضهم صورة حمار أو عفريت إلى غير ذلك، ثم يدورون الحارات، ومن حيث أن لبس الفقير مخالف للبسهم بعضهم يظنني أحـد الـروس الممسـوخين، لأن هذه الجمعـة يغيرون المـلابس أيضاً،

ويفعلون ذلك في الرقص أيضاً، ويسمونه المسخرات كما يأتي، وأمّا الذقون فالأعيان وغالب التجار يحلقونها، والقسس والعوام وبعض التجار بلحاهم وكثيراً من لحاهم، وأمّا الشوارب فتحلق غالباً إلّا النظام وأرباب السيوف، ١٥٩/وكذلك العارضان وما تحت الذقن يجوز فيها الإبقاء، والعادة الآن بين الفرنساوية إبقاء الذقون، والتجار لا يخضعون، وكذلك التاتار، فكأنهم بلغوا أمنية الشيخ أبي بكر الشيرازي حيث قال يتبرم بشبابه وكان خنق التسعين، ولم تبيض له شعرة:

إلامَ وفيمَ يظلمني شبابي ... ويلبس لمتي حلل الغراب
وآمل شعرة بيضاء تبدو ... بدوّ البدر من خلل السحاب
وأدعى الشيخ ممتلئاً شباباً ... كذا طمعاً يُعلل بالسراب
فيا شوقي هناك إلى مشيبي ... ويا خجلي هنالك واكتئابي
ألا يا خاضب الشيب المعنّى ... أعنّي في الشباب على الخضاب

فكافور المشيب أجلّ عندي ... وفي فوديّ من مسك الشباب
وأين من الصباح ظلام ليل ... وأين من الرباب دجى ضباب
ألا مَن يشتري منّا شباباً ... بشيب واسوداداً بأشهبان

ويميل له قول أبي الطيب المصعبي في ذم الشباب:

لم أقل للشباب في كنف الله ... وفي ستره غداة استقلّا
زائر لم يزل مقيماً إلى أن ... سوّدَ الصحف بالذنوب وولّى

أين هذا من قول الآخر:

أليسَ عجيباً بأنّ الفتى ... يصاب ببعض الذي في يديه
فمن بين باكٍ له موجع ... وآخر مغد معد إليه
ويسلبه الشيب شرخ الشباب ... فليس يعزيه خلق عليه

وأما الفرس فيخضبون ميلاً لقول الخشنامي :

أقــول لمن يعــد الشيب نوراً ويزعــم أنــه يكســـو وقــارا
أحب من الــوقــار إليّ شعــر يحــاكي لونــه سبجــاً وقــارا

ويعضده قول الآخر: ١٦٠/

لو أن لحية من يشيب صحيفــة لمعــاده ما اختــارهــا بيضــاء

ولأبي الفرج ابن أبي سعد بن خلف، وهو كما قال صاحب الخريدة من أحسن ما يروى في معناه:

وأنكـــرَ جاراتي خضــاب ذوائبي وهـــن به زُيِّنَ بيض الأنــامــل
فواعـجبــاً منهن أنكــرن باطــلاً عليّ ولــم يخلبــن إلاّ ببــاطــل

وأمّا شعر الرأس فالرجال يقصرون، وفي تعهدها لا يقصرون إذا هم مكشوفو الرؤوس في المجالس، وأما النساء فيرسلن من شعورهن المقاصيص، ويجمعن غرائر الشعر بمشط في وسط الرأس، ويتعهدن ذلك حتى العجائز:

وقــد شمــطت ذوائـبهــا وليست على أمــرٍ سوى قتــل العقــاص

ولا يرسـل الشعـور على الـظهـر إلاّ الفـلاحات، وتارة يضعن بعض شيء للتحسين كشريط أو دبابيس كبار مذهبة أو نحو ذلك، والمتزوجات يضعن على الرؤوس طاقية رفعية بغاية الإتقان، وللنساء شمسيات قصيرة في غاية البداعة من الربيع والصيف يقيهن حر الشمس، وأمّا الرجال فلا يتخذن إلاّ الكبيرة للمطر، ومما قلت في بعض العذارى:

ولم أنسَ لمّــا أن تبسّم ثغــرهــا ومــنــت بتــوديع بغــير سلام
شقيقــة بدر إن يك البـدر غيرهـا وحــلوة ثغــر رق فيه نظامــي

وقـد رفعت بالشمس فاتخذت لها — حجـابـاً ومـا تنفـك دون ملام
طويلة شعــر قصــرتـه بمشـطهـا — فهـا هو إكليل الجمــال وسـامي
فؤادي كخـديهـا وحمـر شفـاههـا — ألـست ترى أن الـجـميع دوامي
مورّدة الـخــدين في زمن الشتــاء — فكـيف بيوم في الـهـجـيرة حامي

وفي المـدينـة مخازن لتهيئة هذه اللوازم، ففيها من الأقمشة النفيسة كل ما يحتاج إليه، وخياطون للتفصيل، وشرح هذا الباب غني عن ١٦١/ التفصيل حتى يوجـد كثير من المـزينين لإصلاح الشعور وقصها وتقصيرها وتزيينها على حسب الذوق، وإذا لـم يكن للشخص شعر ولا أسنان، وضع له شعر وأسنان عيرة بغاية الإحكام حتى لا يكاد يتميز من الطبيعي، ولله من قال:

قالت أراك خضبت الشعـر قلت لهـا — خضبتـه عنـك يا سمعي ويا بصـري
فقـهـقـهـت ثم قالـت إنّ ذا عجـب — تكــاثـر الغش حتى صار في الشَّعـر

الفَصْل الثالث

في دين الروس

قد سبق أنهم كانـوا عبـدة أوثان حتى تنصروا في زمن فلاديمير على طريق الروم، لكن المطران ليس الرئيس المتوحد، كما كان البابا في روما، بل الرئيس الديني القيصر كالسلطان بين المسلمين، وتحته ثلاثة مطارنة وعدة أساقفة ومشورة الـرهبـان، وطـريقـة الروم التي تدين بها الروس تخالف طريقة اللاطينيين بفرق ضعيف، فرق الفئتين المتحدتي الدين، وذلك أن الروم يعتقدون كاللاطينيين سواء أسـرار التجسيد، وتخليص عيسى العـالم من الخطايا في اليوم الآخر، والثواب والعقاب بعد الحياة على الخطيئة الأصلية، وعلى العفو اللازم، والمعروف إنّما الفرق بينهما في العقيدة من جهة التثليث، فاللاطينيون يقولون: إن روح القدس ينبعث من أب وابن، والروم يقولون إنه من أب بواسطة ابن، ولأجل الفرق بينهم

وبين القاثوليقية اليونانيين يصلبون ضامين الثلاثة الأصابع الأصلية، يعني ما عدا الخنصر والبنصر من اليد اليمنى جاذبيها من الصدر إلى الكتف اليمنى، ومنه إلى الكتف الشمال. والتكريز عند الروس بلسان الصقلب، كما أن الوعظ عند الإسلاميين بلسان العرب، وهو مصحوب بموكب وزينة عظيمة وشموع موقودة، والأواني في الغالب ثمينة مذهبة ومرصعة بالجوهر والصور والتماثيل من اللوازم عند الروس في الكنائس، وفي البيوت بحيث إن الكنائس مملوءة بها، وتارة يوجد حتى في الأسواق وفي كل بيت في أوضة مخصوصة صورة العذراء والمسيح مطلية بالذهب أو الفضة أو مرصعة بالجواهر على حسب الغنى والفقر، وتارة صور أخرى والداخل يتوجه إلى الركن الذي فيه الصورة، ويسلم عليها أوّلاً. بخفض الرأس والتصليب مراراً، ثم على أهل البيت وكذلك عند الخروج للوداع، وكذلك عند المرور على الكنيسة أو الصور التي في الأسواق لكن هذا بين العامة والتجار، وأمّا الأعيان والأكابر فلا يفعلون، ولذلك المعري نظر حيث قال:

ما الناس إلّا اثنان إمّا جاهل ... متديّنٌ أو عالِمٌ لا دينَ له

وعند الصور قنديل دائماً مولع أو شمعة موقدة ليلاً ونهاراً إلّا الفقراء، فليلة الأحد والأعياد، وأيامها وكنائسهم موضوعة، بحيث يكون القسيس في المحراب متوجهاً للشرق، والنواقيس في العادة في برج عالٍ كالمنارة، أو في محل منفصل عن الكنيسة.

وفي وقت التكريز كل الناس تقف والرجال تقلع البرانيط، وكثيراً ما يصلبون، بل ويقفون ساجدين على الأرض، ويكثر الرواح إلى الكنائس في الأحد والأعياد، ويوم اسم الشخص أو ولادته، وفي أيام الصيام خصوصاً الكبير الذي قبل الفصح، وفيه يستغفرون من الذنوب بأن يقر المذنب بذنبه للقسيس فيأمره بالسجود في بيته بقدر الذنب صغراً وكبراً، ثم يسقيه خمراً أحمر كأنّه دم المسيح، وخبزاً، وفي /١٦٣ أيام الصوم الكبير والجمعة الأولى والسابعة يمتنعون حتى من السمك والبيض والسمن، بل الزيت الحار ونحوه، وبعضهم لا يلتزم لكن أكثر العامة

والفلاحين يراعونه فلا يأكلون لحماً البتة، وما ألطف قول ابن حجاج:

جفاني اللحوم وهو شقيق روحي ... فمن يعدى على ذاك الشقيق
كأن اللحم في صوم النصارى ... توهمني بزعم الجاثليق

الفصل الرابع

في الزواج

اعلم أن الروس من زمان بطرس الكبير إلى الآن كسائر الأوروبيين لا يحجبون نساءهم عن حضور المجالس مكشوفات الوجوه (فحينئذ) يسهل على من يريد التزوج اختيار من شاء، وتارة بواسطة الخاطبة خصوصاً عند العوام، ومن حيث إنه لا طلاق لا يقنع الإنسان بمجرد النظر بل لا بد من معرفة الطبع فيصطحبان بغاية الأدب وينظران بعضاً في المجالس، وهذا يختلف باختلاف الناس، فمنهم مَنْ يقنع بأن المرأة تحبه بزمان قصير، ومنهم من لا يقنع، وعلى كل حال، فإذا حصلت المحبة من الطرفين التي يسمونها العشق، أو كان هناك غرض آخر سألها التزوج بها، فإذا قبلت سأل بعد ذلك أهلها ثم يشرطون الشرط في البيت (وحينئذ) يصنع لها خاتم ذهب، ولنفسه كذلك، وتسمى حينئذ خطيبة، ومن ذلك الوقت يجيء كل يوم عندها ويروح حيث تروح، ثم يعين وقت للعرس وحينئذ يذهبون للكنيسة فيسألها القسيس أوّلاً هل رضيت بهذا؟ فتقول: نعم، وفي هذا الوقت يتوجان، وإن لم يكن أب ولا أم اختير أب وأم يسميان أبوي الزواج، ويحضران في الكنيسة مع العروسين، وكذلك يختار شاب يسمى مهياص الفرح، ١٦٤/وهو الذي يمسك تاج العروسة على رأسها في وقت غناء القسيس، ويبدل الخاتمين ثلاث مرات بأن يضع خاتمها في أصبعه وخاتمه في أصبعها ثم يدور بهم في الكنيسة مراراً، بعد فراغ الغناء يهنئون العروسين ثم يرجعون البيت ويشربون خمر الشامباني مع الحلاوة، وربما رقصوا والنساء المعزومات للعرس يحضرن في غاية التبرج،

وكـذلـك العروسة وفستانها مخيطة فيه أزهار صناعية، وعند بعض الناس تتفاءل البنات غير المتزوجات بأخذ شيء من هذا الزهر لنفاق بختهن، وبين حاضرات الفرح ربما تميز بعض الحسان، وجذبت نحوها الأنظار حتى يظن من لم يعرف الحال أنها العروسة.

وكم في العرس أبهى من عروسٍ ولكن للعـروس الـدهـرُ ساعَـد

والرواح والرجوع في عربات الملك أو الكراء.

في اليوم الثـاني يذهب العـروسـان ـ ويسميان بالروسي «الشابين» ولو كانا كبيرين ـ إلى المعـارف والأحبـاب لزيارتهم وشكـرهم، وربمـا دعوهم إلى ليلة مخصوصة للرقص عندهم، والغالب أن الزوجة أصغر بنحو عشر أو خمس عشرة سنة، وتارة تكون الزوجة أكبر، وتارة أصغر جداً.

وإذاا كان أحـد الـزوجين غير روسي ضوعف العقد، فيحضر القسيس غير الـروسي، ويثبت العقـد بعد القسيس الروسي، وهكذا مع غير الروسي، حيث اختلفت المـذاهب، وقـد حضـرت مرة زواج نيمسـاوي قاثـوليقي مع نيمساوية لوتيريانية، فعقد العقد أوّلاً في الكنيسة القاثوليقية قسيس قاثوليقي، ثم بعد الرجوع في البيت قسيس لوتيرياني، ولا يجوز لأحد من مدة الحياة الزواج أكثر من ثلاث مرات، فالعبارة مسكينة، نعم يجوز التزوج برابع إن كان يهودياً تنصر.

وفي مدة الصيام لا يجوز التزوج.

وأمّـا الـمـهـر فتـعـطيه الـزوجـة وكثير من الأزواج صاروا أغنياء بسبب ١٦٥/زوجـاتهم فالحسن ليس جالبـاً للعشق أقـوى من المال، فالقباح الغنيات يعشقن ويتزوجن مثل الحسان الفقيرات:

كتنفس الحسنـاء في المرآة إذ برعـت محـاسنهـا بغير زواج

فإن اجتمع الحسن والمال قوي الجاذب غير أنه خطر، ولله در إمامنا الشافعي، حيث قال «ما سلمت ذات جمال قط؛ فاظفر بذات الدين، تربت يداك».

وإذا تزوجت المرأة سميت باسم عائلة الزوج لا باسم عائلتها، ومن له بنات يظهرن في المجالس ويعمل لأجلهن ليالي رقص، عسى أن يعشقن ويتزوجن وربما نشأ من هذه الواسطة غرور كثير، تارة يظهر أحدهما العشق بلا حقيقة ثم يترك، وكم من خادع وخادعة وداهية وباقعة، وتارة يكون الرجل كثير الملاطفة، فيظن أنه عاشق وأنه يريد التزوج، ثم يتبين الحال بعد وقوع المرأة من العشق في أوحال، وكل هذا لغير المزوج، إذ المتزوج معلوم حاله، فملاطفته للنساء من باب الأدب العقيم، وتارة يكون له غرض وخيم، وأمّا المتزوجة فيلاطفها الرجال أدباً، وربما جذبت عقولهم فيعشقونها، وربما عشقتهم خصوصاً إذا رغبت عن الزوج، وكم من نساء متزوجات لفظاً مطلقات معنىً يعشن مفترقات عن الأزواج مع العشاق، وكذلك الأزواج، وكثير من يفعل ذلك سرّاً، وربما تبعت الزوجة العشيق إلى بلاده، وتركت الزوج مُنْشدة بلسان الحال:

قاطعته وخلعت من يده يدي　　　وتلوت لي وله بأن نتفرّقا

وأمّا المعيشة بلا زواج فكثيرة، وربما حصل بعدها الزواج، وعند النيمساوية يسهل الفراق، فلا يندر وجود امرأة تفترق من زوجها ثم تتزوج آخر، وأمّا زواج التاتار القاطنين في الروسيا، فكما المسلمين، إلاّ أنهم يدعون الحاضرين للوليمة، ويعقدون العقد قبل الطعام، فيقرأ المُلاّ خطبة النكاح، ١٦٦/ثم يعقد العقد مع وكيل الزوجة الثابت وكالته بشاهدين والزوج، ويعين المهر الذي يعطيه الزوج، ثم بعد ذلك يأكلون الأكل. ويرسل من طرف العروسة بعض الهدايا لبعض الحاضرين الذين يرسلون لها النقطة في مقابلة ذلك، وندر الطلاق بينهم، وإن كان جائزاً، اللهم إلاّ لسبب يقتضيه.

الفصل الخامس

في التعميد ويوم الولادة والاسم والدفن

إذا ولد لشخص مولود أحضر القسيس وأعطى للمولود اسماً، كما يريد أهله وأخذ المولود وبارك عليه، وبعد ذلك بمدة يعمد في البيت أو الكنيسة ثم يحضر طشت فيه ماء فيقدسه، ثم يضع المولود في الماء، ويأخذه منه الشبينة (يعني أم التعميد) وتلفه في قميص جديد وطاقية، وتعطي للقسيس منديلاً يمسح به يده، ويأخذه ويحضر أيضاً أبو التعميد، وهي يعطي الأجرة للقسيس، ويشتري للمولود صليباً يلبسه، وكل الناس في أعناقهم الصلبان إلى ذلك الوقت، خصوصاً النساء، لكن الكبار لا يظهرونه، ثم بعد ذلك تدور الشبينة بالمولود ثلاث مرات وفي يدها شمعة، وكذلك أبو التعميد، ويغني أثناء ذلك القسيس ويدهنه بالزيت المقدس، ثم يحيون الليلة بالرقص والشراب ويحدث بين أبي التعميد وأمه لُحمة كلحمة النسب بحيث يمتنع التزوج، وكذلك بينها وبين الأب والأم والغليونة، ولهذا تدعو معمديها بأبويها، ويسمون المولود بأسماء القديسين مثل بطرس ومريم، ويعمل لهذا الاسم يوماً يحيا كل عام، وهو اسم مولد ذلك القديس مثلاً، يوم مولد مار نقوله سادس كانون الأول، فإذا سمي المولود نقوله على اسمه كان عيد اسمه كذلك، ويوم الولادة يشهر أيضاً كل سنة ويجيء الأحباب والمعارف والأقارب للتهنئة. ١٦٧/ وربما عملوا ليلة ورقصوا، أو وليمة وشربوا الخمر على صحة صاحب العيد، وهذا يختلف باختلاف الناس. وإذا مات إنسان أتى القسيس وقرأ عليه، ويأتي أيضاً قبل خروج الروح ليلقنه، ثم يغسل ويكفن، وكفنه ثياب الحياة بعينها، فيلبسونه مثل ما هو حي حتى الجزمة، ويوضع ووجهه مكشوف في تابوت خشب، ويوقدون حوله ثلاث شمعات اسكندراني، وعنده في طول هذه المدة قسيس يقرأ عليه، وكل يوم يجيء القسيس الكبير ويصلي عليه، ولا يدفن قبل ثلاثة أيام

لاحتمال الحياة، ففي اليوم الثالث أو الرابع المعتمد للدفن تُهيأ الكنيسة وتغطى دككها التي تجلس الناس عليها بالجوخ الأسود، وكذلك تَهيأ عربة معدة لذلك بالجوخ الأسود والخيل التي تجرها تغطى بالجوخ الأسود، ويصحبون جنائزهم بالنار، فيمسك القسيس شعلة من نار، ويختلف ذلك باختلاف الموتى، فالكبراء يزاد لهم، وتغطى العربة بقبة جميلة، ثم يحمل التابوت من البيت إلى الكنيسة مصحوباً بالمشيعين، وتارة يحمل التابوت يوم الموت، ويوضع في كهف الكنيسة إلى يوم الدفن، وتطبع أوراق الدعوة في أوراق مجدول طرفها بالأسود، فيحضر الناس ويغني القسيس والشموع موقودة، ثم بعد فراغ الغناء يحمل الرجال التابوت من الكنيسة إلى العربة المنتظرة لحمله على الباب، ويضعونه فيها، وبعض المشيعين يمشي قليلاً، ثم يركب عربته وبعضهم يركب وبعضهم يمشي إلى الجبانة، وهناك يدفن، فيأتي قسيس ويرش عليه عند إلقائه بتابوته التراب، ويرش عليه الحاضرون ثم يخلونه، والعادة أن تعمل وليمة عند القبر للمشيعين فيأكلون ويشربون الخمر على روحه، ويطبخون الأرز بالزبيب، وكل مَنْ مرّت عليه الجنازة يقلع البرنيطة، وكذلك المشيعون تارة، وربما وضعوا في الطريق إلى الكنيسة شيئاً أخضر من فروع الشجر ومقبرتهم مشتملة على قبور محكمة البناء ١٦٨/ بالأحجار، وفي الغالب أنها طويلة كالعمد، وبعضها مدور، وبعضها مستطيل، وبعضها مسنم، وبعضها مربع، وفوقها الصليب بخلاف القرى، ولا يظهر من قبورها إلاّ الصليب فوقها، ويعمل للميت أثر وهو حجر من الرخام يكتب عليه اسمه وتاريخ ولادته وموته، وربما يتأنقون في ذلك ويكتبون إشعاراً، وللتتار قرافة مخصوصة منعزلة عن مقابر الروس، وإذا مات أحد لبس أقاربه عليه الحداد مدة معلومة عندهم، فالنساء يلبسن الفستانات السود والبرانيط السود، ثم الخمار الأسود بحاشية بيضاء، وأمّا الرجال فمن حيث إن لبسهم أسود يلفون على البرانيط حريراً أسود، وفي مدة الحداد لا يرقصون إلاّ أنهم يحضرون مجالس الرقص والتياتر، وتارة تلبس بعض النساء في مدة الحداد ثياب الزينة إذا ذهبن إلى أعياد بعض

الأقارب ثم يقلعن ذلك وبالجملة فالتكلفات في هذه البلاد كثيرة، والرسوم غزيرة ، ولكل شيء قانون عنده يقفون وله يقفون.

الفصل السادس

في أعياد الروس

أولها: عيد أوّل السنة، يبتدىء أوّل كانون الثاني، فيه يذهبون لزيارة الرؤساء والكبراء والمعارف، ويكتب الشخص اسمه إذا ذهب إلى رؤسائه، ولم يرهم ويعطي ورقة الزيارة المطبوعة باسمه لغيرهم، وكانت الروس في الزمن القديم تعد تاريخها من خلق الدنيا، والسنة الجديدة من أوّل آذار في وقت الاعتدال إلى الربيعي مثل الفرس المبتدئين سنتهم من النوروز، واستمر ذلك إلى القرن الخامس عشر في إمارة وسيلي دميتريفيج أمير دونسكوي، فقواه المطران كبيريان على تغيير أوّل السنة اتباعاً للأورام، ١٦٩/ومن ذلك الوقت ابتدأت السنة الجديدة عند الروس يوم مار سيمون مقضي الصيف الذي يشهر أوّل سنتابر في الخريف، لكن لم يزالوا على عدد القرون من أوّل خلق الدنيا، فكان أسلافهم في ذلك اليوم في كل سنة يشهرون فراغ الصيف ودخول أوّل السنة الجديدة، ويبتدىء التعبيد من طلوع الشمس في موسقو بعد صلاة الصبح في كنيسة التصليب الكبيرة، فيخرج المطران إلى الميدان مصحوباً بالقسس والصور والصلبان، وحينئذ تضرب جميع النواقيس، ويتم رسم الماء المقدس والصلاة، ويقول: بارك اللهم في العام الجديد بإفاضة الإحسان والصلح، ويصلي القيصر وسكان موسقو بالخشوع ويسجدون عند غنائه «خلص اللهم عبادك وبارك في خليقتك»، ويرش المطران القيصر والناس بالماء المقدس، ويهنىء القيصر رعيته الأمناء بقدوم السنة الجديدة، ويسمع بغاية البشاشة تهنئة رعيته المتمنين له بقلب واحد، الصحة ونعمة الله، ثم تقام الصلاة والناس يتماشون في داخل الكنيسة، وبعد الصلاة كلهم

يسرعون إلى أقاربهم الكبار ويهنئون بعضهم بعضاً بمقدم السنة الجديدة والسعادة القشيبة، وبعد الغداء يذهبون إلى البيوت، ويتمنى بعضهم لبعض بالأمنيات الكبيرة أن يعيش إلى أمثال هذه السنة الجديدة على عادات الآباء والأجداد الموصى بها، وعلى هذا استمر الأمر إلى سنة ١٧٠٠م نحو ثلاثة قرون، فظهر في الروسيا قيصر عجيب بطرس الأول الذي عند اطلاعه على الأوروبا واستحسانه معيشتها الجديدة بالراحة وتمدنها الساحر للنفس والعقل غير المعلوم للروس بعد عزم على تمدين رعيته وإزاحة كل ما يبعدهم عن الأوروبيين بالكلية، أو تخفيفه، وما يميزهم عنهم في الأفكار والتثبت بالأوهام ١٧٠/القديمة الموجبة لاحتقار التمدن الأوروبي وكراهته، وقطع هذه العلائق أبطل كثيراً من العوائد التي من جملتها حساب السنين الذي غيره بطرس، وصدر عنه أمر ١٩ كانون الأول ١٦٩٩م، أن من هذا الوقت يكون رأس السنة من كانون الثاني سنة ١٧٠٠م في الأوامر والفرمانات، وكل الأمور والمعاملات موافقة لنصارى الأوروبا، وأن يكون من الميلاد، ولا من خلق العالم، وأشهر ذلك في الكنيسة وبإطلاق المدافع كثيراً، والرقص والشنك ليلاً، وعلى حساب من خلق العالم تكون هذه السنة ١٨٥٠م من الميلاد و٧٣٥٨ على قولهم، وبقي أيضاً اختلاف بين الروس والأوروبيين ١٣ يوماً تأخروا بها عن غيرهم، ويمكن أن يوافقوهم في ذلك إذا صدر أمر القيصر.

الثاني: عيد الرفاع، وفيه ينصبون في الميدان الذي أمام قصر الشتاء أنواع الملاهي والمراجيح ويبنون بيوتاً يلعب فيها الملاعيب، وفي بعضها يرون الحيوانات والوحوش المجلوبة كالسبع والنمر والذئب، وفي بعضها يجرون على الخيل إلى غير ذلك، ويبنون هناك محلاً عالياً كالجبل لإزلاق العوام، وفي هذا العيد قبل صومهم الكبير بأسبوع لا يأكلون فيه اللحم، بل أنواع الفطير والسمك، ويأكل الناس عند بعضهم رقاقاً يسمونه «بلني» طول هذا الأسبوع، وفيه يلعب التياتر في الظهر والليل كل يوم مرتين توديعاً، حيث إنه ليس في الصوم تياتر إلّا للأطفال.

الثالث: عيد الفصح، وهو فسخ الصيام، ويحيون ليلته ولا ينامون فيها بل ينتظرون نصف الليل، ويذهبون للكنيسة نصف الليل للصلاة، وهذه الصلاة طويلة نحو ساعتين، وكم فيها من زحام رجال ونساء، وتكثر اللصوص في هذه ونحوها فيسرقون ما وجدوا من ساعات أو نقد ثم بعد فراغ الصلاة يأكلون ويأخذون فطراً معهم إلى الكنيسة يبارك عليه ١٧١/القسيس ثم يأكلونه بلبن منعقد.

وفي هذا اليوم تكثر الزيارات للتعييد كما في أوّل السنة، فهما اليومان اللذان يلزم أن أهل الخدم تذهب فيها إلى رؤسائهم والأحباب إلى أحبابهم والمعارف إلى معـارفهم، وهمـا العيدان العموميان، ويكثر في الفصح إهداء البيض المنقوش ونحوه، وهذه الأشياء تباع في السوق الكبير في الجمعة السادسة جمعة الشعانين، فيفرشون بهذه الأشياء ونحوها كالأزهار المصنوعة واللعب والصور للأطفال وصور وحيل وعربات وطيور وعصافير وبعض البيض منقوش مكتوب عليه عقيدتهم «عيسى نشر» وفي هذا العيد يبتباوسون ثلاث مرات:

يقول الأول: قام المسيح.

ويقول الثاني: حقاً وصحيح، لأنهم يزعمون أنه قتل في السبت، ونشر في الأحـد ولذلك يسمون الأحد «النشر»، (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم. . . الخ)، وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه. وعادة التقبيل باقية إلى الآن حتى أن القيصر يُعيِّد بالتقبيل، إلاّ أن الرجال لا تقبل النساء إلاّ المعارف القريبة والقسيس والعوام ونحـوهم، وفي طول هذا الأسبـوع تكـون بيوت اللعب والمراجيح كما في عيد الرفاع، إلاّ أنه لا إزلاق بسبب عدم الثلج في ذلك الوقت غالباً.

الرابع: الميلاد، وهو قبل أوّل سنتهم بأسبوع، وهذا عيد كبير عندهم إلاّ أنه لا يتزاور إلاّ المعارف والأقارب، فليس كأوّل السنة والفصح، وفي ليلته يعملون شجرة صغيرة، وهي غصن شجرة يعملون لها قاعدة ثم يعلقون فيها من الحلاوات والفواكه والشموع لأجل الأطفال. وهذه العادة سرت للروس من النيمسا، وبقيت

أعياد أخرى بعضها تبطل المدارس والمحاكم، ولنذكر أيام الأعياد التي فيها ذلك التعطيل على الترتيب:

١ ـ أوّل كانون الثاني: أوّل السنة. ١٧٢/

٢ ـ سادسه: عيد الغطاس.

٣ ـ ثاني شباط: عيد دخول سيدنا عيسى إلى الهيكل وتطهير العذراء.

٤ ـ الجمعة والسبت: من عيد الرفاع.

٥ ـ الخامس والعشرون من آذار: عيد بشارة مارت مريم بحمل عيسى عليه السلام.

٦ ـ من الأربعاء إلى آخر الجمعة الأخيرة من الصيام الكبير.

٧ ـ أسبوع الفصح.

٨ ـ الحادي والعشرون من نيسان: عيد القيصرة الحالية اسكندرة فيدروفنا.

٩ ـ تاسع أيار: يوم نقوله، صاحب الخوارق.

١٠ ـ عيد الصعود.

١١ ـ عيد روح القدس يومان: الأحد والاثنين، وفي الاثنين تفسح كبير في جنينة الصيف، يسمى عندهم إظهار العرائس تتبرج فيه العذارى ويخرجن مع الأقارب عسى أن يخطبن، ووهذه عادة قديمة بقيت منها آثار عند بعض التجار والعوام.

١٢ ـ الخامس والعشرون من حزيران: عيد ولادة القيصر الحالي نقولة الأول.

١٣ ـ التاسع والعشرون: عيد الحواريين بطرس وبولص.

١٤ ـ أوّل تموز: ولادة القيصر.

١٥ ـ سادس آب: عيد التجلي.

١٦ ـ الخامس عشر: وفاة مارت مريم.

١٧ ـ الثاني والعشرون: تتويج القيصر والقيصرة.

١٨ ـ الثلاثون: يوم اسم ولي العهد اسكندر.

١٩ ـ ثامن أيلول: ولادة العذراء.
٢٠ ـ الرابع عشر: عيد الصليب.
٢١ ـ السادس عشر: يوم الحواري المعمد يوحنا. /١٧٣
٢٢ ـ أوّل تشرين الأول: ستر العذراء وشفاعتها.
٢٣ ـ الثاني والعشرون: يوم صورة العذراء القرانية، صاحبة الخوارق.
٢٤ ـ العشرون من تشرين الثاني: جلوس القيصر على التخت وتحسب من التاسع عشر.
٢٥ ـ الحادي والعشرون إظهار العذراء في المعبد.
٢٦ ـ سادس كانون الأوّل: يوم اسم القيصر ومار نقوله.
٢٧ ـ الثالث والعشرون: يبتدىء التعطيل في المدارس إلى آخر الشهر.
٢٨ ـ الرابع والعشرون إلى السابع والعشرون: عيد الميلاد وزيادة على هذه الأيام للمدارس أيضاً، تعطيل في وقت الصيف، فبعضها يمكث شهراً ونصف، وبعضها ثلاثة أشهر.

الفصل السابع

في الخط العمومي

١ ـ **التياتر**: ابتدأ في بتر بورغ بهمة شاه زادة نتاليا أخت بطرس الكبير، وبنى أوّل تياتر من الخشب، وكان اللاعبون عشرة والموسيقيون ستة عشر كلهم من الروس، وأوّل دور لعب في ذلك التياتر: تراجيديا، يعني: رثاء.

وكان التياتر إذ ذاك على الخزنة، والناس يتفرجون مجاناً، ولما ماتت نتاليا، بطل التياتر إلى تملك القيصرة حنا، ثم دعيت اللاعبون الإيطاليون ثم الفرنساويون، وبتقدم الأدب الروسي ظهر التياتر الروسي، فصنف أوّلاً سوماروكوف تراجيديا روسية على كيفية التياتر الفرنساوي وسحر أقرانه، والقيصرة إليزابيت

اعتنت جداً أيام التياتر، وقلما تغيب عن الحضور إذا لعب.

وفي سنة ١٧٥٥م لعبت أوّل أوبرا روسية «مراريا» الذي صنف لها الموسيقى أنعم عليه بكرك ومائة[1] نصف امبريال، وفي أوّل مملكة كترين الثانية، أخذت التياتـر قوة جديدة، فأنعمت حيث جلوسهـا على التخت ١٧٤/بتكثير الجماكي (الرواتب)، وتحسين الملابس، وأرسل ديميريفسكي إلى البلاد الغربية ليتقوى في صناعة الغناء، ثم أرسل إلى باريز ليدعو بعض اللاعبين الفرنساوية، وبنيت مدرسة لتعلم التياتر، وبني تياتر كبير من الحجر سنة ١٧٨٤م، وكل الناس تقدر أن تروح بثمن مقدر، وزاد ذوق الناس للتياتر ولا غرو، فالناس على دين ملوكهم.

كاتـــرين كانت ماهـــرة جداً في هذا الفن كغيره، حتى إنهـا صنفت أدواراً استخرجتها من التاريخ الروسي والحكايات الروسية، وبلغ عدد اللاعبين في آخر مملكتها إلى ٢١، واللاعبات إلى ٢٢، ومع أن التياتر الفرنساوي ابتدأ في زمان اليزابيت، لكن كاتـرين ما وفرت شيئاً لتحسينه ورفع درجته، وزيادة على التياتر الميري كانت تياتـرات للكبراء، منها تياتر الأمير يوسوبوفا، كل جمعة مرتان من خمسـة لاعبين وخمس لاعبات، وهو أوبرا إيطاليانية، والمال من الكبراء محبي التياتر، ثم رتبت جمعية النيمساوية تياترين نيمساويين.

وفي سنة ١٧٦٥م، رتب التياتر الإنكليزي وبقي سبع سنين ثم انقطع وما تجدد إلى الآن، وفي أيّام القيصر اسكندر الأوّل زاد حسن التياتر، وكثرت جمعية اللاعبين واللاعبات.

وفي سنة ١٨١٧م خلص اللاعبين من القردة، وفي زمن القيصر الحالي نقوله الأول بلغ التياتر الدرجة العليا، إذ بُني في زمنه بالحجر التياتر الاسكندري للألعاب

---

(١) مائة وأربعين.

(٢) الجماكي: جمع جامكية، وهي مكافأة مالية.

الروسية، والتياتر الحجري في جزيرة الحجر، وتياتر ميخائيل للألعاب الفرنساوية والنيمساوية، والتياتر يلعب طول السنة، ويبتدىء في المساء، وكذلك الرقص والنوبات إلاّ أنه تارة تعمل نوبات في النهار، وذلك لأن الناس مشغولون طول النهار، فينبغي لهم التسلي في الليل، لأن السامة فيه أقوى، ولله درُّ أبي هلال العسكري، حيث قال: ١٧٥/

فاجعل الجِدَّ بالنهار شعاراً والْهُ بالليل ما بدا لكَ واطرَب
كم تسربلت من رداء ظلامٍ ضحك اللهو منه إذ هو قطَّبْ
ورأيت الهموم بالليل أدهى وكذاك السرور بالليل أعذَب

إلاّ في أيام الصوم الكبير، وصوم وفاة مريم، وبعض أيام أُخر، لكن في الجمعة الثانية من الصيام الكبير، يعمل اللاعبون نوبات، ويظهرون مع ذلك صوراً حقيقية، فيحصل بذلك للناس السرور والتسلي.

٢ ـ النوبة: ما كان ميل الروس إلى صناعة الموسيقى وذوقهم مثلما كان في النيمسا وغيرها من الأوروبا، لكن بعد ذلك انبثت الشهوة، وزاد الشوق في القلب الروسي إلى هذا التمتع الروحاني، وفي وقت كاترين الثانية ابتدأت في بتر بورغ جمعيات الموسيقى، وأحدث في سنة ١٧٧٢م أوّلها من ٣٠٠ عضو، وكل أسبوع تعمل ليلتين، وتأتي الناس فيها بكثرة للسماع، لكن هذه الجمعة ما طالت مدتها، ثم أحدثت أخرى تعمل كل سبت نوبة، وكل أسبوع رقصاً أو مسخرات، وأعضاؤها ٥٠٠ كل يدفع ١٥ ربلاً، والتخت يجلس عليه خمسون من أعظم الموسيقيين، وأوّل المغنين والمغنيات. وكل مشاهير هذه الصنعة في ذلك الزمان يجيئون في بتر بورغ ويعملون النوبات، ويأخذون عليها مبالغ جسيمة من ١٠٠ ـ ٢٠٠، ثم بلغت هذه الجمعية حدها، وكل شيء بلغ الحد انتهى، فبيعت الآلات والأثاث في محضر عظيم من الناس، ثم أحدثت أخرى، وبموت أعضائها ماتت، ثم في سنة ١٨٠٢م ابتدأت جمعية فيل ارمونيا يعني «محب الموسيقى» بقصد إعانة فقراء

الموسيقيين، ودامت إلى هذه الأيام، وقبل نيف وعشرين سنة كان رأس مالها ٦٠٠٠٠ روبل، يعطى منها راتب لاثنين وعشرين من أرامل الموسيقيين كل سنة ١٧٦/ (٣٠٠ للواحدة)، ومن ذلك الزمان زادت مرميتها، واتسعت نعمتها، ومع أنها لا تعمل النوبات العمومية إلاّ نادراً مرتين في السنة، وقبل نحو ستة عشر سنة أحدثت جمعيات أخرى للموسيقى. وفي كل سنة خصوصاً في أيام الصيام تعطى نوبات كبيرة مشتملة على الغناء على القانون أو اللعب بالكمنجة أو بالنادي خصوصاً للمشاهير مثل روبيتي، فإن نوبته ساوت ٤٠,٠٠٠ ربل مع أنه ما غنّى إلاّ أربعين دقيقة، وتارة تعمل نوبات باسم السقط أو المرضى، فيؤخذ المبلغ ويدفع لهم، وتارة تعمل نوبات مخصوصة في البيوت لأجل المعارف، فحينئذ يسمعون مجاناً، ومن حيث أن تربية النساء مستوجبة لتعليم الموسيقى والغناء، فلا يندر سماعهن في بيوتهن، وقد اتفق أني سمعت فتاة سوداء العيون والشعور تلعب على القانون فأطربني ضربها فقلت:

مصرية بعيونها وشعورها ... فبها ترى مصرا بذيّاك الحمى
لله درُّ بنانها قد أحكم الـ ... قانون حتى كاد أن يتكلما

وبالجملة، فقد يعجبنا تارة لعبهم وغناؤهم إذا كان حسناً كغناء روبيتي، وبعض الإيطاليين المشهورين بحسن الضرب والغناء، وتارة يعجب الضرب دون الغناء كما قال الشاعر:

غناءٌ تستحق عليه ضرباً ... وضرباً تستحق به غناها

وتارة لا هذا ولا هذا، كقول أبي الفتح الحلبي، وهو أملح ما قيل في هجاء عوّاد:

ومُغنٍّ عن غيره غير مُغْنٍ ... جاء في لحنه القبيح بلحنِ
كاد في كفه القضيب من الغيظ ... ينادي يا أثقل الناس دعني

وقد كتب إلى الخواجة فريسنل، قنصل جدة حالاً ما نصه:

«ومن خصوص الموسيقى، لا بد من واحد جنّي أو مَلَك من الملائكة يقضي ما بينكم ١٧٧/وبيننا، لأننا لا نتلذذ بأغانيكم ولا تتلذذون بألحاننا، وأمّا مِن جهة الشعر والأدب فجميعنا على ذوق واحد، إن شاء الله إلّا القليل، وإذا أقمتم بأرضنا مدة كم سنة كان في الاتفاق بينكم وبيننا من غير استثناء قدرة الله آمين».

٣ ـ الرقص: ليس إلّا حركة خالية من الفحش بالكلية، فهو في الحقيقة لعب لتسلي الحاضرين، فلذا يعتبره أهالي بتر بورغ من أعظم المسليات بعد التياتر والنوبة، ويبتدىء من الخريف إلى الصوم الكبير، ويكون في العصر عند القيصر وعند الوزراء والأمراء وأرباب المراتب من ذوي السيف والقلم والأغنياء وشهبندرات التجار وغيرهم، كل على حسب حاله، وتارة يكون عمومياً كما في مجلس الأعيان ونحوه.

وأوّل ابتداء الرقص في روسيا كان في زمان بطرس الكبير، وفيه حصل للروس اكتساب قوانين الأوروبا والملاطفة وحسن الخطاب الناشىء ذلك عن اجتماع النساء والرجال، فيتكلف الرجل في مخاطبة النساء ما لا يتكلفه في خطاب الرجال، حتى صار التكلف كلفاً، ولو لم يكن من ثمرات اجتماع النساء بالرجال إلّا قصر النظر عليهن وعدم التعلق بالغلمان لَكَفى، كيف وفيه فوائد أخرى من العشرة وحسن الأدب وغير ذلك، وقد قلت:

ولو أنّ النساء تبدو بمصر	ما سمعنا تغزّلاً في غلام
كل هيفاء كالغزال بوجهٍ	ساطعٍ نوره بغير لثامِ
قلبت برقعاً بعقرب صدغٍ	أَفَمِنْ لدغة الخدود دوامي
ولكل امرىء جليسٍ أنيس	فاتّقوا الله يا أولي الأحلام
أيّ عُذرٍ في عِشق رب عذار	في هوى الغانيات أيّ ملام

وفي زمن كاترين الثانية كانت جمعية الرقص لازمة لحظ الكبار، وغيتهم زادت على الحد، والتزين والتفاخر والإسراف في الأعياد ١٧٨/حتى عند التجار الروس بلغ أقصى درجة، فتارة تغطي السُّفَر لآلاف من الناس وينفقفون مبالغ جسيمة ٥٠,٠٠٠ ربل أو أكثر، وبقي من هذا آثار إلى الآن، لكن الأكثر البساطة وعدم التكلف في لبس الستات على الذوق الأوروبي وإكرام الأضياف وأدب الأولاد، ولا يلزم الضيف أو زائر الجمعية أن يرقص أو يلعب الورق، بل على كيفه، فيجوز له أن يجلس ويلاحظ من يلعب أو يرقص، إلاّ أنه قد يستثقل من يترك اللعب أو الرقص بلا سبب في البيوت لا في الجمعيات لأنه لا تكلف فيها، قال بعضهم: لو حسب عدد الآتين في جمعيات الرقص، وفي الليالي المعمولة، وطرح منه عدد من يلعب الورق أو يتفرج كان الراقص واحد من مائة وستين.

ثم أنواع الرقص كثيرة، المشهور منها ثلاثة:

الأول: الفلس، وهو مفتاح الأنواع، ففي السهرات والأعياد أوّل ما يبدأون به، وكيفيته أن يأخذ رجل امرأة فيضع يده اليمنى على خصرها واليسرى في يدها اليسرى، وهي تضع يدها اليمنى على كتفه، ثم يلفان بحسب القانون الذي يضرب عليه القانون أو غيره من الآلات الموسيقية، ويتولد من هذا النوع نوع يسمى البولكه «البسيطة، والبولكة بالارتعاش بإمالة الرأس وإرعاش الجسد بغاية الصناعة، وهو بالعذارى أليق خصوصاً بالهيف لا بالسمان.

الثاني: القادريل الفرنساوي، وهو التابع للأول، ففي العادة يرقصونه بعد الفلس، وهو أن يجتمع الراقصون، كل رجل مع امرأة وفي مقابلتها كذلك زوجان أو أكثر في طول المقعد، وكذلك في العرض، وهو مركب في ست صور في جميعها يبتدىء الراقصون الذي في الطول. ١٧٩/فإذا فرغوا في أوّل صورة بدا الذي في العرض، وهكذا الأولى، يمر كل زوج من الراقصين إلى مقابله، ثم يرجع إلى موضعه بحيث أن يتزحزح كل من الراقص والراقصة ثم يتقدمان ويد كل واحد

في يد الآخر اليمنى في اليسرى وعكسه، ثم يلفان في محلهما دوره، ثم تذهب الراقصة فتأخذ بيد الراقصة المقابلة وتلف معها لفة، ثم يأخذ الراقص راقصة غيره ويلفها في موضعه، ثم تجيء راقصة فيمسكها بيده، ويذهب إلى الموضع المقابل ثم يرجعان إلى محلهما.

الثانية: أن تذهب امرأة نحو الطرف المقابل إلى نصف المقعد، ثم تقهقر قليلاً، ثم كذلك إلى حيث المقابلون لها، ثم تكر راجعة، فقبل وصولها يمشي من ترقص معه أمامها قليلاً لملاقاتها، ثم تضع يديه في يديها على ما قدمنا، ويلفان لفـة، ويفعل مثلها رجل من الطرف الآخر يقابلها، وعند رجوعه تقابله راقصته، فتمشي له قليلاً ثم تضع يديها في يديه، ويلفان لفة، ثم تذهب الامرأة الأخرى، ويقابلها الرجل الآخر، فيتم أن كل رجل وامرأة رقص أمام مقابله.

الثالثة: أن تذهب امرأة إلى المقابل ثم تكر راجعة إلى نصف المقعد، وتأخذ بيدها اليمنى راقصها وبيدها اليسرى الرجل الآخر الذي يفعل مثلها، ويكر راجعاً ويأخذ بيده راقصته، ثم يمشي الزوجان قليلاً، ثم يفترق كل زوج قليلاً، ثم يفترق كل زوج فترقص المرأة أمام الرجل المقابل بأن يتقدم ثم تتأخر وهو كذلك ثلاث مرات، ثم تأخذ يد راقصها وتذهب إلى المقابل، والرجل الذي أمامها يأخذ راقصته ويذهب إلى المقـابل، ثم يرجع كلٌ إلى موضعه ثم يعاد ذلك، فيبتدىء الرجل والمرأة الأخرى على نحو ما تقدم.

الرابعة: أن يأخذ الرجل بيد راقصته ويرقص معها إلى المقابل ويقف قليلاً، فتـرجـع الراقصة المقابلة معها وهو يمر بينهما ثم يتقدم لراقصته ويلفان وكذلك الآخران ثم يأخذ الرجل الثاني ١٨٠/بيد راقصته ويفعل كالأول.

الخـامسـة: أن يأخـذ الـرجـل بيد راقصته ويذهب بها إلى الطرف المقابل فيأخذها الآخر على شماله وراقصته على يمينه، ويرقص معها بأن يتقدم ثم يتأخر ثلاث مرات، ثم يأتي الرجل الآخر فيأخذ راقصته فيرقص معها أمام ووراء، ثم

يرجعان، ثم يفعل الرجل الآخر كالأول.

السادسة: كالأولى، إلّا أنه تارة قبل ذلك يمشي كل زوج، ويد كل راقص في يد راقصته، وتارة عين الرجل على خصر المرأة ويسراها على كتفه إلى نصف المقعد، ثم يكر راجعاً.

الثالث: المازورق، وهو أن يجتمع أزواج كثيرة، ويجلس كل راقص مع راقصته كالحلقة، ثم يبتدىء رجل مع امرأة، فيرقص معها بطول المقعد، ثم يكر معها راجعاً، ثم يلفان واضعاً يده على خاصرتها، ثم الثاني والثالث، وهكذا إلى الآخر، لكن يحدثون بعد كل مرة شيئاً بأن تجلس امرأة في الوسط، ويأتي رجل تعيّنه يسمى «كاتم السر» فيقف عندها، ثم يأتي راقصها برجل وامرأة، فإن كان ذلك الرجل هو الذي تريد قامت ورقصت معه، ورقص رجلها مع المرأة المجلوبة، وإن كان غير الذي تريد، ويعلم ذلك بإشارة كاتب السر أن لا رقص ذلك الرجل مع المرأة المجلوبة، وأن رجلها برجل وامرأة، وهكذا حتى يأتي الرجل الذي تريد أو بأن ترمي امرأة منديلها إلى الهواء فمن خطفه رقص معها، إلى غير ذلك، وليس في كل هذا ما يخل بالأدب، ولا يشتم رائحة الفجور، وإنما هي عوائد وأخلاق لإراحة النفوس من الإرهاق، ولا يصدق ذلك إلّا مَن رأى وإن صدَّ غيره ونأى:

وإذا لم تَرَ الهلالَ فسلِّم لأناسٍ رأوه بالأبصار

الرابع: المسخرات، جمع مسخرة، وأخذ الجمع من لسان العربي، ١٨١/وسمي به في لسان الروس هذا النوع من الرقص، لكنه أبدلت الخاء بالكاف واخترعه كرانتيس في سنة ١٥٤٠م لأجل إظهار حركة الشجعان، وأوّل من قاده في الروسيا بطرس الكبير، يعني بهذه الكيفية، وإلّا فالمسخرات في الميلاد موجودة في الروسيا من قبل، ويكون رقص المسخرات في قصر الشتاء ومجمع الأعيان، وفي التياتر الكبيرة خصوصاً في عيد الرفاع، ولبس المسخرات مفتخر، ويلبسون

المسك يعني جلداً مصوراً، ووجهاً قبيحاً أو شيئاً من حرير يغطي الوجه، ومن أراد الرقص رقص، ومَنْ لا تَفسَّح، ويتوصل بهذه الطريقة إلى الكلام مع النساء، ولأنهن غير معلومات فيقول الرجل: أنا أعرفك وينزل عليها، وكذلك النساء، وربما كان وسيلة للتعرف بالكبار، وتارة يكون هناك من النساء قليلات الاحتشام، ولما رأيت ذلك أوّل مرة تذكرت مصر، فإن النساء مغطات الوجوه إلاّ أن كثيراً بلا مسك، والقيصر يحضر المسخرات ويمشي مع امرأة لابسة مسكاً، وكذلك العائلة الملكية، ويزيدون تارة في المسخرات القمار وهو تحف ظريفة، وطُرَف لطيفة، يبيعونها على البخت لمصلحة الفقراء، فيكتبون أوراقاً صغيرة وينمرونها ويبيعون كل ورقة بربل فضة مثلاً، فمن غلب أخذ ومَنْ لا فلا، وتارة يفعل هذا استقلالاً.

الخامس: لعب الورق: جرت العادة عند الروس لأجل تقضية الزمان، أنهم إذا جاؤوا عند المعارف يلعبون الورق لأجل تقضية الزمان، فيجلس اللاعبون ثلاثة أو أربعة على سفرة ويعينون أوّلاً قدر الدراهم لكل ضربة كبيك فضة، أو عشرة أو أكثر، بحسب مقام اللاعبين، ثم إذا فرغ اللعب أعطى المغلوبون للغالبين، ويوضع من تلك ١٨٢/ الدراهم ثمن الورق الذي يصنع في فبريقا لفائدة بيت اللقطاء، ثم إذا طلبوا اللعب ثانياً أو طلب غيرهم أحضر الخادم ورقاً آخر جديداً، ودائماً يحضر زوجاً، لأنه إذا فرغ دوراً أخذوا الورق الذي لا يلعب به، وفرقوه بينهم اثنين اثنين، وفي ذلك الوقت يخلط الورق الذي لا يلعب به كي لا يضيع الوقت في غير اللعب، وهذا قمار محض، إلاّ أنه في هذه البلاد سارٍ بين العباد فقلّ مَن لا يلعب حتى من النساء والبنات، ويعدون ذلك من أحسن المسليات، فإن الضيوف إذا اشتغلت مع بعض في الورق كفت أصحاب البيت مؤنة الملاطفة خصوصاً إذا كثرت الضيوف، وفي بعض البيوت ينضم إلى لعب الورق غيره من المسليات مثل الرقص، وتارة لا، فيقضون الليل في هذا النقار والقمار، ومَن فرغ كيسه ربما لعب بالشكك (الدين)، وربما ضيَّع في اللعب ضِيَاعَه، وجلب الطمع له ضَياعَه، واللعب المشهور الآن يسمى بريفرانس، وهناك لعب آخر يسمى

«الفيست» أقل شهرة. وأنواع لعب الورق لا تحصى، منها نوع يسمى «ميلنيك» يعني الطاحونة لا يدور طويلاً، ومنها نوع يسمى «دورسكي»، فمن غلب يسمى «دورك» يعني مغفل، وهذان في الغالب بين الصغار والعوام، وهناك لعب للنساء يسمى «بسيانس» يعني «الصبر»، وهو نوع من الحزر، فيكهن بالورق الآخر، وقد اتفق أن حزرت لي بنت بالورق، فقالت: يصلك مكتوب عن قريب، وبالاتفاق وصلني المكتوب وأنا في بيتها، أتاني به بعض الضيوف، فأريته إياها، ففرحت، وقالت للناس: انظروا: صدَّق كهانتي، ولذا قلت ١٨٣ /من قصيدة في جواب ذلك الكتاب لمن أرسله لي مورّياً:

وقـد وردت لي من لديك صحيفـة	وقـد سبقت لي من فتـاة بها البشرى
ومـن عجـبٍ جاءت إلـيّ ببيتـهـا	فحقّقَتَ إثبـات الكـرامـة للعـذرى

وقد كتبوا كثيراً في أصل لعب الورق، لكن ما كشف أحد الحقيقة في اسم المخترع، والناس المنسوب إليهم اختراعه، قال ريل الخوري: يعرف لعب الورق في إسبانيا في نحو ثلث القرن الرابع عشر منن الميلاد، وأيّد رأيه بمنع الفونس، ملك كستيل لعب الورق بالفلوس سنة ١٣٣٢م، وآخر ينسب ذلك إلى النيمسا، وكـان جبلينا أتى بالورق من قدماء المصريين، ومع ذلك ادعى عدة من العلماء ببعض أدلـة أنّ فرانسـا كانت مهد الورق، وبعض المؤرخين أوصل ذلك أصل هذا اللعب إلى مملكة شارل السادس، وأن اختراعه كان في زمانه لأجل تسليته في وقت راحته وفراغه، وعلى قول هؤلاء المؤرخين، فاللعب المسمى «بيكر» اخترع زمن شارل السابع وداود ملك بيك في كلامهم كناية عن شارل السابع، وما شارل ملك كور فشـارل ماني، وأمّـا سيزار ملك كرو واسكندر ملك تريفل فما حققوا فيها شيئاً، ويظهـر أنهم أرادوا بهـا ملكين من ملوك فرانسا، لأن شعر العيرة الطويل والنعال المصورين بهما لا يشبهان بالكلية شجعان روما ولا مقدونيا اللذين لهما اسمهم، ويؤيد ما ذكرنا أنه يوجد في الورق القديم المحفوظ زهر الزنبق في عباءة الملكين، وهذا علامة الفرنساوية، وقد قلت:

هيفــاء افــرنــجــية قد زَنَـت   تخـطر في الحلي والاستبـرق
فالآس والنسرين في شعـرهـا   والــورد والـزنبق في القـرطف
١٨٤/ســألتـهــا نسبــة آبــاتـهــا   قالـت ألم تنــظر إلى الــزنبق

وأرجين ملكة تريفل كناية عن زوجة شارل السابع ماريه دونجو Maria Dunjia ، وأمّا راسد ملكة كرو فهي اكنيس سورل، وأمّا بالاس ملكة بيك فهي جان دارك، وأمّا جوديت ملكة كور فهي القيصرة بهذا الاسم زوجة لويز لبثون يعني الطيب، وأمّا لاهير خادم كور فهو كناية عن قبطان كبير في وقت شارل السابع، وأمّا هيكتور خادم كرو فهو هوكتور غالودان شجاع في ذلك الوقت، وأمّا أوجير خادم بيك فكناية عن شجاع في أيام شارل ماني، وأمّا لانسلو خادم تريفل ففارس في ذلك الوقت، والخدام الأربعة المسماة في لعب الاسبانيول بالفرسان، كناية عن الأعيان والسبعات والثمانيات والتسعات والعشرات كناية عن العسكر، والآس كناية عن المال والصيد، مأخوذة من الكلمة اللاطينية «آس» يعني «معاملة رومية»، والاثنان والثلاثة والأربعة والخمسة والستة كناية عن العامة، ولذلك تسمى الورق «الأدنى». وما كانت في عهد شارل السابع بل أُحدثت بعده، وهذا اللعب كناية عن معركة تتقابل فيها العسكر لحفظ الأعيان والملوك، لكن حربهم وإن أجدى لا يُرقّيهم إلى رتبة الملوك، كما هو عادة مخترع هذا اللعب، بخلاف الشطرنج، فإن معركة ربما ترقى فيها البيدق إلى مرتبة الفرزان، ومجالسة الملوك كما هو عادة مخترعيه، ولله القائل: ابن قلاقس الفاضل:

فرزن البـيدق الـتـنـقــل حتّى م   انحط عنـه في قيمـة الدست فيل

وأبو الفضل التميمي: ١٨٥/

دعني أسِــر في البــلاد ملتمســاً   فضــلة مال إن لم يفــر زانــا
فبـيدق الــرّخ وهــو أصغــر ما   في الــدســت إن صار فر زانــا

السادس: جري الخيل: هذا من مقتضيات الزمان اللذيذة، ومن نحو سنتين،

بني لذلك تياتر فيجرون على الخيل، ثم ينطون من فوقها على حبل ثم يرجعون، وتارة يرقصون عليها أنواع الرقص وبالجملة، فقد أدخلوا ذلك في التياتر، وصاروا يلعبون في كل أسبوع مراراً، والناس يذهبون بكثرة لرؤية ذلك، وفي الصيف سباق الخيل في تسارسكيا سلو لمن سبق الرهان، وكذلك في الشتاء على النيفا، وربما تسابقوا في الزوارق صيفاً وخصوصاً الإنكلزيون.

الفصل الثامن

في تقدمهم في العلوم والفنون

لم تزل الروس يوماً فيوماً تنافس غيرها من الأوروبيين في العلوم والصنائع، حتى تقدمت في ذلك، ولهم كما قدمنا أكديميات للعلوم والتصوير والطب وغير ذلك، ولهم المدارس العظيمة، مثل المدرسة القيصرية الكبرى المسماة «الأونيفر ستيت»، وفيها تتعلم التلامذة الذين فرغوا من التعليم اللازم في المدارس الأخرى، فيمتحنون للدخول في المدرسة الكبرى، فإن أجابوا دخلوا، وهناك يبقون أربع سنين، يتعلمون الفقه والدين والرياضيات والأدبيات والمنطق وعلم المعادن والطبيعة والجغرافيا والتواريخ والألسن، حتّى الألسن الشرقية: العربي والتركي والتاتاري والفارسي والأرمني والكرجي، وفي كل سنة يعمل لهم بحث، فإن أجابوا نقلوا إلى ما يلي، وإلّا بقوا، فحينئذ بها تحسب السنة لهم. ١٨٦/ وعدة المدارس الكبرى في الروسيا ستة، واحدة في بتر بورغ، والثانية في موسقو، والثالثة في خاركوف، والرابعة في قزان، والخامسة في كييف، والسادسة في دربات، وهناك مدارس أخرى تسمى «انيستيتون» و «ليسي» و «غيمنازيا»، ومكاتب للأطفال ما يبلغ ٢٣٠. وفي كل سنة يزداد ذلك، وفي المكاتب والمدارس الصغرى يعلمون البنات أيضاً كالصبيان، فيتعلمون النحو والمنطق والرياضيات والأدبيات والجغرافيا والتاريخ والألسن والرقص والتصوير والموسيقى، وتزاد البنات: الخياطة وشغل

الطارة والإبـرة والمنسـج، وتزاد الصبيان: لسان اللاطيني والرومي القديم، وقد حضـرت غير مرة بحث الصبيان والبنات، وعجبت من حُسن إجابتهم عن سؤال الباحثين، فالبنات عالمات حقيقة، وبعلمهن يعشن خصوصاً إذا كانت الأقارب فقراء، فتعلم البنت التي فرغت التعليم أولاد الكبار بماهية سنوية تليق بحالها، وربما أعانت أقاربها، وبعض هذه المدارس ميرية، وللصم والبكم، الذين يعقلون مدرسـة فيهـا يتعلمـون العلوم والتصوير والرقص والألسن، لكن لا يتكلمون إلّا بالإشارة، ولكنهم يكتبون كغيرهم ويرقصون كغيرهم، ومن عجيب ما رأيت أني حضرت ليلة رقص عند رجل من الصم البكم، فكان كثير من الراقصين والراقصات منهم، وكان اللاعب على القانون أعمى، فصاروا يتعجبون من كيف يعرف اللعب ولا ينظر، وصار يتعجب منهم كيف يرقصون على الموسيقى وهم لا يسمعونها:

ولـم يرَ عيبـه أحـدٌ ولكـن يرى، في النـاس كلهم العيوبـا

وكـذلـك للّقطاء بيت فيه يربّون، لكن لا كتربية الأكابر، بل كتربية العامة، فالذكران يكونون عسكراً، وأمّا الإناث يخدمون بنات الأكابر ١٨٧ / المتعلمات في المدارس الميرية، وهذا من الخيرات والمصالح، إذا اللقيط منبوذ لا كافل له فمن لم يكفله بيت المال فمن كافله؟ وهب أنه ابن حرام، فماذا ذنبه؟ والعجب أنه إلى الآن لم يعمل بيت للقطاء في ديار الإسلام مع تقدم التمدن واقتضاء الشريعة، وهذا مثل المارستانات والقشل والاوستباليات التي هي كثيرة في هذه الديار، وكذلك في ديار الإسلام الآن بمعونة الدولة العلية.

خرجنا من ذِكر العلوم والفنون إلى بيوت اللقطاء وذوي الأمراض والجنون:

ولـربمـا ذكَـرَ المحـدِّثُ بعض ما ليس الـنـديمُ إلـيه بالـمحتـاجِ

وثمرات العلوم الكسب بها والفخر والرتب، فمن تعلم خدم بعد فراغ التعليم، وربمـا كتب شيئاً وبثه في الجرنالات أو طبعه مستقبلاً، فيحصل له مدخول من

ذلـك، ولا تستنكف النـاس حتى الأغنياء من ذلك، كما كان في قديم الزمان، ومدخول الأدباء كثير في الروسيا، وفي فرانسا أكثر مثلاً، فمن كتب عندهم غناء وقيل في التياتر، يعين للناظم في كل مرة يغني شعره جزء من محصول ذلك الدور، وأحد هؤلاء الكتاب مسيو سكريب، كتبَ في حياته بإعانة المشتغلين معه ٣٥٠ دوراً، وفي سنة ١٨٣٢م قبل منها مدخولاً إلى مبلغ ٤٨,٠٠٠ فرانك، ومن ذلك الجرنالات وعددها الآن جاز الحد، ففي بتر بورغ بعضها يومي مثل «نخل الشمال» و «السقط» و «أخبار بتر بورغ»، وكلها روسية، ويكتب فيها زيادة على الأخبار بعض أدبيات. وبعضهـا شهـري مثل «ابن الوطن» و «الكتابة الوطنية» و «المعاصر» و «كازيطة الأدب» و «خزانة الكتب للقراءة»، فكل شهر يظهر منها كتاب، وفي السنة ستّ مجلدات، وهذه كتب أدبية جديدة يكتبها أدباء ١٨٨ / العصر، ويظهرونها في قالب الجرنالات للتنشيط، وهناك جرنالات شهرية للأطفال يكتبون فيها نبذاً من العلوم والحِكَم والحكـايات المسلية الـلائقـة بهم، وهنـاك جرنـال فرنسـاوي ونيمساوي، هذا مع قبول الجرنالات الغريبة من فرنسا والنيمسا وغيرها، ومن ذلك تعلمهم الألسن، فالروسي زيادة على معرفة لسانه يتعلم الفرنساوي والنيمساوي وتارة الإنكليزي والطلياني، وأمّا اللاطيني والرومي فيتعلمون، ولكن قلّ مَنْ يتكلم بها، فيندر أن ترى رجلاً أو امرأة في مجلس لا يتكلم بالفرنساوي أو النيمساوي، حتّى أن كبـار الـروس لهم زهـادة في لسـانهم، فتـراهم يتكلمون بالفرنساوي، وبعضهم يتكلم بالروسي، لكن يحليه دائماً بالجمل الفرنساوية في الأثناء، ومنهم من يتكلم الألسنة الشرقية، وكثير من الروس مَن مهَر في هذه الألسن، وبرع فيها، فكم ترى في بتـر بورغ وفي الآسيا والأفـريقيا من يحسن ذلك منهم، وقد أغنوا دولتهم عن اتخاذ الغرباء ترجمانات كما كان في السابق.

الفصل التاسع

في سكنى الروس ومعيشتهم ومركوبهم

اعلم أن بيوت الروس مبنية غالباً بالحجر، وتارة بالخشب، لكن مع الإحكام بحيث تقي من البرد، وهو أدوار ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وفي كل الأدوار حتى في الأول الشبابيك والبيوت التي في الحارات المعتبرة في دورها الأسفل الدكاكين والثاني مسكون بالناس، وكل مسكن مستقل وحده. مثلاً قد يسكن في البيت الواحد عدة عائلات مختلفات كل في مسكنه، وفي مدخل الباب أوضة صغيرة، فيها يقلع الداخلون فراويهم وعباءاتهم، ثم يدخل إلى أوضة كبيرة فيها القانون، ثم منها إلى أخرى تسمى مقعد الضيوف، ١٨٩/وأخرى للطعام، فلا يأكلون حيث يجلسون غالباً، وأوضة للاشتغال، وأخرى للنوم، وللكبراء أكثر، وللفقراء أقل، وأثاثهم الكراسي من الخشب الأحمر أو خشب الجوز، وربما بطنوها بالجوخ ونحوه، وتارة يعملونها من الحرير ويحشونها بشعر الخيل، ثم السُّفر وبعضها مستطيل مثل سفرة الكتابة والسفر الموضوعة أمام المرآة وبعضها مستدير مثل سفرة الطعام، ثم المرآة، وفي كل أوضة اثنان أو أكثر بحسب اتساع المحل وضيقه، وهي طويلة، وفي كل أوضة مدخنة محكمة تدفىء كل يوم في أيام الشتاء، وبسبب ذلك الروس متعودون على الدفء في البيوت، ففي الأوضة نحو أربع عشرة درجة حرارة، فلا عجب إذا شكوا في مصر واسلامبول البرد لعدم حرارة الأوض عندنا إلى هذا العدد في الشتاء، وعدم المداخن إلّا المنقل الذي لا يدفىء التدفئة الكافية كما أنه لا عجب إذا شكوت من الحر في بتر بورغ لأن حرّها وإن قل مضعف جدّاً بسبب خلوه من الريح والنسيم الرطب، وبهذا السبب بعينه لا يمكن السكنى في بتر بورغ في الصيف، فترى الناس يفرون منها إلى الريف والضواحي والبلاد

الغريبة، وبيوت ضواحي بتر بورغ منحكمة إلاّ أنها ليست كإحكام البيوت التي في المدينة مثلاً، وفي المدينة تضاعف الشبابيك من الخريف إلى الربيع، ثم ترفع الشبابيك الزائدة، والمداخن مبنية بقطع البلاط المدهونة بالأبيض بحيث لا تشوه الأوض، ومن تحسين البيوت أنهم لا يلصقون على الجدران أوراقاً طويلة عريضة منقشــة، كل على حسب ذوقــه، وبعضهم يكتفي بالتبييض بأي لون يعجبـه، ويعملون للشبابيك زيادة على الستارات البيض ستائر طوال من الحرير أو الجوخ أو الشيت يمسكونها بأيد من التنباك ونحوه، وربما علقوا ١٩٠/على الجدران صوراً جميلة، وعلى سفرهم أشياء لطيفة مثل الشمعدانات والقناديل الفضية، أو التنباك والـدمى الـظريفـة، والتحف النفيسـة، واللعب البـديعة، وربما زينوا الشبابيك بالأزهار، وربما فعلوا نحو عشرين عريشاً من الأزهار في وسط الأوضة ويبسطون السجاجيد أمام السفر والدواوين النقالة والبيوت مبلطة بالخشب، ويغسلونها كل سبت، وتارة يصقلونها بالشمع الاسكندراني، فتكون براقة لماعة، وهذه البيوت بعضها بالكراء وبعضها بالملك، فمن ليس له بيت أكرى، والكراء غال في هذه البلاد خصوصاً في المضايف المعدة للمسافرين، ثم الغالب أن يأكل الشخص في بيتـه بأن يهيىء له الـطباخ أو الطباخة الغداء، وأكلهم الشوربة، ويحب الروس شوربة الكرنب، وقبل الشوربة يشربون العرق قليلاً، وربما أكلوا فسيخاً أو جبناً لجلب الاشتهـاء، ثم بعد الشوربة الخضار ونحوه، ثم الكباب ثم الحلو الفطير ونحوه، وفي مدة الطعام يشربون الراح كالماء القراح، وأكلهم بالسكاكين والشوك والمعالق، وكل يأكل في صحنه، ويأكل بسكينه وشوكته ويشرب من كبايته وقدحه، فإذا فرغوا من أكل كل شيء غيرت الصحون وهكذا إلى آخر الطعام، وفي الأعياد يشربون خمر الشامباني على صحة صاحب العيد في أقداح طوال، ثم بعد الغداء يشـربـون القهوة في أقداح كبار لا في فناجين كفناجيننا بالسكر والحليب، وفي الصباح منهم من يفطر عليها، ومنهم من يفطر على الشاي أو الشكولات، وفي المســاء يشربون الحليب أو الليمون أو هكذا، والشاي لازم جداً في هذه البلاد

خصوصاً في السفر، فهو يقوي البدن وينعش الجسم، وفي أول شربة يمنع النوم لكن بعد التعود ١٩١/عليه لا يضر، ويشربون الدخان في السيقان، ويشربون السيجار وتارة الدخان في الورق الملفوف، وندر شرب الشيشة إلّا عند الفرس، فهم المتوحدون في هذه الديار بتعاطيها، والعاملون بما قيل فيها:

هات اسقنيَ التنباك من نرجيلة نغماتها تغني عن القانون
تغني المزاج عن العلاج وربما يغنى بها الآسي عن القانون

«القانون الأول: آلة الموسيقى».

«والثاني: كتاب ابن سينا في الطب، وقد اتفق لي جناس في القانون تامّاً ومركباً»، فقلت مواليا:

موال نعماني

في وصف حاجب على الألحاظ ألقى نون
سطرت نوبة على السنطير والقانون
يا اللي رضابك شفا يروي عن القانون
ارحم متيم غدا جسمه يشابه عود
وزاد غرامه ولا حدش لسقمه يعود
ما به صدود عن حبيب وخلف وعود
ما به عذول في غرام زاد على القانون

قد استطردت في هذا الباب لأنه باب كيف مع أني ما خرجت عن القانون وإكرام الضيوف في المساء بالشاي والدخان وأنواع الفواكه، وفي الحلوى وفي الصبح تارة بالقهوة والدخان، وإذا جاء الضيف فلم يجد صاحب البيت ربما قبلته امرأته وجلست معه حتى يجيء زوجها، وإن كان معرفة لها ولا نكير في ذلك فللنساء المحل الأول، وهن المدبرات لأمور البيت، الملمات لشعث الزوج:

إذا لم يكن في منزل المرء حُرَّةٌ تدبره ضاعت مصالح حاله

ولهن على السفرة المجلس الأول، وأوّل ما يعطى الأكل لهن، وكذلك في الكنيسة، وفي مجالس الرقص، ويستلطف أن يأخذ الرجل بيد امرأة لإعانتها على المشي أو إصعاد السلالم، وربما قبلت أيديهن، وتارة يكون ذلك في القصر، فتأتي الضباط والكبار، ويقبلون يد الأميرة، والعادة طبيعة ثانية ولعنات القلوب ثانية، **١٩٢**/ثم مراكبهم العربات الثمينة بمحلين أو أربعة مقفولة، وتارة مكشوفة، وهي الكاروصات المستعملة في الربيع والصيف غالباً، والدروشكي بمحل واحد واللنيكه بمحلين، وكل ذلك يوجد للكراء، إلاّ أن الكبراء والأغنياء يقتنون ذلك ويتأنقون فيه، ويجر العربة فرسان أو أربعة، وأمّا الدروشكي فواحد، وهناك عربات كبيرة للسفر، وعربات لنقل الأمتعة في غاية الحقارة، وهناك عربات طريق الحديد يجرها البخار، وذلك إلى تسارسكيا سلو، وربما ركبوا الخيل خصوصاً أرباب السيف، وتارة تركب النساء الخيل، لكن حينئذ يلبسن برانيط الرجال ويسمين «أفرون»، وبنات القيصر مشهورات بذلك، وكذلك بنات الكبار، وفي أيّام الشتاء يركبن الجرّار، وهو عربة بلا عجل، لكن يزلقها الثلج فتمشي بالعجل وهو أسهل المركوبات، وفي أوّل هجوم الثلج يتسارع الناس إلى ذلك زرافات ووحدانا، ويسدون عن نفوسهم بذلك أحزاناً، وقلت:

في الثلج أغدو للصفا في عربات الزحلقة
فبتر بورغ كلها حصيرة مزحلقة

الفصل العاشر

في لسان الروس

أصله الصقلب، ولسان الروس غني جداً كالألسنة القديمة، وفيه الإعراب كما في لسان العربي، فالمبتدأ والخبر لا تغيير فيها، بل على أصل الكلمة، وكذلك الفاعل والمضاف إليه مفتوح تارة، المجرور مخفوض، والمفعول تارة منصوب وتارة

كالمبتدأ، والمُعطى له مضموم . . إلى غير ذلك مما فُصِّلَ في نحوهم، وفعل الكون لا يستعمل في الحال بل يحذف كما في العربي، فنقول: نا راض، يعني: أنا راضي، ١٩٣/وعندهم علامة المؤنث في الاسم والوصف تارة كالعربي، مثلاً: الكسانـدره، يعني: اسكندره راضه يعني: راضية، وتسهل الترجمة من ألسنتنا الشرقية إليه، وبالعكس للموافقة في كثير من المعاني والتصورات، وأمثلتهم موافقة لأمثلتنا كثيراً، وفي حروفهم الخاء، وعندهم أصوات الحروف الغليظة كالصاد والطاء، فلهذا يسهل عليهم التلفظ بالعربي أحسن من غيرهم من الأوروبيين، ومما يوافق فيه العربي قولهم للشخص في الإخبار عن موت بعض الأشخاص «امر لك بالمعيشة زماناً طويلاً»، وهذا بالكلية مثل قولنا في هذا المعنى: «تعيش»، وفيه كلمات كثيرة أخذت من لسان التاتار والنيمساوي والفرنساوي، وتركيبه سهل، فيجوز تقديم الخبر على المبتدأ والمفعول على الفعل والفاعل إلى غير ذلك، ولا يستعملون للدلالة على الآلة والواسطة ولا للدلالة على مَن له الشيء المسمى عندهم داتلني يعني المعطى له حرفاً، بل يدل عليه بتغيير الكلمة بنوع مخصوص، وأشعار الروس بديعة للغاية وبعضها كأشعارنا، وقلت مترجماً شعراً روسياً في مدح شجاع:

إذا ركب اللجّات جاشت مياهها	وإن مرّ في طود تفقّع جلده
وإن طاف ما بين البلاد تدهدهت	وترمي وراء السحب أبراجَها يده

وقلت مترجماً في الغزل:

الزهر إن جدَّ لا ينمو بغير هوا	والقلب إن شبّ لا يحيى بغير هوى

وقلت كذلك:

لأجلها وحدها الآفاق نيّرةً	والبلبل الليل قد غنّى على الزّهر
كالند عَرفاً ومثل البان قامتها	لطيفة مثل وردٍ زِينَ بالخفر

سمـا الجنـوب التي تزهـو كواكبها تلوح من عينهـا الـزرقـاء للنـظر

١٩٤/ومما ينبغي أن يُتنبه له أن المترجِم من لسان لا بد أن يلاحظ ما يكون مقبولاً في اللسان الآخر، وإلاّ غيِّر كما فعلت في هذا الشعر الأخير، فإن الشاعر شبّه في الأصل القامة بالنخلة الهندية، وهذا بديع في اللسان الروسي، مُستهجَن في العربي، فلذا غيّرْتُه إلى البان، والمؤدَّى واحد، وهنا حبست عنان القلم، وله قلت:

يراعيَ كُفَّ الخـوض فالبحر زاخرٌ ولا تتجارى قد جرى منك ما كفى

والله أسأل، وبنبيه أتوسل أن يكون هذا التعليق مقبولاً عند السدة العلية والعتبة الخاقانية، وأن ينظر إليه العلماء الأعلام بعين الإنصاف، وأن يحودوا عن سبيل الاعتساف، فما قصدي إلاّ التبصير، وما مرامي إلاّ التذكير، وإن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب.

قد تم بحمد الله تبييضه في أوائل شهر ربيع الأول ١٢٦٦ من الهجرة النبوية على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية الموافق ذلك لأوائل كانون الثاني في سنة ١٨٥٠ من الميلاد، والله ولي السداد على يد مصنفه الفقير:

محمد عياد الطنطاوي المصري ببتر بورغ



مقتطفات من كتاب:

أحسن النُخب في معرفة لسان العرب

الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى

معلم العربي في مدرسة الألسن الشرقية

والمدرسة الكبيرة الامبراطورية ببتربورغ

مواويل

١

يا ربّ صاحبْ امانه نعلمو مِرْسال

لِلّي جَرَحْنا وبعدِ الجرح لم بِيِسّال

سَايِق عليك النّبى لم تقطعوا السِّلْسَال

خلّى قناة الوداد بيناتنا تجرى

والله النبى عَصّحابه *) كل يوم بيسال ، ، *) على الصحابة

٢

عاشِق راى مُبْتَلى قال له انت رايح فين

قعد قرا قصّته بكيوا سوا الاتنين

واحد كواه الهوى واحد كواه البين
راحوا لقاضى الهوى الاتنين سوا يشكوا
بكيوا التلاتة وقالوا خلنا راح فين ».

٣

وحق يا بدر من اتقن بهاك وصفاه
واودعك حسن حارت فى صفاه وصفاه
ارحم متيّم وصالك له هناه وصفاه
يا كعبة الحسن قلبى بالحَمى طايف
يبيت يِسْعَى على مَرْوَا اللّما وصفاه

٤

اللى خد الودّ تجْرَه والغرام صَنْعَه
ما تعجبوا مصر يُسْكنها ولا صنعَه
واللّى راى من ضيا خدّ الجميل لمعه
سَلّى فؤاده بها الدنيا وما فيها
وخاف عليها وسكّنها صميم الأمّعَه

٥

يا اللّى معاكم دوا للمبتلى ودرور
رايحين تروحوا وَانَا مواجعى مضرور
دور يا عليل دور على ربع الاطبا دور
اياك عسى الله يشفوا لك جراحاتك
وان طيبوك يا عليل ابنى حَدَاهم دور

٦

تِه يا رشا بالجمال اللى انتَ اهلًا له

وارحم متيَّم من اجلك فاتِ اهلًا له

يِفْرَح وِينْسَىٰ لمّا تقول اهلًا له

يا حِبّ واصل ولا تسمعْ كلام واصل

خلِّ العَذُول ينكَمَدْ ويقول آه لآن له ،.

٧

الاهيف اللى حمى ورد الخدود وقناه

وله قوام يزدرى سمر الرماح وقناه

عينى من اجله تسيل بحر الدموع وقناه

آوّاه لمن قد ملك هذا الجميل وقناه

٨

موّال نعمانى

يا قلب ان كنت فى حبّ الجمال مجروم

اقرا حروف نصب عندك واترك المجزوم

وان كنت تدرى البديع وتطرز المنظوم

قاضى الغرام لمّ قتلى الشوق وَامَرّهم

وكتب لهم خط فى اوراق وأمَرّهم

ما تعشقوا الا العيون السود وحورهم

والخال وعذب اللّما واللؤلؤ المنظوم

٩

مَوّال نعمانى للمصنف

فى وصف حاجب على الالحاظ القى نون

سَطّرت توبه على السنطير والقانون

يا اللى رضابك شفا يروى عن القانون

ارحم متيّم غدا جسمه يشابه عود
وزاد غرامه ولا حدش لسقمه يعود
ما به صدود من حبيب قلبه وخلف وعود
ما به عذول في غرامه زاد على العانون ،؟،

١٠

ان مات ظريف الشمايل كبل ما اطوله
لاسال على ضُرْبته وامدّ في طوله
وان جوا الملوك يسالوه لارد مسئوله
واقول صبي وصغير السن ما يوعاش
دهروا عليّ للحساب واصحوا تروحوا له ،؟،

١١

يا اللي انت ماشي وتتبختر على مهلك
جعلت صبّك من الهجران على مهلك
صيّرت صدّك على العشاق عَلامَهْ لك
يا هنترى الصد والهجران عن صبك
هوَّ عَلام العذول والا علام اهلك

١٢

حلال من الله ادى كم شهر ما اشوفك
يا اللي تغطّى سواد عينيك بكفوفك
ان جدت بالوصل من اصلك ومعروفك
ما جدت بالوصل اهيّا العين بتشوفك

١٣

ما كان عشمى بهدى النار توليعى
ولا انشباكى ومنعى بعد توليعى
قالوا اش بلاك بالمحبّة قلت تطليعى

والّلى احبّه رمانى واحتجب عنى
فى بحر عشقه ولم يامر بتطلبعى .'.

١٤

ان آذن الله لنرد الصدف لاهله
ونروح سوق الجواهر نغتنم باهله
وابن الكرام اذا اختفى دا بسّ من جهله
مسكين يا اللّى نقول الرزق بالحيلة
تبارك الله فى الرزق المقيم باهله .'.

١٥

يا اولاد الحلال يا مردّين سائر اللهفات والامانات
انا غزالى شرَد هوّش عليكم فات
قالوا اش امارت غزالك قلت له لفتات
بجوز عيون سود بخدود حمر زى الورد
قالوا كلامك صحيح تَوّه علينا فات

١٦

يا بدر تيهك على صبّك دلال والا
قاضى الغرام لك علينا بالجفا وَلّى
لك وجه وضّاح اذا شافه الهلال وَلّى
يا بدر واصل عليل فى محبتك مضنى
وارثى لحالى لان الصّبر قد وَلّى .'.

١٧

ان دور السحر فى طرف الرشا اوحاك
فاعلم بانه الى طير البلا اوحاك

ولا يغرّك اذا كان الوشا ضحّاك
يضحك عليك وقصده فى الشرك يرميك
وان تختفى باذاك عاشقه ضحاك .

١٨

دموع اهل الغرام الشوق جرّام
ونفسهم للمحبّة غصب جرّام
والحبّ ملك الحشا جوّا وبرّام
قال العذول دول سلوا قطعا وهو يكذب
جا لهم مجرّب حلف عنهم وبرّام .

١٩

عيونك السود ديل دعج فتك وكسر
ولّت جيوش العرب والترك منهم كسر
ومثل قامتك ما حازت ملوك الكسر
لاجلك تركنا متاجرنا وعدنا كسر .

٢٠

بالله يا بدر من اغراك ٣ ساعى
افتى لك الحنبلى ام قال لك الحنفى
وان كان مالك راى فى مذهبه تلفى
دا انا اعرف ان المذاهب فى الخلاف رحمه
فى مذهب الشافعى شرط المحب يفى .

٢١

يا بدر اهل الصبابة اصبحوا فى حال
اسرى مجاريح اهيف خمر ريقه حال

ولا ضنانى وسمعتى كلام الخال
وشرّد النوم عن عينى وجننى
الا الغزال الذى فوق صحن خدّه خال ؛.

٢٢

الشهد ما لذّ لى وازاى ما اكل صبر
والصبر منى فرغ يا من يجيب لى صبر
الصبر عُقْبُه فرج واحلى من المُتْعاد
يا مّا مجاريح نالوا قصدهم بالصبر ؛.

١٣

يا عينى طيبى وَادِى اللّى كان فى بالك
ما لك وما للجفا واخداه فى بالك
قسمين وبالله وورد الخد وجمالك
قومى اوقدى الشمع واتْملّى بمحبوبك
يا ما سِهِرْتِى ليالى قبل ما جا لك ؛.

٢٤

يا ريت على صبرنا طابت مواجعنا
ولا قعدنا حِدَا الخالى يواجعنا
نار الغرام اشعلت ما بين اضالعنا
تهبّ لكن تطفيها مدامعنا ؛.

٢٥

ظلّوا على اللى صبح فى الحىّ وحدانى
وغلّبه البين فى الأول وفى التانى
فقلت يا بين من دى الغلب يكفانى
فقال لى البين دا مكتوب ومقدّر
واللى انكتب علْحِبين ما ينمحيش تانى ؛.

٢٦

جس الطبيب فى عصاىَ قال لى ايش بك
فقلت نار الغرام فى مهجتى اشبك
قال لى دواك عشب عندى قلت ما عشبك
انا دوايَا اعرفه عند الذى اهواه
خليني اموت فى هوى حبى ولا اعيش بك .؛.

٢٧

للمصنف

الدهر كله عبر للعاقل الفكار
حكم علينا وشحططنا برور وبحار
صبرٍ على دهرنا لمّن يكون غدّار
دايبت ما يصطلح وتعود لمّتنا
ويجوا الحبايب يهنونا ونملا الدار .؛.

٢٨

اسمر سمرمر رقيق الخصر يارن دوس
بيجوز عيون سود بشقّه حاليَة للبوس
لمّن اضمه لحضنى ينثنى كالعوس
بعده جهنّم وقربه جنة الفردوس .؛.

٢٩

يا اللى معاى جرح بالغ والعذول طبيب
من اين اجيب لك دوا تبرى عابه وتطبيب
قالوا عذولك يداويك دامت امر عجيب
خليني انا اموت ولا يدرى عذولى بى
ما ريت مجروح يداويه العذول ويطيب .؛.

٣٠

للمصنف

فى خاطرى يا فريد العصر احضى بك
وينخف القلب خمر الثغر ورضابك

يا بدر اهل الهوى والشوق مرضى بك
نا نا جفا لم هناك احسن من المعروف
وارضى بمغرم بطول العمر برضى بك ؛

٣١

للمصنف

فى خاطرى من لماك الحلو شربة راح
يا من اذا قلت له مرّة تعالى راح
وصلك وعطفك علينا احسن الافراح
نذر علىّ ان سمح بالوصل محبوبى
لاقبّل الخدّ منه والقدم والراح ؛

٣٢

يا حبيب يا جرح كم طبيبا ولايم لك
وجبت لك طب لا ينذال ولا يملك
ان طبت يا جرح لاعمل لك ولايم لك
ما طبت يا جرح دمع العين يكفينى
افعل خلاصك ادين عَلْفرش نايم لك ؛

٣٣

نام الخلى والمولّع ماسك الاوراد
يبكى على ظبى زان الخدّ بالاوراد
ارسل سهام اللواحظ للشجى اوراد
جرح فوادى وحرمنى لذيذ النوم
ادى جرا من عشق حلو اللّما او راد ؛

٣٤

محاسن اللفظ احسن من سخاء الكف
وجه بشوش ولا جوهر بملو الكف
خذ الاصيل ولو كان فى ردا ينلتف

ولا تاخذ للخسيس تصبح برفقه عار
يدم فيك عند ماية وانت تسوى الف ،‘،

٣٥

محبكم عبدكم نوم الهنا جافيه
طحن فواده ونبل غرامكم جا فيه
شاكر جميع فضلكم وقبحكم خافيه
ما تهجروهش وخلوا بالكم منّه
رابط على ودّكم لم يوم يفرّط فيه ،‘،

٣٦

يا ناس على شانكم ظهرت حبايب لى
بتهجرونى كدا وانتم حبايب لى
يا ما يكتب من سيابيكم حبايب لى
انتو الذى قد ورثتوا الحسن عن يوسف
حتى صغير لكم قبل الحبا يبْلى ،‘،

٣٧

موال للمصنف

يا ناس على شان غزال البرّ فى الابحار
نزلت ادوّر وفى الحال خدت مركب نار
انا ترانى وجانى الصد ليل ونهار
اهين من البحر اهين من الهوا والنار ،‘،

فيه تورية لان الهوا بمعنى العشق ايضا وان كان يكتب باليا لكن يكفى فى حصول التورية اتحاد النطق

٣٨

كنت احسد اللى عشق قبلى وانا خالى
واقول يا بخت دا بالعشق عقبا لى

حتى ابتليت بالغرام فى الاهيف الحالى
والنوم حرّم جفونى والهوى اتلفنى
وصبحت مشغول بشى لم كان على بالى .،

٣٩

يا ساقى الرّاح راح مالك وراح مالى
توبة عن الراح راح مالك وراح مالى
لمّن اتى منيتى فى الحال راح مالى
ثمنا شربنا سوا والسكر شتتنا
وقلت يا بدر رحمة لك ورحمة لى .،

راح الاول الخمر وكذلك الثانى وراح الثالث والرابع فعل ماض بمعنى ضاع وراح الخامس بمعنى ذهب فعل معين للموصف مالى .، مالك ومالى اولا مركب من ما النافية واللام مالك ومالى ثانيا اسمان بمعنى ما يملك مالى الاخير وصف من ملأ رحمة البخ الكتابة تبين المعنى وان كان النطق ربما يخفيه لان الهاء هنا تنطق الفا .،

٤٠

نام الخلى للصحاوى قلت عاداتك
لا حب صابك ولا جات قوم عاداتك
لو كنت مثلى خلى بك ربع ساداتك
لكنت تبكى بدال الدمع دمّ صبيب
وتطلق النوم وتلازم وساداتك .،

٤١

عاشق يقول للحمام هات لى جناحك يوم
اطير فى الجوّ وانظر من احبه دوم
قال الحمام دعو باطل قلت غير اليوم
خلينى انا اروح اشاهد ورد محبوبى
وجيب وداد عام، وارجع يا حمام فى يوم .،

رسائلك بالتحاق ليه باعتهم
فيه ناس فى محبتك الارواح باعتهم
لا نوم ناموا ولا الاوطان ساعتهم
طلوا على من صبح فى حال عبر حاله
ومن غيابك وهم يبكوا لساعتهم .:.

قصيده حرب الشام لامين افندى

هيّا بنا هيّا بنا — للحرب نلقى ضدنا
نحن الاسود الكاسره — نحن السيوف الباتره
من ارض مصر القاهره — سرنا وقد نلنا المنى
هيا بنا هيا بنا الخ

بارودنا شراره — يشوى الوجوه ناره
وعزمنا بتناره — من العدا تمكنّا
هيا بنا الخ

نحن المجاهدون لا — نخشى الغبار اذا علا
ولم نصو عند البلا — صدرا اذا الموت دنا
هيا بنا الخ

جهادنا لا ينكر — فى كل قطر يذكر
وسيفنا اذ يشهر — للنصر يبدو معلنا
هيا بنا الخ

اما العلا تقديمها — مستوجبا تعظيمها
الشهم ابراهيمها — ادامه المولى لنا
هيا بنا الخ

ابو خليل في الحروب ما زال كشاف الكروب
وحين يدعى للركوب بالبيض يغزو والقنا
هيا بنا الخ

لما غزونا عكا بالطوب دكت دكا
وللاعادي ابكى هجومنا واحزنا
هيا بنا الخ

فزنا بفتح الطائل والقدس والسواحل
والشام يا اذا الكامل والله قد اعوننا
هيا بنا الخ

ويوم حمص لو ترا على العدا ما قد جرا
وحل بالصد الورا لما استخفوا بطشنا
هيا بنا الخ

ولحماة مع حلب سرنا وجدينا الطلب
فلم نجد من هرب الا طريحا بالصنا
هيا بنا الخ

ويوم بيلا قد سمت وقائعا قد عظمت
وللبغاز فتحت فرساننا واسدنا
هيا بنا الخ

وقد اطلنا قهرهم لما اسرنا صدرهم
ومذ ولينا امرهم ذلوا ومالوا نحونا
هيا بنا الخ

هذا وهذا كله | عزيز مصر اصله
وليس يخفى فضله | يوما على اهل السنا

هيا بنا الخ

فنسال الله المعين | بحرمة الهادى الامين
يديمه للعالمين | مولى مغيثا محسنا

هيا بنا الخ

دو بيت

الغصن اذا رآك مقبل سجدا
والعين اذا راتك تخشى الرمدا
يا من بوصاله يداوى الكبدا
ما تفعله فى اليوم تلقاه غدا .

دو بيت

ما احسن محبوبى وما اجمله
ما اعدل قده وما اكمله
لا يسمح بالوصال الا غلطا
فى النادر والنادر لا حكم له .

موشح

البدر اضحى خدامك | والغصن امسى بك مفتون
يا من اذا زحت لثامك | للحور قالوا نحن الدون
يا من على خده شامه | حارس على الدر المكنون
دعنى اقبل فمك | ضحك وقال لى يا مجنون .

حمل زجل على قد وكل من لبس الاساور ينطلى

ان مت فى حب الخدود النادية
منهم خدوا مية الف قبلة لى دية
قولوا فلان يا اهل الحضر والبادية
مسه الغرام انفد بعمرك يا خلى
وكل من لبس الاساور ينطلى

قالوا انت مقتول العيون وايش ذنبنا
احنا سالنا كشى وقلنا حبنا
قلت الحقوق منكم بخلص ربنا
من حط نار قلبى وقال لها اشعلى
وكل من لبس الاساور ينطلى

وكل ما ادرى القلب منك واعتقه
تبعت وراه لحظك بسحرك تسرقه
مهلا كوبت قلبى كفا لا تحرقه
دا الهجر ذوق ما هوش كدا بالهو بل
وكل من لبس الاساور ينطلى

اوقعت جسمى من صدودك فى الضنا
وكل ما اقول واصلنى تقول لى فضنا
من لوعتى والشوق وسقمى والعنا
فى كل يوم بادور على عشرين ولى ،'.

نظم

يا قلب الاحباب زاروك
ولهم زمان هاجرينك

سلم عليهم بالاحصان
واضحى لعقلك ودينك ،'،

خد لى الامان من اجفانك
لا يجرحونى فى لعبه
وقل عنى هجرانك
نار الغرام تحكم صعبه ،'،

نظم
بالله يا ساكنى سرّى
عودوا الى منزلى عودوا
ان زرتم ينجبر كسرى
واخضرّ لى بالوفا عود ،'،

آخر

شبكتنى ومروّح والى كتب لك كان شاطر
واصل محبوبك واطلع دا الحب ما هوش بالخاطر

آخر

ما تحسبونا رحلنا ما تشمتوش يا الاعادى
احنا سافرنا وجينا وبلغنا المرادى ،'،

آخر

زعق الغراب قلت له خبر من فوق عالى الجريده
مسكين من تطرده الخيل وتكون بلاده بعيده

آخر

يا ابو الزالف يا ابو الزالغى | حبيبى راح مع الولغى
انا فى محبتك سالك | وانت محبتى تارك
وحق جبينك الوضاح | وشعرك الاسود الحالك
تواصلنى انا عبدك | وراحة العبد على المالك

يا ابو الزالف الخ

انا يا بدر حبيتك | ولى كم شهر ما ريتك
وروحى يا رشا اعطيتك | ما يكفاش بقا نانا

يا ابو الزالف الخ

لروح الاوليا واقرا | ولا خلّى ولا مقرى
وان كان العذول يدرى | يريد الحال واياانا

يا ابو الزالف الخ

آخر

حبيبى يا ناسى حبيبى | يا شوقى يا تعذيبى
حبيبى ما هوش فيكم | هاتوه لى والا اشتكيكم
واعمل خلاصى فيكم | حبيبى يا ناسى حبيبى
يا ابو العيون الفُتّك | وان فُتّنى ما فُتّك
دولا الملاح فيك فُتّك | حبيبى يا ناسى حبيبى
سيف اللواحظ ماضى | وايش ما عملته راضى
يا ريت يعود الماضى | حبيبى يا ناسى حبيبى ،،

شعر

مرض الحبيب فعدته | مرضت من ولهى عليه
شفى الحبيب فزارنى | فشفيت من نظرى اليه

آخر

مرّ الغزال وليس لى بمَسلّم | ظنّ العوازل انه غضبان
فاجبتهم لست النبى محمّدا | حتى علىّ تسلّم الغزلان ،،

آخر

اقرن برايك راى غيرك واستشر
فالراى لا يخفى على اثنين
المرء مرءآة تريه وجهه
ويرى قفاه بجمع مرءاتين ،،

آخر

اذا كنت فى حاجة مرسلا   فارسل حكيما ولا توصه
وان باب امر عليك التوى   فشاور لبيبا ولا تعصه

آخر

اذا نهض السعد فانهض له   واقدح من الماء ان شئت نار
وان رقد السعد فارقد له   فما السعى فى العكس الا بوار ،،

آخر

اذا جادت الدنيا عليك فجد بها   على الناس طرا قبل ان تتفلت
فلا الجود يفنيها اذا هى اقبلت   ولا البخل يبقيها اذا هى ولت

آخر

ان المقادير اذا ساعدت   الحقت العاجز بالحازم ،،

آخر

اذا المرء اعيته المطالب يافعا   فطلبها كهلا عليه شديد

آخر

تعلم يا فتى والعود رطب   وذهنك لين والطبع قابل
فحسبك يا فتى عزا وفخرا   سكوت الحاضرين وانت قائل ،،

آخر

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولن تلين اذا قومتها خشبا

آخر

لا تحسب المجد تمرا انت اكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

آخر

المجد يلومنى انى احاوله وليس يلزمنى ان اغلب القدرا

آخر

لحمل حجارة فى يوم حرّ ونقش بالاظافر فى حديد
احبّ الىّ من ايصال معنى دقيق فهم ذى عقل بليد ،،

آخر

انى اطلعت على الديار وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

آخر

بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

آخر

نصحت فلم افلح وغشوا فافلحوا فاوقعنى نصحى بدار هوان
فان عشت لم انصح وان مت فانْعَ لى على ناصح مِنّى بكل لسان ،،

آخر

افد طبعك المكدود بالجد راحة تصحّ وعلله بشىء من المرح
ولكن اذا اعطيته المرح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

آخر

اقرن برايك راى غيرك واستشر
فالراى لا يخفى على اثنين
المرء مرآة تريه وجهه
ويرى قفاه بجمع مرآتين .

آخر

اذا كنت فى حاجة مرسلا فارسل حكيما ولا توصه
وان باب امر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه

آخر

اذا نهض السعد فانهض له واقدح من الماء ان شئت نار
وان رقد السعد فارقد له فما السعى فى العكس الا بوار .

آخر

اذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طرا قبل ان تتفلت
فلا الجود يفنيها اذا هى اقبلت ولا البخل يبقيها اذا هى ولت

آخر

ان المقادير اذا ساعدت الحقت العاجز بالحازم .

آخر

اذا المرء اعيته المطالب يافعا فطلبها كهلا عليه شديد

آخر

تعلم يا فتى والعود رطب وذهنك لين والطبع قابل
فحسبك يا فتى عزا وفخرا سكوت الحاضرين وانت قائل .

آخر

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولن تلين اذا قومتها خشبا

آخر

لا تحسب المجد تمرا انت اكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

آخر

المجد يلزمنى انى احاوله وليس يلزمنى ان اغلب القدرا

آخر

لحمل حجارة فى يوم حرّ ونقش بالاظافر فى حديد
احبّ الىّ من ايصال معنى دقيق فهم ذى عقل بليد .،

آخر

انى اطلعت على الديار وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

آخر

بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

آخر

نصحت فلم افلح وغشوا فافلحوا فاوقعنى نصحى بدار هوان
فان عشت لم انصح وان مت فانْعَ لى على ناصح منّى بكل لسان .،

آخر

افد طبعك المكدود بالجد راحة تصحّ وعلله بشىء من المرح
ولكن اذا اعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

آخر

لا تحقروني على ما فيّ من صغر   ان البعوضة تدمي مقلة الاسد

آخر

حب الرياسة راس كل خطيئة   فاحذر وقيت من الرياسة باسها
كم من فتى اضحى يُقبّل راسها   لو كان يعلم باسها ما باسها ،؛

آخر

تأمّلَ في الكتاب وهزّ راسا   وحرّكَ شاربيه وقال هاها
واوهم انه يدري علوما   وحقك ليس يدري ما طحاها

آخر

كبّر الكمّ والعمامة جهلا   وحشا حشوها بهيش وريش
ويمينا قد برطعت وشمالا   وهو يمشي كمشية الاكديش

آخر

تمنيت من اهوى وحين لقيته   دهشت فلم املك لسانا ولا طرفا
وكنت معدّا للعتاب صحائفا   فلما التقينا ما ذكرت ولا حرفا

آخر

ومن الشقاوة ان تحبّ ومن تحب يحب غيرك
او ان تريد النفع للانسان وهو يريد ضيرك

آخر

من حط ثقل رحاله   في باب مالكه استراحا
ان السلامة كلها   حصلت لمن القى السلاحا ،؛

في قاض امتنع من رد امانة

ان قال قد وقعت فيصدق انها
وقعت ولكن منه احسن موقع
او قال قد ضاعت فيصدق انها
ضاعت ولكن عنك يعني لو تعي ،؛،

آخر

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها وتشاكل الامر
فكانما خمر ولا قدح وكانما قدح ولا خمر ،؛،

آخر

ان اكن قد جنيت في الحب ذنبا فاعف عني يا راحة الارواح
اي عقل يبقى هناك لمثلي بين سكر الهوى وسكر الراح ،؛،

آخر

جس الطبيب يدي يوما فقلت له ان المحبة في قلبي فخل يدي
فقال تسقى شراب الورد قلت له في علة الشوق لا في علة الكبد

آخر

القى يديه على صدري فقلت له ابرات مني مكانا انت موجعه
فقال لا تطمعن عيناي قد رمتا سهما فاحببت ادري اين موقعه

اخر

خليلي عج في مسرعا عن ديارهم فاني لا اقوى على طلل اقوى
يعز على الصب المتيّم ان يرى ديار الذي يهوى على غير ما يهوى ،؛،

آخر

قالت لترب وهي معها جالسة هذا الذي في حبّنا نراه من
قالت فتى يشكو الغرام واله قالت بمن قالت بمن قالت بمن

آخر

قل للذي بصروف الدهر عيّرنا
هل عاند الدهر الا من له خطر
وفي السماء نجوم لا عداد لها
وليس يكسف الا الشمس والقمر ،،

فلا تصحب اخا الجهل واياك واياه
فكم من جاهل اردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء اذا ما هو ماشاه
وللشيء من الشيء مقاييس واشباه ،،

آخر

وكاد سروري لا يفي بندامتي
على تركها في دهري المتقادم ،،

آخر

ولا تحقرنّ عدوا رماك وان كان في ساعديه قصر
فان السيوف تحز الرقاب وتعجز عما تنال الابر ،،

آخر

احببتكم من قبل رؤياكم لحسن وصف عنكمْ قد جرا
وهكذا الجنة معشوقة لحسنها من قبل ان تُبصرا ،،

قال رجل من الصحابة فى ابنه يشكوه

غذوتك مولودا وعلتك يافعـا ... تُعَلّ بما اجنى اليك وتُنْهَل
اذا ليلة نابتك بالسقم لم ابت ... لسقمك الا ساهرا اتململ
كانى انا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعيناى تهمل
تخاف الردى نفس عليك وانها ... لتعلم ان الموت وقت موّجل
فلما بلغتَ السنّ والغاية التى ... اليها مدا ما كنت فيك اومل
جعلتَ جزآئى غلظة وفظاظة ... كانك انت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق ابوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

فلما سمع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم اخذ بتلابيب ابنه وقال انت ومالك لابيك ،،

آخر

بقدر لغات المرء يكثر نفعه
فتلك له عند المهمات اعوان
فلازم على حفظ اللغات مجاهدا
لكل لسان فى الحقيقة انسان ،،

آخر

صون الفتى نفسه ابقى لهيبته
ما ذا تهافته فى الموقف الزارى
قنعت فامتد مالى فالسماء يدى
وبدرها درهمى والشمس دينارى ،،

آخر

وشادن من بني النصارى بسيف لحاظه رُميت
خالف في المعجزات عيسى فذاك يحيى وذا يميت

آخر

كن ابن من شئت واكتسب ادبا
يغنيك مضمونه عن النسب
ان الفتى من يقول ها انا ذا
ليس الفتى من يقول كان ابي .:.

آخر

يا ليل طل او لا تطل لا بد لي ان اسهرك
لو كان عندي قمري ما بت ارعى قمرك .:.

آخر

طرق الهوى الباب احسب غايبي جاني
تابى الهوى كذاب يهتر بالمعاني .:.

آخر

ظن الخلق يشكي قام نادمه الخلخال
قال له على ايش تبكي تارى الهوا قتال .:.

آخر

اترك الدنيا رفيق ليس في الدنيا رفيق
انما الدنيا سفينة كل من فيها غريق .:.

آخر

الدنيا ما منها شي ومصيرها للولاش
شبه الذي بات بحلم طلع النهار ما التقاش

آخر

ما يقتلك غيـر دمـك | ما ينفعك غير مالك
واحلف يمين بعد امك | ما فى النسا خيّرة لك

آخر

يا قلب لاكويك بالنار | واعذّبك واكبـدك
يا قلب حملتنى العـار | اللى تريد من لا يريدك

آخر

ان كنت راضى عليّه | خل العواذل تقوم
واللى معاه القمـر | ما له وما للنجوم

آخر

يا اللى عليك الاعادى | فوض امـورك الى اللـه
واحسب حساب المريسى | وان جات طيابة على الله

اخر

اوصيك لا تعشق اللبس | واطلب من الله الحمايه
ما تنظـر الجير والجبس | يستر ردى البنـايـه

آخر

بغل العنب ايش معناه | حامل ثقيل الاراطل
غيره بيتلـذذ بحلـواه | وهو على الحمل عاطل

امثال وحكم ونوادر واشعار واخبار والغاز

نصب رجل من بنى اسرائيل فخا فجاءت عصفورة فوقعت عليه فقالت ما لى اراك منحنيا قال لكثرة صلاتى انحنيت قالت فما لى اراك باديا عظامك قال لكثرة صيامى بدت عظامى قالت فما لى ارى هذا الصوف عليك قال لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف قالت فما هذه العصى عندك قال اتوكا عليها قالت فما هذه الحبة فى يدك قال صدقة ان مرّ بى مسكين ناولته اياها قالت فانى مسكينة قال فخذيها فقبضت على الحبة فاذا الفخ فى عنقها فجعلت تقول قعى قعى

المعنى لا تغتر بناسك مرآء ابدًا

✣

اسد وثعلب وذئب

خرج اسد مرة ومعه ثعلب وذئب فى طلب القوت فاصطادوا حمار وحش وغزالا وارنب فلما رجعوا قال الاسد للذئب اقسم بيننا فقال الذئب حمار الوحش للملك والغزال للثعلب والارنب لى فامسكه الاسد من ساقه كان ان يفصله ثم قال الاسد للثعلب اقسم فقال الثعلب حمار الوحش للملك يتغدى به والغزال للملك يفطر به والارنب للملك فيما بين ذلك يتعلل به فقال الاسد ما اقضاك يا ثعلب من علمك القضا فقال الثعلب علمنى ساق الذئب

✣

صاد رجل من بنى اسرائيل قنبرة فقالت ما تريد ان تصنع بى قال اذبحك قالت والله ما اشفى من برم ولا اغنى من جوع ولكن اعلمك ثلاث خصال هى خير لك من اكلى اما الواحدة فاعلمها لك وانا فى يدك واما الثانية فاذا صرت على الجبل واما الثالثة فاذا صرت على الشجرة فقال هات قالت لا تتلهفن على ما فاتك فلما صارت على الجبل قال هات الثانية قالت لا تصدقن بما لا يكون انه يكون ثم طارت فصارت على الشجرة

وقالت له يا شقي لو ذبحتني لاخرجت من حوصلتي درة تزن عشرين مثقالا فعَضّ على شفتيه وتلهف ثم قال لها هات الثالثة قالت له انت قد نسيت الاثنتين فكيف اعلمك الثالثة الم اقل لك لا تتلهفن على ما فاتك فقد تلهفت على فوائتي وقلت لك لا تصدق بما لا يكون انه يكون فصدقت انا وعظمي وريشي لا ازن عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتي ما يزنها

❖

وفد حاجب بن زرارة على كسرى لما منع تميما من ريف العراق فسُئل من طرف كسرى آسيّد العرب انت قال لا قال فسيّد مضر قال لا قال فسيِّد بني ابيك قال لا ثم اذن له فلما دخل عليه قال له من انت قال سيّد العرب قال اليس قد اوصلت لك اسيد العرب فقلت لا حتى اقتصرت بك على بني ابيك فقلت لا قال له ايها الملك لم اكن كذلك حتى دخلت عليك فلما دخلت عليك صرت سَيِّد العرب قال كسرى آه املئوا فاه دُرًّا ثمّ قال انكم معشر العرب غُدْرفان اذنت لكم افسدتم البلاد واغرتم على العباد وآذيتموني قال حاجب فاني ضامن للملك ان لا يفعلوا قال فمن لي بان تفي انت قال ارهنك قوسي فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا الهذه العصي يفي قال كسرى ما كان بسلمها لشي ابدًا فقبضها منه واذن لهم ان يدخلوا الريف ومات حاجب قبل ان يسترد قوسه فارتحل ابنه عطارد الى كسرى يطلب قوس ابيه فقال ما انت رَهنتها قال اجل قال فما فعل من رهنها قال هلك وهو ابي وقد وَفى له قومه وَوَفى هُوَ للملك فردها عليه وكساه حلة فصارت هذه القوس تعدّ من مفاخر تميم قال الشاعر

تَزْهُو عَلَيْنا بِقَوْسِ حَاجِبِهَا   زَهْوَ تَمِيمٍ بِقَوْسِ حَاجِبِهَا

واما صاحبي المرحوم الشيخ عباس اليمني فانه اخذ المعنى وجعل الشطرين متحدين فقال في عشيقته تيم

تِيهُ تَمِيمٍ بِقَوْسِ حَاجِبِهَا   تِيهُ تميمٍ بِقَوْسِ حَاجِبِهَا

وقد رهن قبل حاجب سيار بن عمرو بن جابر الفزارى قوسه على الف بعير للاسود بن المنذر فى دية ابنه وهى دية الملوك ووفاه بها فى خبر طويل

❖

قرا قاضى مرة فى كتاب ان كل من كانت له لحية طويلة وراس صغيرة قليل العقل وكان هذا القاضى بهذه الصفة فقال فى نفسه اما راسى فلا يمكن تكبيرها واما لحيتى فيمكن تقصيرها وفى الحال فتش على مقص فما وجد ومن عجلته ان يصير عاقلا او اقل ما هناك نصف عاقل قبض على لحيته وقربها من الشمعة فاحترق نصفها ووصل اللهيب الى يده فلم يتمالك ان رفعها واحترق سائر لحيته فصار عبرة لمن اعتبر وحينئذ تحقق له ان ما فى الكتاب صحيح اذ لا يفعل عاقل ما فعل

❖

كان ابن الراوندى رجل مجذوب وله نوادر مضحكة من جملتها انه كان فى جمعيّة فاحضروا بندق لاكرام الحاضرين فقال صاحب البيت لابن الراوندى اقسم بيننا البندق فقال ابن الراوندى اقسم بينكم كما قسم الله او كما يقتضيه عقلى فقال الحاضرون كما قسم الله احسن فاخذ ابن الراوندى يقسم فاعطى واحد بندقة وواحد بندقتين واخر ثلاثة واخر اربعة ثم اعطى كبشة كبيرة لرجل جاهل كان بين الجمعيّة لكنه غنى فقالوا له لم فعلت هكذا وقسمت بيننا بغير العدل فقال الحق عليكم لا علىّ لانى سالتكم اولا ففلتم لى اقسم بيننا كما قسم الله والله يعطى لواحد قليل ولاخر اقل ولواحد كثير وللثانى اكثر فضحكوا منه

ومن نوادره ايضا انه حمل قفة قمح واراد ان يوديها الى الطاحون لكنه تفكر فى الطريق وسال الله ان يقلب القفة ذهب ثم صبر قليل ووضع يده فى القفة فوجد القمح بحاله فقال يا رب اقلبها فضة ثم كان الدعا الثانى غير مقبول كالاول فقال رب اقلبها فلوس والدعا الثالث كالاولين فقال يا رب من فضلك اقلبها وفى الحال عثر وانقلبت القفة على الارض فقال يا رب لاى سبب لا تفهم الا المعنى الردّى لان قلب معناه غيّر وطرح

ومن نوادره ايضا انه كان فى مركب فاشرفت على الغرق فصار الناس يتوسلون بالاولياء فبعضهم يقول يا سيّد يا بدوى والآخر يقول يا ستى زينب والثالث يا ستى نفيسة وابن الراوندى ينظر الى السماء ويقول يا رب غرِّق وكان بقربه رجل تركى فغرقت المركب ولم ينج من الركاب الا ابن الراوندى والتركى على لوح من الواح السفينة فلما خرجوا الى البر اخذ التركى يخاصمه ويقول له انت غرقت المركب بدعائك عليها فتكون ضامن لى امتعتى فقال له لما رايت الناس نسوا ربّهم واشتغلوا بدعاء الاولياء دعوت انا الله ان يغرق المركب عقوبة لهم ففعل

ومن نوادره ايضا انه دخل الحمام فوجد فيه عبدا اسود وهو محفوف بالخدم واهل الحمام يقدمون له كل انواع الخدم بعضهم يكيّسه والاخر يصبّنه والثالث يجيب له الماء والرابع الفوط والخامس يقدم له القبقاب قال ابن الراوندى لمن هذا العبد فقالوا لفلان التاجر فنظر الى السماء وقال يا رب انظر عبدك من عبيد الناس

ومن هذه النادرة اخذ الشيخ عبد الرحمن الصفتى نادرة مثلها وذلك ان فى القاهرة رجلا يسمى الغلبان كان فقيرا فاستغنى وحصل له القبول وكان فى خدمة المرحوم الشيخ المهدى فكان اذا مرّ راكبا بغلته على عادة الاكابر والعلماء يقول الصفتى يا رب انظر الى غلبان المهدى من غلابينك

*

خرج بعض الادباء يتفسح من ضيق صدره وقلة ما بيده فراى رجلا فلاحا معه اربعون حمارا راكبا واحدا منها وسائقا الباقى امامه فقال له كم معك من الحمير قال اربعون قال عدّها فعد فقال تسعة وثلاثون لكن من بهامته لم يعد الحمار الذى تحته فنزل وقال كيف هى اربعون وعدها فوجدها اربعين ثم ركب واراد ان يسوق الحمير فقال له الاديب عدها فعد تسعة وثلاثين وقال اين الاربعون فقال له الاديب الحمير واحد واربعون لا اربعون فقط وعدّ الحمير التسعة والثلاثين ثم اشار الى

للحمار الذى تحت الفلاح وقال اربعون والى الفلاح وقال احـد واربعـون فخجل الفلاح من جهله وانصرف واستمر ذلك الاديب فى متفسحه فوجد ستنا لابسة بدلة فاخرة وحولها الجوارى والخدم فمشى الاديب وصار يتلفت حتى نظر وجهها لان فى الخلا لا تتقيد الستات خصوصا الاكابر بتغطية الوجه فوجدها قبيحة جدا ومشى قرب الساحل فوجد بنتـا فقيـرة لكنها بديعة الجمال تملى الماء وعليها قميص خَلَق فقط ولا خمار لها فقال الاديب شعرا

وكم حمـار له حميـر ... وكم لبيب بلا حمار
وكم قبيحه بالف بُقّجه ... وكم مليحه بلا خمار

✣

قيل ان الاسكندر قال لمعلمه ارسطـاطاليـس اصنـع لى شيـا من السياسة اعتمد عليه فى امـر الملـك فصنف له فى ذلك كتبـا طال عليه مطالعتها وعسر عليه لكثرة الاشغال معاودتها فى كل وقت ومراجعتها فساله ان يختصر له قولا وجيزا يجمع المعانى الكثيرة فاختصر له هذه الكلمات فلم تزل تحت وسادة الاسكندر يلاحظها فى كل وقت الى ان مات وهى

١ العالم بستان سياجه الدولة
٢ الدولة سلطان تعضده الملة
٣ الملة شريعة يقوم بها الملك
٤ الملك راع يعضده الجيش
٥ الجيش اعوان يكفلهم المال
٦ المال رزق تجمعه الرعيّة
٧ الرعية عبيد يسترقهم العدل
٨ العدل مألوف به قوام العالم

وهذه الحكم بايها ابتدات توالى لك ما بعده

✣

هو الشبلي احد كبار الصوفية على طاحون فقال لاصحابه تسمعون ما يقول لي الحجر قالوا لا قال يقول يا شبلي كن مثلي ابلع خشن وادى ناعم والا نقشوا بطنك كما نقشوا بطني

فسورة في المادنة

واحدة شريفة شرّف الله قدرها تولد وتحبل من ضوافر رجلها وكل ليل ونهار يعبطوا اولادها في بطنها

فسورة في المركب

شي اشتريته بمالي ما دخل داري

فسورة في القنديل

شي قدّ المدقة وزيّات وكتاذني وسقا

فسورة في الغدر

جندي كركوبه قاعد على الطوبه يضرب باشداقه سبحان خلاّقه

فسورة في السكة

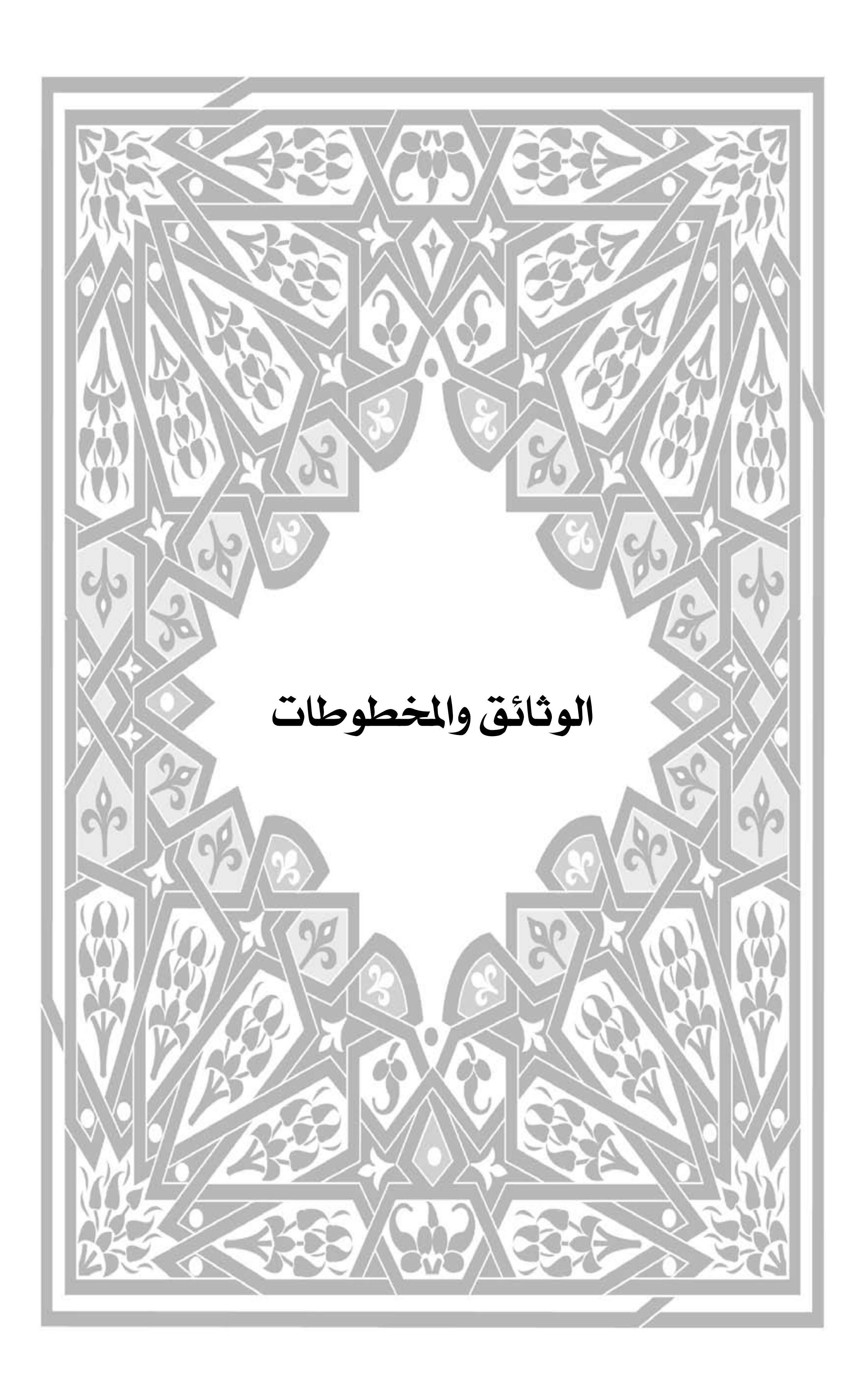
شي طويل طويل معلق في اديال الحمير

فسورة في العود الحديد

فرسي دهما دهما وتجيب الخيل من وسط الزحمه

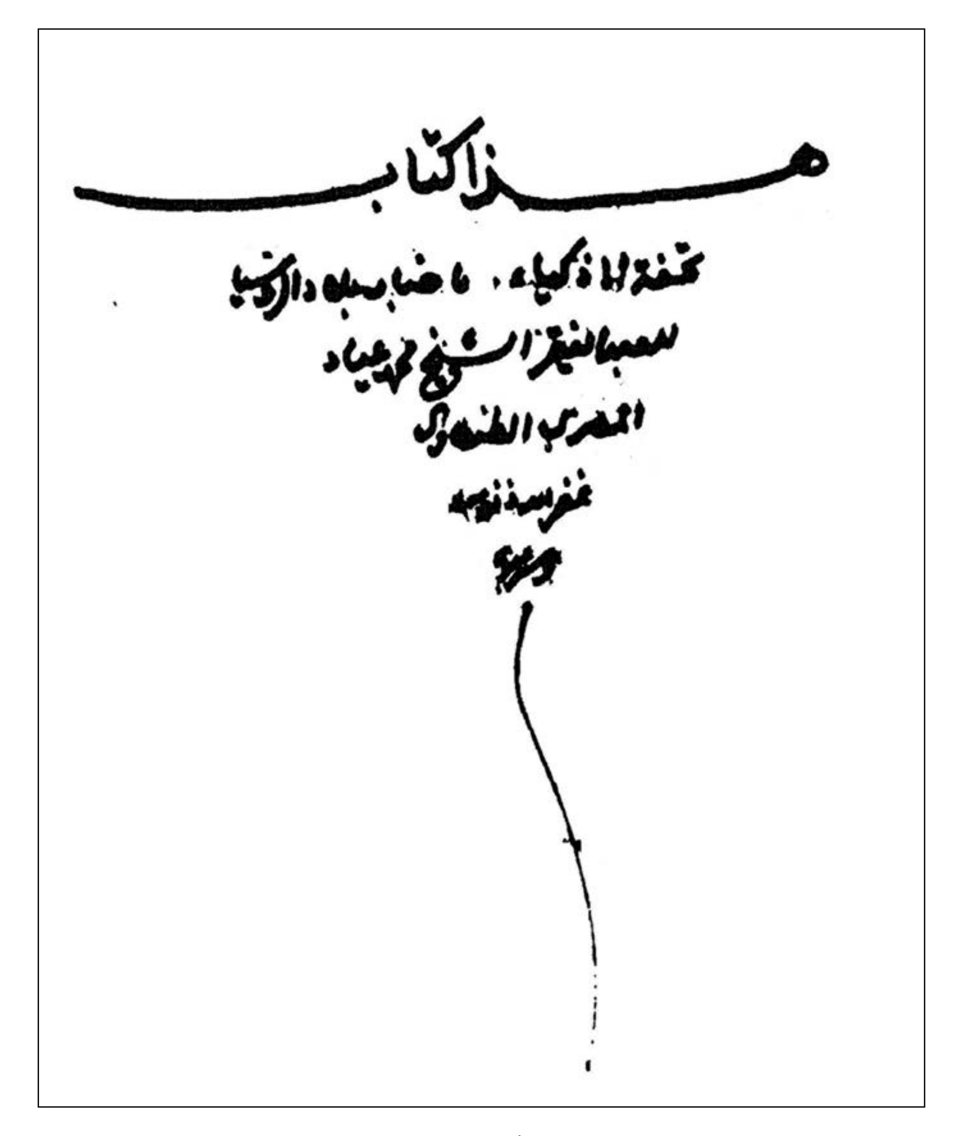
لغز في الخط

شي قدّه قد النمنمه ويجيب الخيل ملجّمه



الوثائق والمخطوطات

من مخطوط كتاب تحفة الأذكياء



هذا كتاب تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا
للعبد الفقير الشيخ محمد عياد
المصري الطنطاوي غفر الله ذنوبه
وستر عيوبه

صورة صفحة العنوان من المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن سير سفينة العالم في تقوى اقطار العالم وقيض
له اعواناً يعضدونه وانصاراً يحوطونه وصلاة وسلاماً على سيدنا
محمد من جفاه اهل بلده ووده الغرباء فهاجر من حرم طيبة الى المدينة
الغراء وعلى آله المهاجرين والانصار آناء الليل واطراف النهار

اما بعد فيقول محمد بن سعد عياد اجراه الله على مناهج الرشاد
العلم رأس مال الاكياس والجهل لكل ضرر اساس والعلم لا حد له ولا
نهاية وبحر لا سيف له ولا غاية والمشتغل به كل يوم يدرك جديداً
ويستنبط بويا وزيدا

ماحوى العلم جميعاً رجل ... لا ولو مارسه الف سنه
انما العلم بعيد نيله ... فخذوا من كل شيء احسنه

ويزداد بالاسفار وجوب البراري والبحار ومكابدة احساس
العالم ان سعة البلاد والنظر فيها اودع من البدائع التي ليس
لها نفاد واما من لازم وطنه ولم يخرج من اسوار بلده سنه فهو عائش
كالصغير الذي يبكي لفراق الحجر وكان ضيق العطن قليل الحجى كما قلت
حين سافرت

ومن لم يغترب في كل قطر ... فكالطفل الذي في حر امه
تراه ساذجاً لا علم يدري ... ويبكي حيث فارقها لهمه

فلهذا رغب عقلاء الامم على اختلاف اجناسهم في السفر ولم يبالوا
لفرط نفعه بما فيه من الخطر وقد كان ذلك ديدن الافاضل
ودأب الاماثل وانظر الى اللبيب الماهر تمثل العلامة الثاني
السعد التفتازاني بقول الشاعر

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبالعذيب يوماً ويوماً بالخليصاء

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

ولقول الحريري ايضا

الا ان العلم [illegible] ... [illegible] العلم [illegible]
[illegible]
و[illegible] [illegible]

ولقول ابي الطيب [illegible] الوزير المقدسي

يا واقفا بين النواحي بعلة ... عطشان يطلب شربة من ماء
ان البلاد كثيرة اهلها ... وسحابها [illegible] من الانواء
ما [illegible] الدنيا [illegible] ... [illegible] على العلماء
ارض بارض والذي خلق الورى ... قد قسم الارزاق والله حياء

وقد اباح [illegible] ... [illegible] واقطار [illegible]
الشاسعة بسبب طلب [illegible] اللغة العربية [illegible]
والسن المشرقية [illegible] ما [illegible] من الميل [illegible]
الى [illegible] والعاقل انما [illegible] وجاهل
غريب في وطنه ... وما عاقل في بلدة بغريب
هذا مع شغف النفس بالاوطان وتأسفها على فراق الاهل
والخلان [illegible] الناس يشتاقون الى اوطانهم ولا يفهمون
العلة في ذلك [illegible] واوضحها ابن الرومي في قصيدته لسليمان بن
عبدالله يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن ابي كامل اجبره على بيع
داره واغتصبه بعض جدرها فقال

ولي وطن آليت الا ابيعه ... والا ارى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة ... كنعمة قوم اصبحوا في ظلالكا
وحبب اوطان الرجال اليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

صورة الصفحة الثانية من المخطوط

وممّا ينبغي أن يتنبه له أن المترجم من لسان لا بد أن يلاحظ
ما يكون مقبولاً في اللسان الآخر والأخير كما فعلت في هذا الشطر الأخير
فإن أن عرشه في الأصل القامة بالنخلة الهندية وهذا بديع
في اللسان الروسي مستهجن في العربي فلذا غيرته إلى [illegible]
وهنا حبست عنان القلم وله قلت

يرام كف الخوض في البحر الزاخر ولا تتجاوز قدر منك ما يكفي

والله أسأل وبنبيه أتوسل أن يكون هذا التعليق مقبولاً
عند السدة العلية والعتبة الخاقانية وأن ينظر إليه العلماء
الأعلام بعين الإنصاف وأن يحيدوا عن سبيل الاعتساف
فما قصدت إلا التيسير وما مرامي إلا التذكير إن أريد إلا الإصلاح
ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب
وقد تم بحمد الله تبييضه في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٦ من الهجرة النبوية
على صاحبها وآله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى التحية الموافق ذلك
لأوائل نوفمبر الثاني سنة ١٨٥٠

من الميلاد والله ولي السداد

على يد مصنفه الفقير محمد عياد

الطنطاوي

المصري

ببطرسبورغ

صورة الصفحة الاخيرة من المخطوط

غلاف كتاب مخطوط أحسن النُخب في معرفة لسان العرب

احسن النخب فى معرفة لسان العرب

للشيخ محمد عياد الطنطاوى

معلم العربى فى مدرسة الالسين

الشرقية والمدرسة

الكبيرة الامبراطورية

بسـتربـورغ

طبع فى مدينة لبسيا فى مطبعة ولهلم فوغل

١٢٦٤

غرة محرم الحرام افتتاح سنة من الهجرة النبوية

على صاحبها ازكى التحية

كتاب أحسن النُخب في معرفة لسان العرب للشيخ محمد عيّاد الطنطاوي والذي طبع في مدينة لبسيا في مطبعة ولهلم فوغل ، وهو كتاب مكتوب باللغتين العربية والفرنسية، وقد إستخدمه الشيخ محمد عياد الطنطاوي في فترات عمله الأولى ببيتربورغ لمعانته في دروس تدريس اللغة العربية- قبل أن يتعلم الروسية ويتقنها .

تاريخ ولادة الامير الكبير شاه زاده نقولة الكساندروفيج

بعث الهنا نحو السرور رسولـه   يقرى عليه سلامه ووصولـه

ان العلا ضحكت بثغر باسم   ووفت لنا بعوائد موصوله

والبشر لاح فكلنا مستبشر   والسعد قاد لكلنا مأمولـه

والارض نافست السماء بزينة   والعر[illegible] الى الصفاء طبوله

والقلب كاد يطير لما فاضت ا[illegible]كرى بقبض بشارة مقبوله

بسماء تاج الملك نجم قد بدا   قد زان بين نجومها اكليله

لاميرنا السامى ولى العهد قد   وافى ولى العهد حب نقولـه

طوباه قد طابا نجارا من له   مثل الامير عمومه وخولـه

POÉSIE A L'OCCASION DE LA NAISSANCE DE SON ALTESSE IMPÉRIALE LE GRAND-DUC NICOLAS ALEXANDROVITCH.

La Félicite envoie son messager à la Joie pour lui présenter ses hommages et lui annoncer son arrivée.

La Sublimite avec un doux sourire nous a comblés de ses faveurs continuelles.

L'Allégresse paraît et tous les coeurs sont animés de joie; le Bonheur a comblé nos voeux.

Les feux de la terre rivalisent avec ceux du firmament; la Solennité fait retentir ses cymbales joyeuses.

Les coeurs s'envolent sur les ailes de la Joie, lorsque la Renommée publie l'auguste nouvelle.

Au ciel du diadème de l'Empire apparaît une étoile qui parmi les autres astres rehausse encore l'éclat de la couronne.

A notre auguste Seigneur l'Héritier du trône est né un auguste Successeur.

Celui qui descend de parents aussi illustres que ceux du Prince, réunit toutes les qualités brillantes.

ورث المكارم كابرا عن كابر يكفيك ان كان الملوك اصوله
ماذا يقول المادحون ومدحه قد اعجز الشعراء فهي كليله
وأرى اعترافا بالقصور كفاية ما لا ينال فلا ينال بحيله
ما ان مدحت نقولة بمقالتي لكن مدحت معالني بنقوله
للروسيا فخر على اخوانها بجنابه ولها الاياد طويلة
ما كنت احسب ان تدرى برتقى حتى اشاهد ملكها وقبيلة
الماجدون المحسنون المكرمو ن المنعمون الحائزون فضيله
الغالبون القاهرون المانعو ن الحافظون مبينه ومقيله
ما اسعد البيت الذى اطنابه شُدَّت بكل مهذب وعقيله
ما اسعد البيت الذى احبابه منصورة وعداته مخذوله
ما اسعد البيت الذى من بطرس اثاره مشهورة منقوله
ما اسعد البيت الذى سطواته راعت ملوك الارض فهي مهوله
انا ضيف قطركمُ وكم من عائد اوليتموا زوّاره ونزيله
وبارض قلبى كم زرعتم نعمة نبتت سنابل شكرها محموله

Il hérite des vertus de son père et de ses ayeux; enfin, c'est tout vous dire: il est le fils des Czars.

Mais que sont ici les louanges? Elles ne peuvent qu'affaiblir le sentiment du poète.

Je reconnais ici ma faiblesse, car un objet inaccessible ne peut même être atteint par l'art.

Ce ne sont pas mes paroles qui célèbrent Nicolas, mais c'est ce Prince qui glorifie mes paroles.

Par lui la Russie éclipse ses soeurs, les autres régions, et les bras de son pouvoir s'étendent au loin.

Mais, hélas, mon faible mérite ne peut jamais s'élever à l'insigne honneur de contempler Sa Majesté entourée des membres de son auguste famille,

Les Illustres, les Bienfaisants, les Généreux, les Protecteurs, les Vertueux!

Les Vainqueurs, les Conquérants, les Défenseurs et les Vigilants!

Heureuse la tente dont les liens sont soutenus par les plus hautes perfections et les vertus accomplies!

Heureuse la tente dont les amis sont victorieux et dont les ennemis sont vaincus!

Heureuse la tente qui repose sur les traces célèbres de Pierre le Grand!

Heureuse la tente dont les attaques ont frappé d'épouvante les rois de la terre!

Je ne suis qu'un hôte dans votre Empire, mais qu'ils sont nombreux, les bienfaits que vous avez prodigués à tous vos hôtes et à tous ceux qui vous ont visités!

Dans le sol de mon coeur, que de bienfaits vous avez semés! Mais ces bienfaits ont porté les épis de la Reconnaissance.

فالآن فاه لسان شكري قائلاً   في حيّكم هل تسمعون مقوله

ادعو الإله مهنئاً ومؤرخاً   للروسيا رغد بطالع نقوله

٣٣٧   ١٢٠٤   ١١١   ١٩١

١٨٤٣

سنة

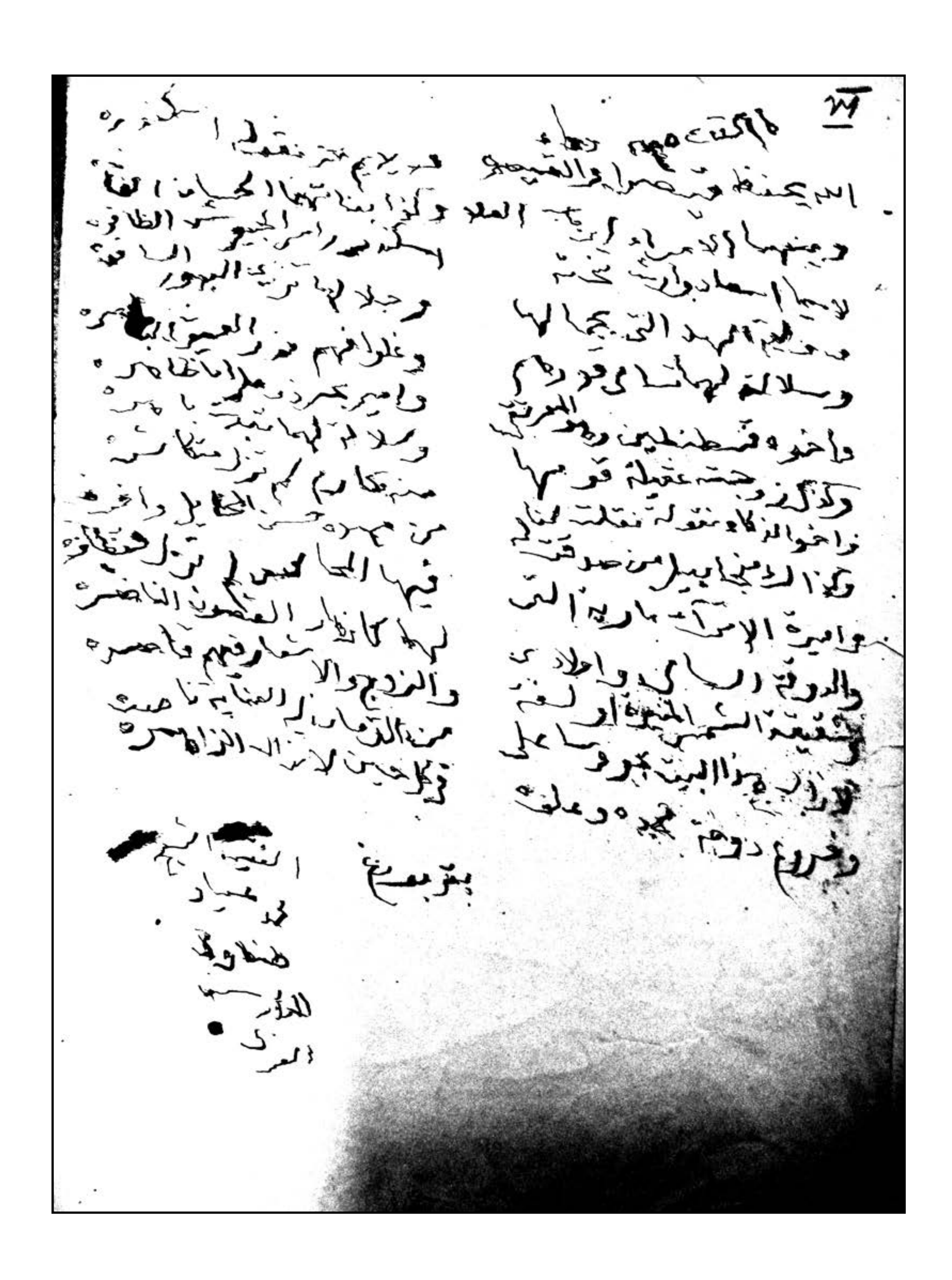
Ma langue publie les accents de la gratitude dans vos régions; dites-moi, ne l'entendez-vous pas!

Je termine en priant le Très-Haut et en félicitant la Russie de la naissance de Nicolas.

Remarque. Le dernier hémistiche contient des lettres dont la valeur numérique forme la date de l'évènement, 1843.

دعاء

مخطوط لم يسبق نشره، للفقيد الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي كتبه بريشته عام 1853 يحوي قصيدة شعرية بإسم "دعاء" ممهور بتوقيعه، المخطوطات مختومة بخاتم جامعة سانت بطرسبورج ، ومحفوظ بأرشيفها.



مخطوطة قصيدة "دعاء" مكتوبة مرة أخرى (منسوخة) بخط الشيخ عيّاد الطنطاوي بعد أن تملك المرض من يديه وبان أثر ذلك على الخط المكتوب به القصيدة، ومحفوظ بأرشيف جامعة سانت بطرسبورج.

خطاب من الشيخ الطنطاوي إلى فالين ، مؤرخ في 5 أكتوبر 1841

اشرف ما ينتهيه اهل الوداد واجل ما تتعاطاه اهل الشفقه والاتحاد سلام سليم
وثناء عميم الى جناب حضرة سيدى العزيز المحترم الافخم الشيخ محمد عياد
سلمه الله تعالى ثم ان تحرك الخاطر العاطر بنوع من السوال عن حال من لا
حال من المحبه والاتحاد من حمد الله والمنه فى نهاية ما يكون من الصحه
والاعتدال بالمنيلم الكثير السوال عنكم وعن احوالكم فى كل وقت ثم ان الباعث
لتحرير ذريعه الاخلاص والوداد ابلاغكم منا شريف السلام والتحيه والاكرام
واعلام استاذنا العزيز اننا ارسلنا لكم مكتوب فى اواخر ربيع الاول مشتمل على
سفري من طرفكم فى الشتا وسائر احوالى بعد الفراق منكم وانى من ذلك الزمن
لاخباركم دائما متطلب ولوروده سالكم مترقب ولكن ما تفضلتم بانزال ما بنا من
البلبال بانباكم عما انتم عليه من الاحوال ولم يلقنى قرار ولا طاوعنى اصطبار
حتى سالكم احصل لكم ذلك الكتاب او كبرت نفسكم النفيس عن الجواب
ذلك ومن قبل السفر الى مصر السعيد فغيرت قصدى حتى ما اسافر
هناك هذا الصيف الا فى الربيع الآتى لانى ابتدات الآن اطالع فى علم الطب
واريد اقعد هنا سنه تقريبا لاجل اتمرن على هذا العلم وبعده اروح ان شا
الله اسافر الى مصر نادرة العصر والى غيرها من اطراف المشرق وارجو
من الله تعالى انكم تقعدوا فى بتربرغ مده هذه السنه ثم نسافر معا السنه
الاتيه الى بلادكم ذلك ومن قبل اشتغالى فى هذا الزمن فطالعت فى علم الطب
وعالجت المرضى فى المارستان وزياده على ذلك طالعت فى لسانكم وتقدمت فيه
على قدر ما كان يمكننى فى فراقى منكم ويا ليتنى كنت عندكم لاسمع درر الفصاحه

خطاب فالين للشيخ عياد الطنطاوي بتاريخ 21/9/1842

ЛЕНИНГРАДСКИЙ ОРДЕНА ЛЕНИНА И ОРДЕНА ТРУДОВОГО КРАСНОГО ЗНАМЕНИ ГОСУДАРСТВЕННЫЙ УНИВЕРСИТЕТ имени А.А.ЖДАНОВА

На правах рукописи

РЕДА

Мадиха Махмуд Ахмед

УДК 892.7+910.4

"ОПИСАНИЕ РОССИИ" ШЕЙХА ТАНТАВИ КАК ПАМЯТНИК АРАБСКОЙ ЛИТЕРАТУРЫ XIX ВЕКА

Специальность 10.01.06 – литература народов зарубежных стран Азии и Африки

Диссертация

на соискание ученой степени кандидата филологических наук

Научные руководители:
доктор филологических наук,
профессор Фролова О.Б.
доктор филологических наук,
профессор Лебедев В.В.

Мадиха Реда

Ленинград 1984

رسالة الحصول على درجة الدكتوراه
من جامعة سانت بطرسبورج الحكومية عام 1985
للدكتورة مديحة محمد أحمد رضا وموضوعها
وصف روسيا والشيخ الطنطاوى رمز الثقافة العربية في القرن التاسع عشر

SAINT PETERSBURG STATE
UNIVERSITY

FACULTY OF ASIAN AND AFRICAN STUDIES

INTERNATIONAL CONFERENCE

RUSSIA AND THE ARAB WORLD:

DEDICATED TO THE
200TH ANNIVERSARY OF SHAIKH
MUHAMMAD AYYADH AT-TANTAWI
(1810-1861)

November 2–3, 2010

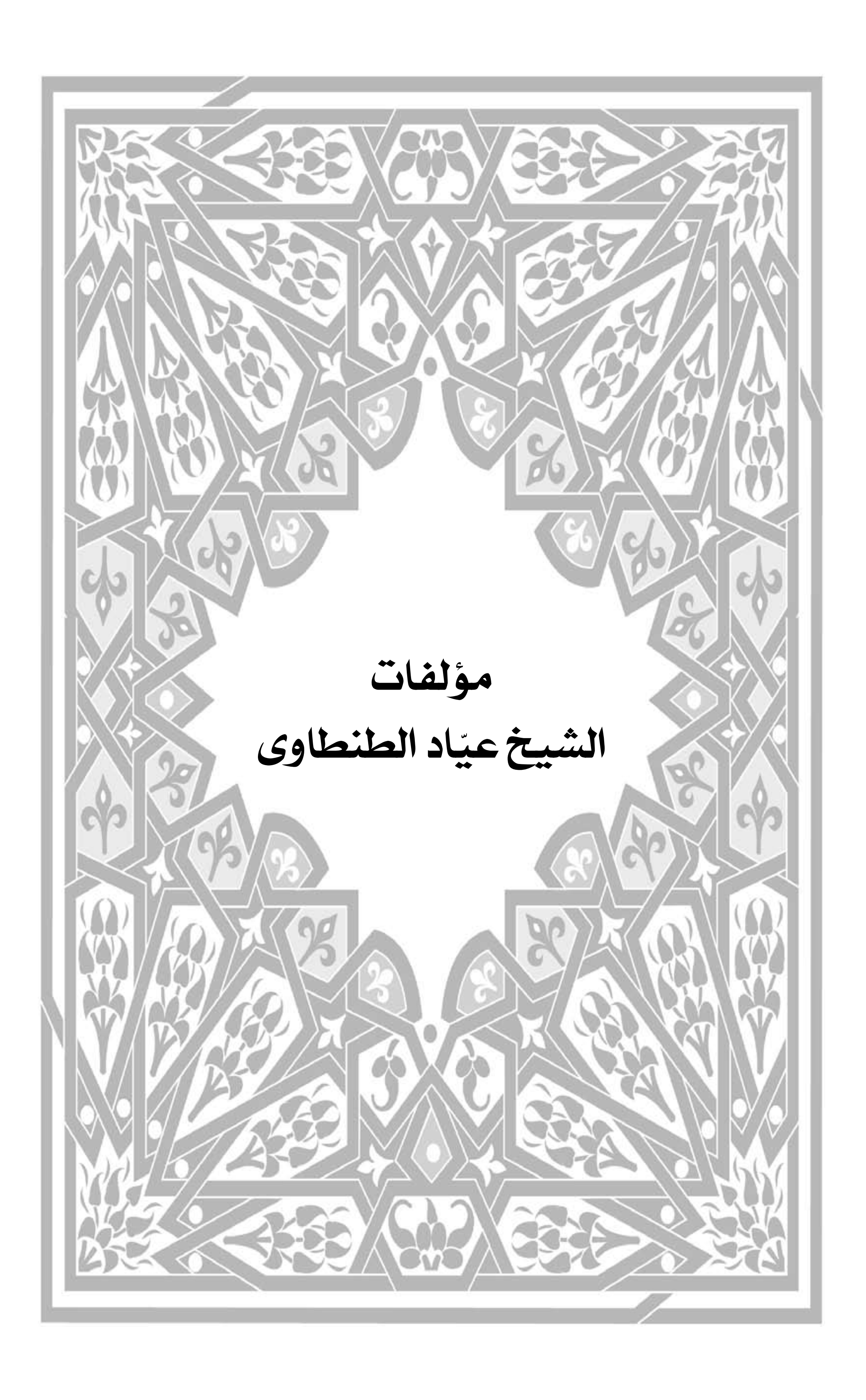
ABSTRACTS AND PAPERS

St.Petersburg
2010

غلاف أعمال المؤتمر الدولى إحتفاءً بالذكرى 200 لمولد العلّامة
الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى (1810 ـ 1861)
جامعة سانت بطرسبورج الحكومية ـ مدينة سانت بطرسبورج
روسيا الإتحادية ـ 2 : 3 **نوفمبر** 2010**م**



هنا مرقد الشيخ العالم محمد عيّاد الطنطاوي كان مدرس العربية في المدرسة الكبيرة اليمبراطرية ببطرسبرج المحروسة وتوفى في شهر جمادى الثاني سنة 1278 من الهجرة عن خمسين سنة


مؤلفات
الشيخ عيّاد الطنطاوى

مؤلفات الشيخ عياد الطنطاوي

لا يزال العديد من مؤلفات الشيخ الطنطاوي محفوظاً ، تحتفظ بمكتبة الدراسات الشرقية بجامعة لينينغراد سانت بطرسبرج الحكومية بمدينة سانت بطرسبرج العديد منها ، و في خزانة معهد الأمم الأسيوية ، ومعظمها يتصل بالدراسات اللغوية و الدينية التي كان يستعين بها علي تدريس مادة اللغة العربية وآدابها في بيتربورغ ، ومنها .

- أحسن النخب في معرفة لسان العرب [1] .

وهو ألفاظ وجمل وأمثال وحكايات و ملحقات ورقاع وصكوك ومواويل وشعر ورسائل تبودلت بينه وبين أصدقائة في مصر ، والرسائل موجهة إلي :

- محمد خليل صاحب زاده الفاروقي ، نقيب الأشراف بتاريخ 8 جمادي الآخرة 1212 هـ .

---

(1) إعتمدنا فيها على ما ورد في كتاب ، محفوظ : سيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوي (10 - 24) .

- محمد قطة العدوي تاريخ 4 محرم 1259 م.

- إبراهيم الدسوقي، غزة شهر رمضان 1257 م.

- يوسف الصيداوي، المشرف على بيته أثناء غيابه 12 جمادي الأول 1237هـ.

- عبد السلام الحلبي الترمانيني ذي القعدة سنة 1257 م، والكتاب طبع في 1847، 1264.

- إصلاح تحريف كتاب الإيضاح في شرح سقط الزند، لإبن الخطيب التبريزي، كتبه إبان إحتجازه في كرنتينه إستانبول، يوم السبت 22 صفر سنة 1256 ه، منه نسخة في خزانة الكلية الشرقية، بجامعة لينغراد، رقم 837.

- الأمثال، مخطوط.

- الإنتخابات.

وهو كتاب إنتخبه من مجموعة كتب أدبية تراثية، نثل العقد الفريد والأغاني والخطط للمقريزي، وتعليق من شرح لامية العجم للصفدي، وتكملات في الأعياد والمواسم والموالد، ونقول من جريدة الوقائع المصرية، وعبارات مستعملة في الحياة و جواباتها.

- بغية المريد على رسالة التوحيد (حاشية على رسالة الباجوري).

- مسودات لتاريخ العرب، بخطة في جامعة بتروغراد رقم 838.

- ترتيب تلاقي الأرب في مراقي الأدب على حروف المعجم، وهو ديوان صديقه عبد الرحمن الصفتي، خزانة الكلية الشرقية، رقم 892.

- ترجمة الباب الأول من كلستان لسعدي الشيرازي، بخطة في جامعة بتروغراد رقم 838.

- ترجمة الطنطاوي بخطه.

وهي ورقة أودعها كتاب «التعليق على الكافي في العروض» بين ورقة 66 ب - 67 أ.

- ترجمة مختصر تاريخ روسيا، تأليف إستريالوف، ورد ذكره في تحفة الأذكياء، ص 59.

- تصحيح أغلاط نسخة يتيمة الدهر للثعالبي، نسخة خزائنية برسم المولي محمد خليل بن علي الحسيني الحنفي المعروف بالمرادي، المفتي بدمشق، سنة 1195 هـ، بخط ياسين بن أحمد بن الشمعة، خزانة معهد الأمم الأسيوية، لينغراد، رقم (D162)

- تعاليق حاشية المقولات للشيخ حسن العطار.

- تعاليق علي حاشية الأمير علي شرح الملوي علي السمرقندية في البيان.

- تعاليق علي حاشية البيجوري علي السمرقندية.

- تعاليق علي الكافي في علمي العروض والقوافي.

- تقييدات علي (شرح الأزهرية في النحو للشيخ خالد الأزهري)، مع التعرض لحاشية الشيخ حسن العطار.

(نسخة خزانة الكلية الشرقية 827).

- تواريخ الخلفاء والسلاطين والملوك وسلاطين الديار المصرية من زمان النبي (ص)، إلي عصر عبد المجيد خان، سنة 1250، خزانة الكلية الشرقية رقم 833.

- حاشية أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري [2].

- حاشية التحفة السنية والعقائد السنية (شرح منظومة السيد محمد بليمة لبرهان الدين، أبي المعالي، إبراهيم السقا.

- حاشية الزنجاني في الصرف.

---

(1) كان الفراغ منه في 19 من رمضان 1262 هـ. انظر، محفوظ: سيرة الشيخ محمد الطنطاوي، 17.

(2) قابله وحشاه في ضحوة الأربعاء، 25 ربيع 1257 هـ، انظر، محفوظ: سيرة الشيخ 17.

- حاشية شرح الأزهرية في النحو .
- حاشية الكافي في علمي العروض والقوافي .
- حال الأعياد والمواسم في مصر .
- الحكايات العامية المصرية ، وتضم 31 حكاية ، بخطة في خزانة الكلية الشرقية ، رقم 745 .
- ختم علي شرح القطر لإبن هشام .
- ختم علي متن الجوهرة في العقائد للقآني .
- رسائل ومنها رسائل الطنطاوي إلي تلميذه المستشرق الفنلدني G.A.Wallin .
- شرح منظومة الشيخ السلموني في العقائد .
- شرح نظم السمرقندية .
- غنية المريد في علم التوحيد .
- قاموس عربي فرنسي ، طبع في قازان سنة 1849 .
- قواعد اللغة العربية باللغة الروسية .
- لذيذ الطرب في نظم بحور العرب . جعل آخر نظمه لكل بحر من بحور العروض آية من القرآن .
- ما يقال في الحياة اليومية من التعابير وأجوبتها .
- مجموعة شعره ، في خزانة الكلية الشرقية رقم 1235 .
- مشتهي الألباب علي منتهي الآراب ، يقع في 86 ورقة ، خزانة الكلية الشرقية رقم 820 [1] .
- معجم تتري عربي .
- منتهي الآراب في الجبر والميراث و الحساب ، منظومة في بحر الرجز ، منه نسخة في جامعة بتروغراد ، رقم 820 ، كتبت سنة 1245 هـ .

---

(1) أكمل تسويده يوم عاشوراء سنة 1245هـ ، وفرغ من تبييضه 7 ربيع الأول سنة 1245 هـ

ـ نظم تصريف الزنجاني .

ـ نظم السمرقندية في البيان .

ـ نقد ترجمة بعض التعابير العربية في كتاب المستشرق سلفتر دي ساسي .

ـ نقد طبعة رحلة ابن جبير .

ـ نقد كتاب « الأمم الإسلامية » تأليف كارسين دي ساسي .

ـ هامش كتاب « الحجة في سرقات ابن حجة لشمس الدين ، محمد بن حسن النواجي »

و يلاحظ بأن معظم مؤلفاته كانت كتباً تعليمية قد وضعت للطلبة لدراستها أو الإستفادة منها .

أما أهم كتبه ، فكان الكتاب الذي نشره ، و قذ جاء علي صفحة عنوانه :

هذا كتاب

تحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا

للعبد الفقير الشيخ محمد عياد

المصري الطنطاوي

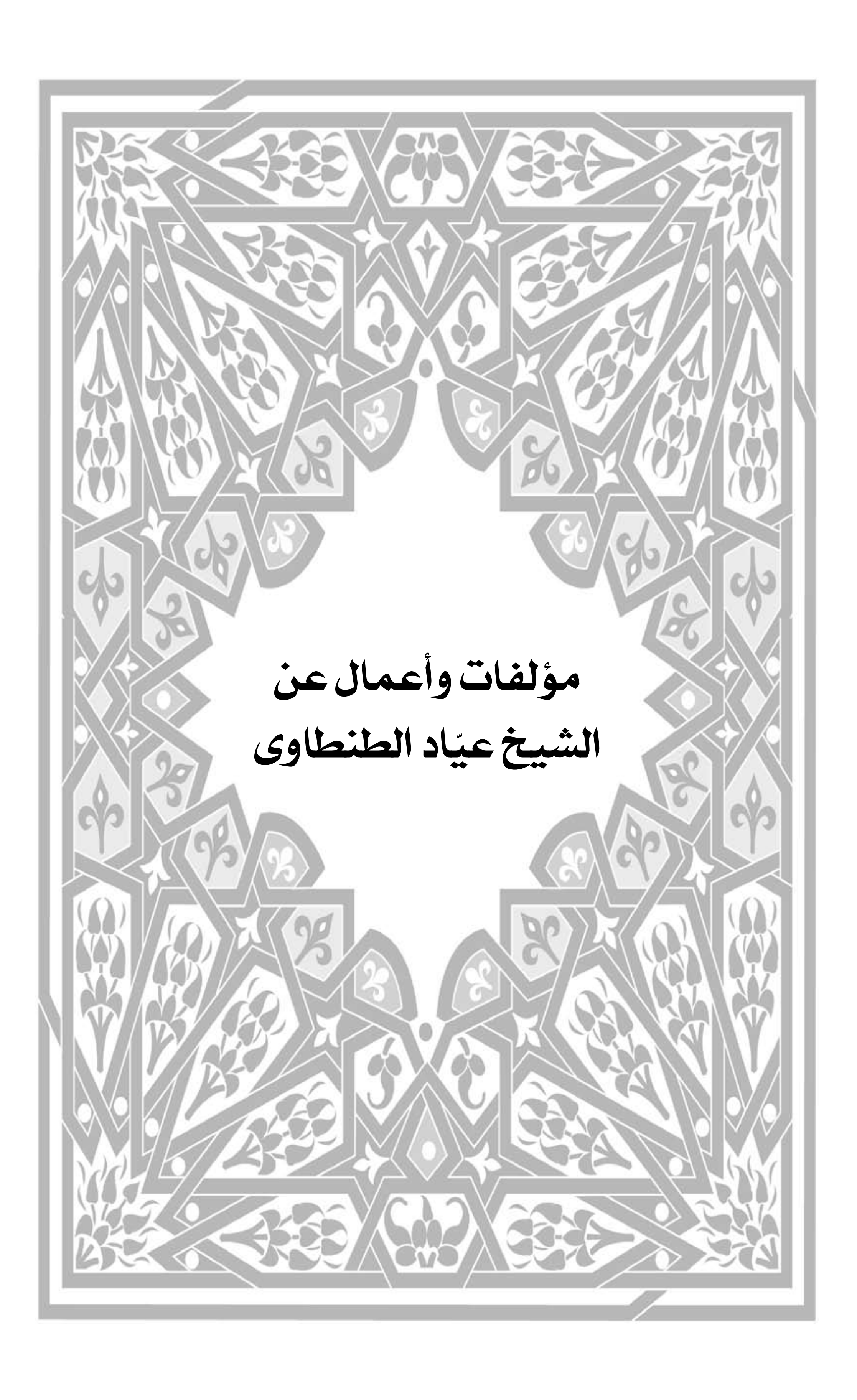
غفر الله ذنوبه

و ستر عيوبه

و المخطوط محفوظ في مكتبة جامعة إستانبول تحت 766 عربجة (عربي) .

و كتب المخطوط بخط نسخ عادي و بالمداد الأسود .

أوله : حمداً لمن سير سيرة العالم في أقصي أقطار العالم و قيض ، له أعواناً يعضدونه ، وأنصاراً يحمونه و صلاة و سلاما علي سيدنا محمد من جفاه أهل .



مؤلفات وأعمال عن
الشيخ عيّاد الطنطاوى

مؤلفات وأعمال عن الشيخ الطنطاوى

ـ د.حســين الشـافعى

"مـن تراث الشـيخ محمد عيّاد الطنطـاوي" ـ أول معلـم للعربية في البلاد الروسية ـ دار نشر أنباء روسيا ـ طباعة دار الطباعة المتميزة ـ القاهرة 2013 .

ـ أعمال مؤتمر الذكري 200 لميلاد الشيخ محمد عياد الطنطاوي

صـادر عن جامعة سـانت بطرسـبورج الحكوميـة – روسـيا الإتحادية نوفمبر 2010 .

ـ صالحة ، محمد عيسي

رحلة الشـيخ الطنطاوي إلي البلاد الروسـية 1850ـ1840م المسماة تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، عمان : دار البشير للنشر ، 1992 .

ـ أحمد مختار

رحلـة سمو الأمير محمد علي باشـا في جنـوب إفريـقيا سـنة 1342هـ / 1924م ، ط القاهرة ، مطبعة الإعتماد . دت .

ـ آدمز شارلز

الإسلام والتجديد في مصر ، ترجمة عباس العقاد ، ط القاهرة ، 1960م.

- حجازي ، محمود فهمي
أصـول الفكر العربي الحديث عند الطهطـاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1974م .

- حسين فوزي النجار
رفاعـة الطهطـاوي (رائد فكر وإمـام نهضته) ، الهيئـة المصرية العامة للكتاب ، 1987م (سلسلة أعلام العرب رقم 130) .

- خالد زيادة
ثلاث رحلات جزائرية إلي باريس ، بيروت ، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر ، 1979م .

- خليل مردم
أعيـان القرن الثالث عشـر ، قدم له وعلق علي حواشـيه عدنان مردم ، ط الثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1977م .

- الخفاجي ، محمد عبد المنعم
الأزهر في ألف عـام ، بيروت ، عالم الكتب ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، 3 مجلدات ، ط الثانية ، 1408هـ ، 1988م .

- الزركلي ، خير الدين
الأعلام ، بيروت ، 1979م .
- شيخو ، لويس
الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ط بيروت .

- الطهطاوي ، رفاعة رافع
- تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، القاهرة ، مطبعة بولاق 1265هـ .

- مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية ، مطبعة الرغائب ، 1330هـ / 1912م .

- علي مبارك
الخطط التوفيقية ، ط مصر 1986م .

- فتحي رضوان
دور العمائم في تاريخ مصر الحديث ، القاهرة ، الزهراء للإعلام العربي ، 1986م .

- كراجكوفسكي ، (أغناطيوس)
مع المخطوطات العربية ، ط ، موسكو ، 1963م .

- قلفاط (نخلة)
تاريخ بطرس الأكبر ، ط بيروت ، المطبعة اللبنانية ، 1886م .

- محمد ثابت
جولة في ربوع أوروبا (بين مصر وإيسلندا) ، ط مصر ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1948م .

- محمد عبد الغني حسن
أعلام من الشرق والغرب ، عربي في بلاد الصقالبة ، الشيخ محمد عياد الطنطاوي ، مصر ، دار الفكر العربي ، مطبعة الإعتماد 1949م .

- ناجي نجيب
- الرحلة إلي الغرب و الرحلة إلي الشرق ، بيروت ، دار الكلمة ، 1983م .

- رحلة علم الدين للشيخ علي مبارك ، بيروت ، دار الكلمة ، 1983م .

- الدوريات و المجلات (مقالات)

أحمد تيمور ، مقالة « الشيخ محمد عياد الطنطاوي » مجلة الزهراء ، المجلد الأول ، الجزء السابع ، (417 – 428) ، 1347 ه .

ونشرت أيضاً في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الرابع ، الجزء التاسع ، والجزء الثاني عشر ، 1924م .

- كراجكوفسكي (أغناطيوس)

- مقالة « الشيخ محمد عياد الطنطاوي » ، مجلة الزهراء ، المجلد الأول ، الجزء السابع ، 1347 (بالتعاون مع أحمد تيمور) .

- محفوظ حسين علي

محمد عياد الطنطاوي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد السابع ، 1964م .

- محمد أمين حسونة

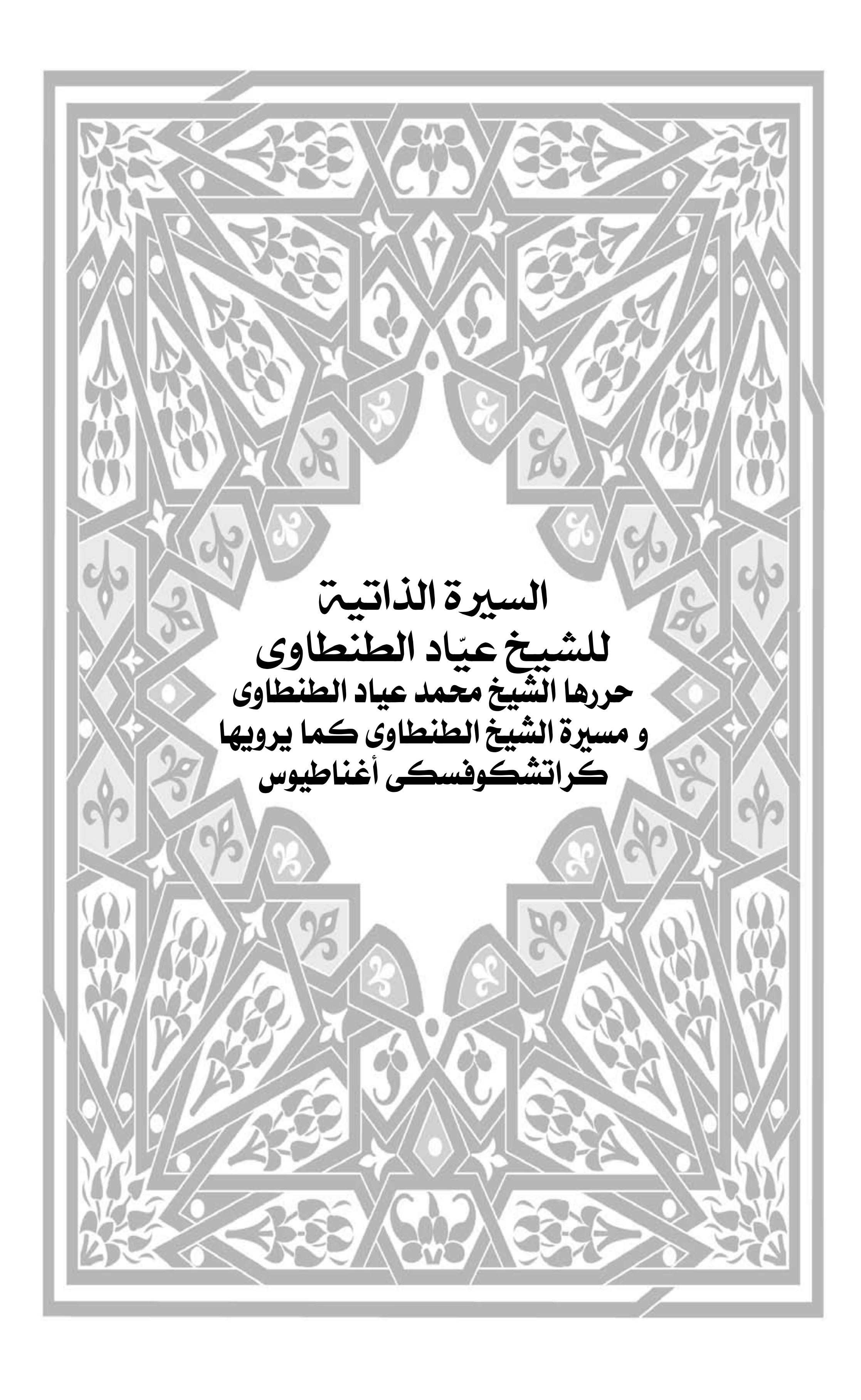
محمد عياد الطنطاوي ، مجلة الرسالة ، العدد 549 ، يناير 1943م .

- الشافعي ، حسين

مجلة أنباء روسيا – الطبعة العربية – العدد (29) سنة 2012 .

- د. حسين الشافعي

الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي .. في الذكرى 197 لميلاده - مجلة أنباء موسكو - الطبعة العربية - العدد (6) أكتوبر 2007 ص 31 - 34 .



السيرة الذاتية
للشيخ عيّاد الطنطاوى

حررها الشيخ محمد عياد الطنطاوى
و مسيرة الشيخ الطنطاوى كما يرويها
كراتشكوفسكى أغناطيوس

Арабский текст «Автобиографии» Шейха Тантави, опубликованный академиком И.Ю.Крачковским[1]

Настоящее издание автобиографии Тантави основано как на ее краткой редакции, сохраненной одной рукописью библиотеки Ленинградского университета, так и более полной, опубликованной Kosegarten'ом. Их взаимоотношение в общих чертах характеризовано в главе о сочинениях Тантави (под № 25); там же даны детальные указания об источниках текста. Краткая версия в примечаниях обозначается буквой L (= Leningrad), полная — K (= Kosegarten); буквой T (= Tantavi) обозначены те разъяснения Шейха, которые были даны им по просьбе Kosegarten'a и опубликованы последним при издании автобиографии. Цифры при букве T указывают страницы тома IV Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.

В переиздании автобиографии мною руководило, главным образом, желание помочь соотечественникам Тантави, которые, при недоступности на востоке Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, давно составляющего библиографическую редкость, были до сих пор лишены возможности познакомиться с этим произведением своего земляка.

إلى حضرة الجناب الوقور الخواجه فرين يقول الفقير محمد بن سعد بن سليمان عيّاد الطنطاوىّ[1] ولدت بقرية بقرب[2] طنطا تسمى نجريد[3] سنة ١٢٢٥ [4]والسبب فى ذلك أن أبى كان كما قال الحريرىّ كلّ يوم بين تعريس ورحلة وذلك لأنّه كان تاجرًا فى الأقمشة والبنّ والصابون ونحو ذلك فكان يأتى بالبضايع الكثيرة ويفرّقها على التجّار فكان له بيت بطنطا وبيت بنجريد وبيت بالصافية وأنا ولدت بنجريد مع أنّ أمّى من الصافية و أصله من محلّة مرحوم بلد كبيرة بجوار طنطا وكانت منذ ثمانين

---

[1] L оп. начало. T 197: أنا محمد اسم عايلتى اسم جدّى عيّاد سليمان عياد أبى سعد عيّاد جدّى سليمان عيّاد الخ فقولى عيّاد ليس وصفًا لسليمان بل وصف لى وكذلك الطنطاوى وكان يقال لابى وجدّى المرحومى نسبة الى محلّة مرحوم بلدهما الأصليّة وقد تركاها وسكنا طنطا طنطا هكذا كتبت كما يقال فى الكلام الرواج ولكن فى الكتب طندتا النسبة طندتايى.

[2] L بنجريد قرية قرب [3] L оп. [4] L وسبب.

---

[1] Крачковский И.Ю. Шейх Тантави профессор С.-Петербургского университета (1810-1861). Л., 1929. С. 89–93.

السيرة الذاتية للشيخ محمد عيَّاد الطنطاوي من مخطوطة - حررها الشيخ عيَّاد ، ومحفوظة بمكتبة جامعة سانت بطرسبورج الحكومية ، بناء على طلب فرين فور وصول الشيخ لبيتربورغ وقدمت لوزارة الخارجية الروسية .

سنة أثرى وأكثر سكّانًا من طنطا ثمّ لمّا بنى علىّ بيك جامع السيّد البدوىّ وبنى حوله القيسارية أى سوق التجّار ودكاكينهم لا زالت محلّة مرحوم تضمحلّ شيئًا[1] فشيئًا حتّى تلاشت و[2] لم يبق منها[3] إلّا القليل فترى بيوتها[4] ودكاكينها وحمّاماتها منهدمة وبقدر ذلك أخذت طنطا فى العمارة وزادت إلى يومنا هذا وسبب ثروتها أنّ السيّد البدوىّ أحد الأقطاب الأربعة الذى مزاره[5] فيها له[6] مولدان[7] مولد[8] صغير ومولد كبير و فى كلّ منهما يأتى أهل مصر والصعيد وساير النواحى فيبيعون ويشترون وبها علماء وفقهاء وقرّاء وتعليم القران بها أحسن من مصر بخلاف العلم ولذلك[9] يقال فى المثل ما قرآن إلاّ أحمدىّ ولا علم إلاّ أزهرىّ أحمدى نسبة لجامع سيّدى احمد البدوىّ وأزهرىّ نسبة للأزهر وقد سافر أبى وأمى الحجاز وعمرى نحو أربع سنين وتركونى بالصافية عند أخوالي.

ثمّ لمّا ترعرعت ذهبت إلى طنطا فى بيتنا هناك وذهبت إلى المكتب وعمرى نحو ستّ سنين فحفظت القرآن مرّتين[10] بداية وعيادة كما هو العادة ثمّ بعد حفظى القران لم أخرج من المكتب بل حفظت فيه متونًا كثيرة كمتن المنهج فى علم[11] الفقه وهو قدر القران وكمتن ألفيّة ابن مالك فى النحو الخ ثمّ لمّا كان عمرى عشر سنين ابتدأت فى تعلّم العلم فحضرت على المرحوم الشيخ محمد الكومىّ شرح ابن قاسم فى الفقه مدّة[12] سنة ثمّ مرّة ثانية فى سنة ثانية على المرحوم الشيخ السيّد محمّد أبى النجا عالم شهير مصنّف ثمّ حضرت عليه[13] شرح الخطيب فى الفقه فى السنة الثالثة ومع ذلك فما كنت أطالع وكنت ألعب كثيرًا ولم أحضر نحوًا إلا نحو ثلاثة دروس قبل سفرى لأنّ النحو قليل فى طنطا.

ثمّ فى آخر السنة الثالثة سنة ١٢٣٨ وهى السنة الثالثة عشر من عمرى رحلت مع عمّى إلى مصر وبعد ذلك أبى وتركنا سكنى طنطا لكن كنت آذهب إليها فى الموالد[14] وقد اتّفق أنّى درّست فيها كتابًا فى علم المجاز وكتاب مولد النبى فقد دفعت لها دينى وكذلك درست بالصافية لمّا

---

[1] L om. [2] L om. [3] L om. [4] L فبيوتها. [5] L ضريحه. [6] L om.
[7] L مولدين. [8] L om. [9] L ولذا. [10] L om. [11] L om. [12] L om.
[13] T 48: قرأ عند العلماء معناه درّس وهو عرف عامّ كما أنّ حضر معناه تعلّم على الشيخ فى حلقة الدرس.
[14] T 198: الموالد جمع مولد و فى طندتا ثلاث موالد للولى الكبير المدفون فيها سيّدى أحمد البدوى أحد الأقطاب الأربعة والثانى سيّدى ابراهيم

كنت أذهب إليها لكن بعض كتب خفيفة تناسب العوامّ[1] كالفقه والتوحيد[2] فكان[3] مكثى فى مصر[4] من سعادتى فحينئذ حضرت[5] فى النحو والفقه وغيرهما ولا شكّ أنّ تعلّم الثلاثة سنين[6] فى طنطا وإن كان مع اللعب أكسب لى بعض فهم فكنت أفهم خصوصًا فى النحو وغيره أكثر من الفقه فحضرت الأجرّوميّة وشرح الشيخ خالد وشرح القطر وشرح الألفيّة لابن عقيل وشرحها للأشمونى وشرح مختصر السعد فى علم المعانى والبيان والبديع وشرح مطوّله كذلك وشرح جمع الجوامع فى علم أصول الفقه وشرح الورقات فيه والمغنى وشرح التحرير فى الفقه وشرح المنهج فيه وشرح المحلّى على المنهاج فيه وبعض شرح البهجة فيه وشرح مختصر السنوسى[7] فى المنطق وشرح الأخضرى على السلّم فيه وشرح ايساغوجى فيه وشرح السمرقندية فى علم المجاز وشرح السنوسيّة[8] فى علم التوحيد وشرح الجوهرة فيه الخ وغالب حضورى على الشيخ إبراهيم الباجورى وهو أعلم أهل الأزهر الآن بلا نزاع[9].

وفى السنة الخامسة من مكثى فى مصر[10] مات والدى لكن[11] فى طنطا[12] وقد تكدّرت[13] بسبب ذلك[14] نحو سنتين وكنت[15] ابتدأت فى التدريس فيها وأوّل ما درست درست فى العروض مع أنّى أحضر ثمّ بعد ذلك فى النحو وغيره فقرأت شرح الشيخ خالد والأزهريّة والقطر والشذور مرارًا ثم شرح ابن عقيل ثم المغنى وكان ذلك فى السنة الماضية وقرأت شرح الملوى فى المجاز وشرح الملوى فى المنطق وقرأت تفسير الجلالين وقرأت الشفا وهو آخر ما قرأت فى الأزهر فإنّى ختمته قبل السفر بأربعة أيّام وقرأت المقامات الحريريّة فى الأزهر وشرح الزوزنى على المعلّقات وما علمت أحدًا قبلى

الدسوقى (الرسوقى K) والثالث سيّدى أحمد الرفاعى والرابع سيّدى عبد القادر الكيلانى الأوّل المولد الكبير والثانى الصغير وفيها يأتى التجّار من مصر القاهرة وغيرها ببضايعهم ويمكثون أسبوعًا ثمّ المولد الرجبى وفيه يذهب الناس للزيارة فقط فى مدّة إقامتى فى طنطا والصافية درّست يعنى قرأت وفسّرت بعض كتب للتلامذة.

[1] K القوام. [2] L оп. от слова لكن. [3] L وكان. [4] L ذلك.

[5] L فحضرت. [6] L оп. [7] K النوسى. [8] K النوْسية.

[9] L вместо всего отдела от слова النحو только العلوم العقليّة.

[10] L ١٢٤٣ سنة. [11] L оп. [12] L вставка لأنّه كان سافر من مصر فى عرض.

[13] L فتكدّرت. [14] L واشتغل بالى وضاع من الزمان بلا طائل.

[15] L вставка فى تلك السنة.

قرأهما فيه وقرأت البردة وبانت سعاد والتحفة فى الحساب وشرح السعد على العزّى[1] فى الصرف ثمّ صنفت على المتن حاشية مفيدة وقرأته بها مرّة ثانية وقرات لامية الأفعال فى الصرف وما لا يحصى من الرسائل الصغيرة المفيدة ومع ذلك فلم يتّفق لى التدريس فى الفقه لاشتغالى بأمر المعاش فلذلك كان كثير من عامّة أهل الأزهر يظنّون أنّى لا اعرف الفقه وقد صدقوا فإنّى بترك مزاولته ضيّعته ومن مدّة ان مات والدى تكدّر ذهنى وعرانى شغل البال وضاع منّى الزمان بلا فائدة نحو سنتين[2].

ثمّ[3] تراجع الأمر وألجأنى الدهر إلى الكسب فعاشرت[4] بعض الافرنج المقيمين بمصر[5] وأوّل من عاشرته[6] حضرة[7] الخواجه فرينل وهو يحبّ العربيّة بالطبع[8] فكان يحثّنى[9] دائمًا على الاشتغال وهو ألآن قنصل جدّة وبسببه تقوّيت فى العلوم الأدبيّة لأنّنى كنت أقرأها معه وهو كان من أهل التحقيق والتدقيق[10] وله توقّفات[11] حسنة وبنات أفكار[12] جميلة وقد[13] كتب رسائل فيما كان يقرأ معى كترجمة الشنفرى وأيام العرب الخ[14] ونوّه[15] بذكرى فيها ثمّ رغبنى فى اللغة[16] الفرنساويّة وعلّمنى[17] إلاّ أنّ قصر الزمان عاق عن التمام[18] وبالجملة فأنا اعترف[19] بأنّى مكسور له فى دفع الخراج ودائمًا أهل مصر يماطلون الباشا[20] فى[21] الخراج فتراهم[22] عليهم البقايا دائمًا ثمّ اجتمعت على غيره بسببه كالخواجه وائل النمساوى[23] والخواجه برونير الحكيم بالقصر[24] العينى

---

[1] K الفزى. [2] L оп. отдел от слова فيها. [3] L вст. بعد ذلك.
[4] L вст. بمصر. [5] L вст. لاعلمهم العربية. [6] L عاشرت منهم. [7] L оп.
[8] T 199: الخواجه فرينل يميل طبعه إلى اللغة العربيّة فميله إليها ليس لغرض.
[9] L يغرينى. [10] L вместо абзаца от الآن только مدقق محقق.
[11] T 199: التوقّفات التشكّك وعدم التقليد ويقال عندنا العلم فى الوقفة يعنى أنّ العالم هو الذى يفهم الكلام كما يقتضيه النظر وإذا رأى خللاً عرفه أو صعوبة فتّش على إذهابها لا من يفهم كما يجد ويقلّد.
[12] T 200: بنات الأفكار هى الأفهام الدقيقة ولا يخفى أنّ العبارة العربيّة تارة تفهم على وجوه شتّى فإذا فهم المعنى الأليق والأشبه عدّ ذلك من بنات الأفكار.
[13] L оп. [14] L оп. [15] L نوّه. [16] L وابتدأ معى فى تعلّم.
[17] L оп. [18] L оп. [19] L معترف. [20] L عادتهم المماطلة. [21] L вст. دفع.
[22] L فترى. [23] L переносит эти слова после слова علاجه выше.
[24] L النمساوى كان حكيمًا بقصر.

سابقًا وهو رجل حسن الأخلاق والطباع[2] يشفى ببشره المريض[3] قبل علاجه والخواجه بيرون[4] مدير القصر العينى الآن[5] وقد قرأ معى كثيرًا[6] من ترجمات الأغانى وأنساب العقد[7] وكنت أعلّم فى مكتب الانكليز فى مصر وذلك سنة قبل سفرى وأمّا خدم الباشا فإنّى دعيت إليها كثيرًا ومع ذلك لم اجد نفسى تميل إليها وذلك لأسباب منها أنّ من ذهب إليها لا يقدر أن يكون له درس فى الأزهر ومنها ان أشغالهم مقرفة وذلك ان المترجم يأتى بألفاظ سخيفة لا تفيد معنى فلا يفهم المصحّح منه المعنى إلاّ بعد شقّ النفس ومع ذلك فلهم أنفة وتكبّر الخ ثمّ من جملة من قرأ علىّ من الفرنج الخواجه نقوله موخن المسكوبى ثمّ الخواجه فرين المسكوبى ثمّ سألانى الذهاب إلى بتربورغ فأجبت ثمّ بعد انقضاء الزمان اللازم لتوفية هذا الأمر حضرت إلى بتربورغ فى دراكم وتحت جاكم.

Фролова О.Б.

(Восточный факультет СПбГУ)

О малоизвестном арабском переводе книги И.Ю. Крачковского «Шейх Тантави профессор С.-Петербургского университета»

В 1964 году в Каире (Египет) вышел в свет арабский перевод книги академика И.Ю.Крачковского о профессоре Шейхе Мухаммеде ʻАйяде ат-Тантави. Имя переводчицы было указано – Кульсум Оде.

Невольно возникает вопрос, является ли эта переводчица известной российской ученой и общественным деятелем Клавдией Викторовной Оде-Васильевой? Египетские редакторы этой книги Абд ал-Хамид Хасан и Мухаммед Абд ал-Гани Хасан отвечают на этот вопрос безусловным «Да!». Они пишут в предисловии, что «Высший Совет Объединенной Арабской республики по опеке искусств, литературы и социальных наук» предложил перевести эту книгу с русского на арабский госпоже Кульсум Оде, палестинке, которая еще на родине изучила русский язык, затем вышла замуж за русского и уехала с ним в Россию, где все свои силы отдавала преподаванию арабского языка и литературы.

Этот перевод, эта книга до настоящего времени оставались мало известными в России. Сейчас, когда ученые Санкт-Петербургского университета отмечают юбилей службы в нем профессора из Египта Шейха Тантави, представляется необходимым вспомнить об этой работе К.В.Оде-Васильевой, которая, не жалея сил, подготовила этот перевод, увидевший свет в год ее кончины.

مسيرة الشيخ محمد عياد الطنطاوى كما يرويها كراتشكوفسكى أغناطيوس*

فى عام 1919 احتفل بالذكرى السنوية المئوية لجامعة سانت بطرسبورغ، وكان قد بدء فى الإستعداد لهذا الاحتفال مبكرا، قبل الثورة. وفى 1916 كانت قد راودت الجامعة فكرة عن كتابة تاريخ الكراسى المختلفة فيها. وقد انفتحت لنا، نحن المستعربين، صورة عجيبة مشوقة. فأول أستاذ كان الفرنسى ديمانج (1819 ـ 1822)، والثانى هو البولونى سنكوفسكى (1822 – 1847) المعروف بلقب البارون برامبيوس، والثالث كان عربيا هو شيخنا الطنطاوى (1847 – 1861). وإذا كان لم يذكر عن الأستاذ الأول أى شئ لأنه لم يترك أى أثر فى مجال العلم سوى ما ينسب إليه على غير أساس. من مأثرة تعليم الكاتب الروسى الكبير والدبلوماسى المعروف غريبويدوف اللغة الفارسية. وإذا كانت توجد كتب كثيرة عن الأستاذ الثانى، حقاً بوصفه كاتبا لا بوصفه مستعرباً، فقد وجدت، فيما يتعلق بالشيخ الطنطاوى. أن المواد المطبوعة تنطوى على بعض الأخطاء الناتجة عن سوء الفهم كما وجدت ببساطة غياب بعض المعلومات الهامة عنه. فكان لابد من بناء هذا كله من جديد. فتوجهت نحو الدرب المختبر: نحو المخطوطات.

كان معروفا لدى أن الشيخ الطنطاوى جمع بنفسه مجموعة من المخطوطات تقارب المائة والخمسين مجلداً آلت كلها إلى مكتبة الجامعة، وكنت أعرف أن بينها آثاراً أدبية ممتعة ليست بالقليلة وأن جزءاً منها داخل نطاق الإستخدام العلمى، لكن ليس هذا ما كان يهمنى إذ ذاك. فما كنت فى حاجة إليه هو إستيضاح ما إذا كانت المجموعة الأخرى من مخطوطات الطنطاوى تنطوى على أية مواد عن تاريخ حياته أو ملامح نشاطاته العلمية والأدبية. ولم يخب أملى: ففى أوائل هذه المخطوطات عثرت على مؤلفات. لم يرها أحد، بقلم الشيخ الطنطاوى نفسه ومخطوطات

* من كتابه «المخطوطات العربية .. صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر» تعربيب الدكتور محمد منير مرسي - الناشر دار النهضة العربية 1969 - ص 169 - 177

لمؤلفين آخرين كان قد نسخها فى شبابه. وعثرت على مخطوطات فيها ملاحظات وإضافات وتعليقات له. وقررت أن أنظر وأفحص فى بطء المائة والخمسين مجلداً جميعاً صفحة صفحة. وقد زاد هذا العدد عندما وجدت أن بعض مخطوطات مجموعة الجامعة، التى وصلت إلى المكتبة قبل الطنطاوى تتضمن أيضاً ملاحظاته. كان العمل فنياً حقا يتطلب الدقة والتمهل. ولكن هذا العمل وحده استطاع أن يعطى قاعدة ثابتة وأن يمنح بسخاء فى مقابل المجهود الصعب الطويل، لارضى النفس فحسب بل ونتائج حقيقية. وريداً رويداً وخطوة خطوة إرتسم أمامى بالتدريج كل المجال العلمى والتعليمى لمعاصرى الطنطاوى.

وبرزت أمامى اهتماماته الشخصية البعيدة عن نطاق هذا المجال، ومحاولاته الأولية الوجلة فى جمع مواد تجيب على إستفسارات أصدقائه وطلبته الأوروبيين، وقد ساعدت ملاحظاته وتعليقاته على صفحات المخطوطات فى إيضاح المراحل المتتالية من حياته. فأول جزء من مخطوطاته اشتراه عندما كان طالباً ثم معلماً فى الأزهر.

والجزء الثانى يتضح من ملاحظاته عليه أنه قضى معه وقت فراغه غير الإختيارى فى الحجر الصحى الطويل فى أزمير أو أسطانبول، وقت رحلته إلى روسيا.

وواضح من ملاحظات الجزء الثالث أنه يطير بأفكاره إلى وطنه من غربته البعيدة حيث انهى حياته. وبالتدريج وضحت القاعدة الزمنية لتاريخ حياته وابتدأت صورته الرومانتيكية الغائمة تزخر بألوان حياته الناصعة.

وكان العصر الجديد لكل عملى هو عام 1924. فقد بدأ مواطنو الطنطاوى يتذكرونه عندما تيقظ إهتمامهم نحو الفترة القديمة من حياتهم. وبدأت تظهر منذ ذلك الوقت (1924) إشارات عنه فى أخبار المجمع العلمى العربى بدمشق وفى مجلات القاهرة. ووجدت أن وطن الطنطاوى لا يملك إطلاقاً ما أملكه من الموارد التى جمعتها. وبسعادة أسهمت بنصيبى فى الصحافة العربية للعمل على إحياء نموذج إنسانى لا تقل قرابته لنا عن قرابته للعرب. وهنا ربطنى القدر من جديد مع أحمد تيمور باشا العالم والمحب للكتب. وكان أفقه العلمى واسعاً. فلقد إستطاع أن يفهم جيداً أيضاً الشاعر الفيلسوف الأعمى فى القرن الحادى عشر أبا العلاء الذى

إنجذبنا إليه معاً . وبنفس هذا الفهم كان تيمور باشا يعرف أحد مواطنى بلده فى القرن التاسع عشر الذى عاش ومات بين الروس هنا فى الشمال . وقدر تيمور جهودى ، و بعد موته ، عرفت من إبنه أن صورة الطنطاوى التى أرسلتها له كانت دائماً على منضدته . وإبتدأت أوروبا أيضاً تهتم بالأستاذ البطرسبورغى الطريف . وفى هذا العام 1924 نفسه كتب إلى محرر الطبعة العالمية المشهورة لدائرة المعارف الإسلامية التى تجدد صدورها بعد الحرب العالمية الأولى ، يسألنى أن أرسل له مقاله عن الطنطاوى . و إجمالاً لعمل إستمر قرابة عشر سنوات . شعرت شعوراً جلياً بنداء داخلى يهيب بى بإصرار أن على أن أؤلف كتاباً عن الطنطاوى ، وكما لو كان الأمر مكافأة على هذا القرار ، حمل إلى عام 1924 إكتشافا مفرحا .

فعندما كنت أنظر عدداً من إحدى المجلات الإستشراقية خرج لتوه من المطبعة ، عثرت فيه على فهرس دورى للمخطوطات العربية فى مكتبات إسطانبول , وكان ينشر مثل هذه الفهارس من وقت لآخر واحد من العلماء الألمان . هو مستشرق فاشل لم يكن له مكان فى ألمانيا فألقى مراسيه فى إسطانبول على وظيفة معلم متواضع فى مدرسة ثانوية . وبحماسه وعناده الكبير استطاع أن يجد وقتاً ليغوص فى بحر كنوز المخطوطات . ومن هناك جذبت جواهر كثيرة ، ورأيت فى الفهرس فجأة أنه قد ذكر مع الآثار القديمة فى جامع رضا باشا " بروميلى حصار " ، عنواناً حملنى على ان أنسى كل ما خلاه . والعنوان يقول : " تحفة أولى الألباب فى أخبار بلاد روسيا للشيخ محمد عياد الطنطاوى كتبه بخطه سنة 1850 م /1266 هـ وأهداه إلى السلطان عبد المجيد " . ولم يكن لدى أية معلومات عن هذا المؤلف فى موادى العلمية ولم يكن تصورى لماهية هذا المخطوط إلا من قبيل التخمين . وكان أسرع ما ورد على خاطرى هو أنه وصف جغرافى عادى .ولم أصدق تماماً أن المخطوط هو بخط الطنطاوى فعلاً , وخشيت أن يكون ثمة شئ من سوء الفهم . لكن اسم الطنطاوى مذكور فى العنوان . ولم أعرف الهدوء ولا الراحة وكان على ان انتظر مدة طويلة . واخيراً فى عام 1927 سمحت لى العلاقات الدولية آنذاك أن اتسلم نسخة من المخطوط . وكان الحكم الذى خرجت به بناء على الخط الذى كتب به هو أن المخطوط منقول أو منسوخ بواسطة تركى لا يحسن معرفة اللغة العربية ولم يكن ناجحاً دائما فى فهم الأصل وبخاصة فيما يتعلق بالأسماء الروسية الصعبة أو

المعقدة . لكن لم يبق أى شك فى أن المخطوط يرجع إلى الشيخ الطنطاوى ، وأخذت عينى تتنقلا بانفعال على الصفحات ولم أستطع أن أفارقها . شاعراً فوراً بأن هذا المخطوط هو أحسن مؤلفات الشيخ الطنطاوى . إلى جانب أنه قريب جداً لأنفسنا نحن الروسيين . فهو يعكس بروعة طبيعة الطنطاوى المتطلعة وإستجابته لكل مظاهر حياتنا الدقيقة ومزاجه اللطيف الخير . ولم يكن المخطوط إذن وصفا جغرافيا عاديا كما تخيلته من العنوان ، أو بمعنى أدق لم يكن المخطوط مجرد وصف جغرافى ، ففيه وصف الشيخ الطنطاوى بالتفصيل رحلته من القاهرة إلى بطرسبورغ متذكراً كذلك رحلته إلى وطنه سنة 1844 . وتحدث بالتفصيل أيضاً عن إنطباعاته عن روسيا والروسيين مدة العشرة الأعوام الأولى من إقامته فى روسيا ، وتحدث عن أسفاره فى العطلات إلى بلاد بحر البلطيق وفنلنده وقد شرح لأهل وطنه بالتفصيل تاريخ روسيا فى العصر الحديث ورسم خريطة لمدينة بطرسبورغ فى عصره . كل هذا بإشارات حية ناصعة هى الآن بالنسبة لنا لا تقدر بثمن كما فى السابق . ولقد أسعدنى أن مخطوطاً آخر للطنطاوى أصبح معروفاً للعلم ولأهل عشيرته . على أننى ما انتهيت من الدراسة الجيدة لنسخة مخطوط إسطانبول حتى وهبنى القدر مفاجأة أخرى مفرحة .

ففى بداية خريف 1928 دخل على ذات مرة تلميذى الموهوب الناشئ المتخصص فى الدراسات السامية الذى انطفأ سراجه مبكراً إذ حملته معها سنة 1942 القاسية . وكان دائماً هادئاً ثابت الطباع وغالباً ما كان يزورونى حاملاً مختلف الأسئلة العلمية . ولكن فى هذه المرة شعرت فوراً أنه لم يات من أجل مسألة بسيطة . ووجدته يمد يده إلى فى هدوء عادى بمخطوط غلافه من الورق المقوى العادى ثم قال موضحاً : "هاك ، وجدت هذا عند بائع كتب قديمة فى شارع ليتينى ويبدو أنه يتعلق بالجغرافيا . فقد تجدون فيه شيئاً ممتعاً لكم " . ومافتحت المخطوط حتى ذهلت . فلقد رأيت أمامى خط الطنطاوى وفى نهاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر وهو الخط المعروف لدى جيداً . ونظرت بانفعال فى الصفحة الأخيرة منه فذهلت مرة أخرى " إن مافى يدى هو ذلك المخطوط الذى كتبه الطنطاوى بنفسه عن " وصف الروسيا " وهذا المخطوط الذى فى يدى هو المسودة وبه تصحيحات وإضافات كثيرة جداً بخط المؤلف نفسه . وبالطبع فإن صديقى الشاب عرف جيداً أى كنز ثمين حمله إلى ، لكنه لم يرد أن يحرم نفسه من

الإستمتاع برؤية كيفية إستجابتى إلى هذا المخطوط . وعندما تطلعت إلى الغلاف فهمت للتو كيف وقع المخطوط عند ذلك البائع للكتب القديمة . فعلى الغلاف مطبوع بالحروف اللاتينية I.N " أي. ن . " وهو إختصار اسم ايرينى نوفل وهو عربى من طرابلس كان خليفة الطنطاوى فى التدريس بالقسم التعليمى للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية . وفى بداية القرن العشرين ذهبت مكتبة نوفل أدراج الرياح بفضل أبنائه الطائشين . وغالبا ما كان حطام هذه المكتبة - المأسوف عليها - يطفو فى أوقات مختلفة على سطح بحر الكتب فى بطرسبورغ ولينينغراد .

إن هذين المخطوطين المكتشفين - أحسن مؤلفات الطنطاوى - ليعطيان الآن إمكانيات كاملة لنشره وترجمته بطريقة جيدة . لكن هنا بدأ القدر قاسياً فكلا تلميذى اللذان أخذا على عاتقهما هذا العمل أحدهما بعد الآخر ماتا مبكرين قبل أن يصل العمل إلى نهايته ، وما يعرفه العرب والروس حتى الآن عن مخطوط " وصف الروسيا " هو فقط من مقالات صغيرة ومن الملخص العربى .

وإذا كانت نهاية حياة الطنطاوى قد اتضحت لى فى ختام دراستى له فقد تم ذلك أيضاً بفضل المخطوطات . فلقد عرفت من وثائق رسمية أنه من أيلول (سبتمبر) 1855 - " عانى من شلل أصاب أطرافه السفلية " حسب تعبير اللغة الطبية الرسمية ، أما ماذا عمل هو فى السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياته فقد كان من الصعب على تصوره .

وهنا ساعدتنى المصادفة من جديد . فقد كان ومازال فى كل مكتبة كبيرة ، قديماً وحديثاً ، عاملون غير ظاهرين ، كأنما فقدوا تماماً معالمهم الشخصية ، وانصهروا مع المكتبة ، ومع تلك الأعمال التى تنشأ فيها . هم أنفسهم ليسوا مبدعين أو خلاقين ، بل ومن النادر أن يشغلوا بموضوعات علمية خاصة بهم . لكنهم يعيشون فى اهتمامات الآخرين كوحدة عضوية معها ، وهم جد ضروريين للعلماء فبدونهم لايمكن أحياناً أن تتم بعض الموضوعات أو تكتمل دراستها بطريقة حسنة . كان أحد هؤلاء العاملين شابا ولكنه غير طموح بسبب تشبعه بروح المكتبة , وهناك على المنضدة لدى خزائن المخطوطات حيث كنت انجز دراستى عن الشيخ الطنطاوى ، حمل إلى كوما من الأوراق الكبيرة المكتوبة التى ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وهى مملوءة تماماً بسطور عربية وروسية

متداخلة مع بعضها ، ولم تكن هذه الأوراق مسجلة فى أى سجل . وكانت ملقاة فى أسفل خزانة من خزائن المكتبة حيث اكتشفها هذا المستخدم ذو الروح الخيرة نحوى ، والذى شعر بالغريزة أن لهذه الأوراق علاقة ما بشيخى الطنطاوى .

لم أستطع فى البداية فهم أى شئ فكومة من الأوراق تتضمن ما لايقل عن مائة وخمسين ورقة ممتلئة بخطوط كتلك التى يجب أن يرسمها الأطفال أحياناً على مساحة بيضاء خالية أو كخط مكسر غير واضح لشخص راشد يحاول أن يتعلم الكتابة وبعد أن قمت بترتيب الأوراق حسب شكلها الخارجى وحسب أرقام الصفحات التى وجدت عليها ، بدأت أفهم حقيقة الأمر وعلى الفور أصبح هذا الأمر شيئاً مرعباً فقد بدا أن الأوراق تتضمن جميع الموضوعات القريبة إلى الطنطاوى ، وهى تتضمن مجموعة أمثال باللهجة العصرية ونماذج من التحايا والأغانى العامية ومواد مختلفة عن البلاغة والنحو والألفاظ العربية لكن كان من الواضح أن كل هذا كان مكتوباً بعد أن أخذ " شلل رجليه " ينتشر إلى يديه وكان من المؤلم للمرء أن يرى كيف أن صاحب هذه اليد كان بالتدريج يتزايد صراعه فى حربه مع الكتابة فلم يطاوعه لا القلم ولا الريشة وكانا يخرقان الورقة عند كل حركة فى أثناء الكتابة وكانت يده تحاول أن تحسن كتابة الحرف العربى أو الروسى وفجأة تنقبض يده مرتعشة فيجرى منه القلم على ما يقرب من الصفحة كلها ، كانت المادة كلها حقاً حية وممتعة ولكن إذا كنت قد فهمت الصفحات الأولى بصعوبة فان فهم ما بعد ذلك أخذ يتزايد سوءا فأحياناً كانت الحروف تلتحم معاً فى صورة خط إختزالى أو ما يذكر بكتابة الأعمى الذى سلمت له فى يده عصاً يغمسها فى لون للصباغة ليكتب بها وهكذا استمر الأمر على عشرات الأوراق . وهذه السطور توضح ببلاغة أيضاً كيف أن الطنطاوى كان يحاول بإصرار أن يمسك بالسراب لأداء عمل عقلى لم تمكنه منه يده الهامدة وهو الرجل ذو الطبيعة الحية التى لا تعرف التقهقر و لا الإستسلام . ولو أنه وجد موضوع لراوية عن الطنطاوى فى قصص المعاصرين فإن هذه الأوراق تتحدث عن مأساة قاسية لإنطفاء حياته . وفى آخر فصول هذا المأساة ينسدل الستار على موت البطل محترقاً بنار شريرة من التسمم الدموى . وهكذا فتحت المخطوطات لى كل فصول مأساة تلك الحياة التى بدأت

فى قرية مصرية صغيرة وتفتحت فى المراكز العلمية العربية فى طنطا والقاهرة ، ثم عبرت إلى عاصمة روسيا سانت بطرسبورغ وإنتهت فى قبر ذى شاهدة ، هناك فى مقبرة فولكوفو .

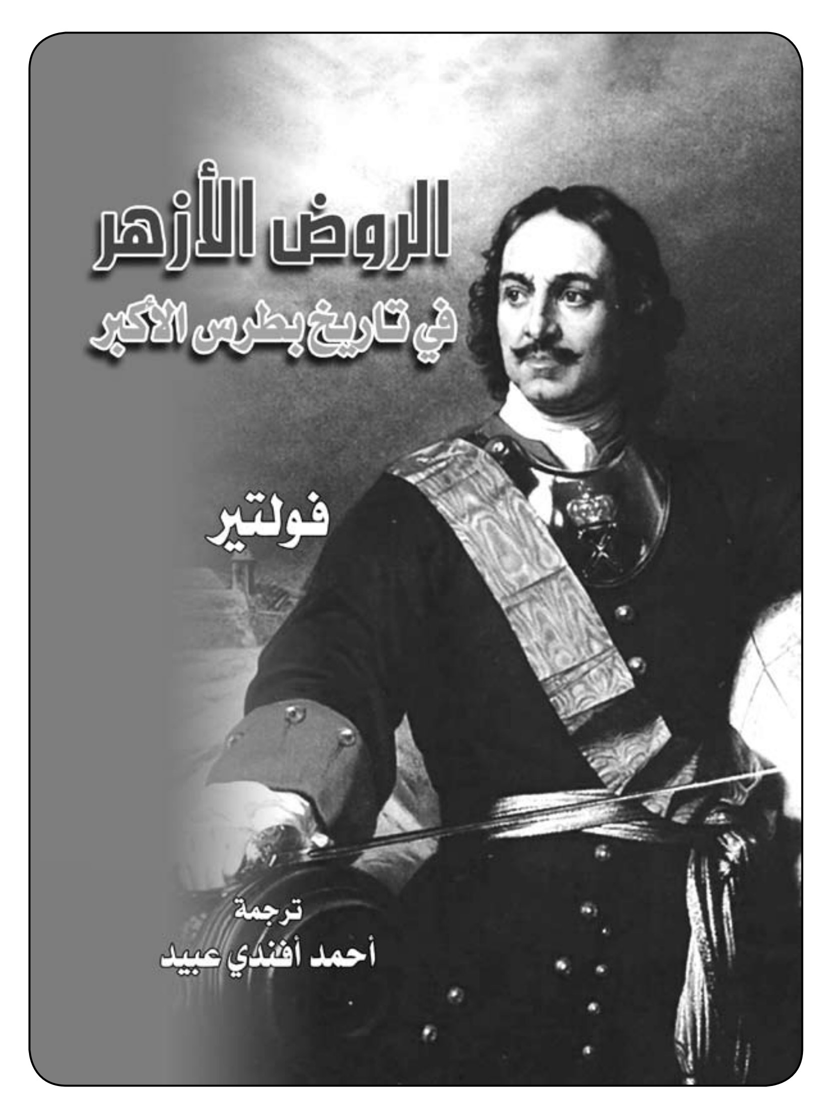
وخرج كتابى عن الشيخ الطنطاوى فى بداية 1930 ولم يعجب الكتاب الجميع لسبب ما ، ولكن أفرحنى أن المستعربين العرب ، وبخاصة أهل وطن الشيخ ، قد قدروه وتحدثوا عنه بكلمات حارة . وقد قاسيت كثيراً عندما كنت أؤلف هذا الكتاب . وحتى هذه اللحظة عندما أسأل عن أعمالى أعتبرها أثر جديراً فى العلم فإننى أشير دائماً إلى أربعة كتب أولها عن شاعر دمشق المرح الذى كان منادياً فى سوق الفواكه ، وثانيهما عن أهجية دقيقة للحكيم الأعمى الشاعر والفيلسوف السورى ، وثالثهما عن بديع الشعر الذى ألفه أمير وشاعر وعالم لغوى رقيق كان لسوء حظه خليفة بغداد لمدة يوم واحد ، وآخرها هو عن الشيخ المصرى الأستاذ فى بطرسبورغ لكن يبدو لى أحياناً أننى أحب بالذات الكتاب الأخير وأفضله على الجميع ، وغالباً ما كنت لأتطلع إلى صورة ذلك الشخص الذى يدور حوله الحديث فى الكتاب .



الشيخ محمد عيّاد الطنطاوى
١٢٢٥ ـ ١٢٧٨ هـ ١٨١٠ ـ ١٨٦١م

الفهرس

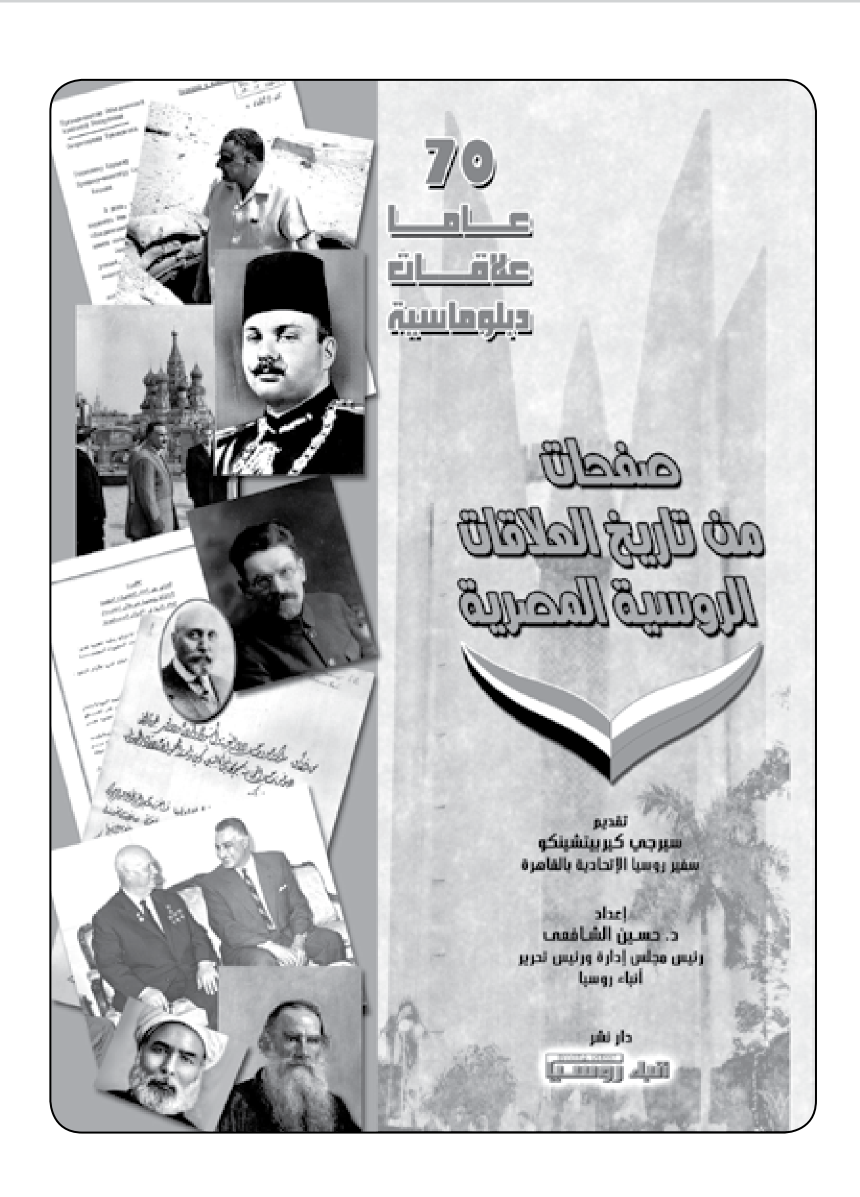
يصدر قريباً عن دار نشر أنباء روسيا



بالتعاون مع المجلس الأعلى للثقافة ـ وزارة الثقافة
بجمهورية مصر العربية

دراسة وتقديم
د. حسين الشافعي
رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير أنباء روسيا الطبعة العربية

يصدر قريباً عن دار نشر أنباء روسـيا





دار نشر ..... أنباء روسيا

للمراسلات :

القاهرة - مدينة العبور

44719 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي

ص . ب . 72

Tel. : + (202) 24 77 38 70

Fax : + (202) 24 77 38 71

دار نشر

أنباء روسيا

RUSSIA NEWS

رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير

د . حسين الشافعى

رقم الإيداع الدولي



تاريخ ولادة الأمير الكبير شاه زاده نقولة الكساندروفيج

للروسيا فخر علي إخوانها ... بجنابه و لها الايـاد طويلـه
ماكنت احسب أن قدري يرتقي ... حتى أشـاهد ملكهـا وقبيلـه
الماجدون المحسبون المكرمون ... المنعمـون الحـائزون فضيلـه
الغالبون القاهرون المانـعون ... الحافظـون مبيته و مقيلـه
ما أسعد البيت الذي اطنابـه ... شُدت بكل مهذب و عـقيلـه
ما أسعد البيت الذي احبابـه ... منصـورة و عـداته مخذوله
ما أسعد البيت الذي من بطرس ... اثـاره مشهـورة منقولـه
ما أسعد البيت الذي سطواته ... راعت ملوك الأرض فهي مهوله
أنا ضيف قطركم وكم من عائد ... أوليتمـوا زوارة و نزيلـه
وبأرض قلبي كم زرعتم نعمة ... نبتت سـنابل شكرها محموله
فالآن فاه لسان شكري قائـلاً ... في حبكم هل تسمعون مقولـه
ادعو الإله مهنئاً ومورخـا ... للروسـيا رغـد يطلـع نقولـه

محمد عيّاد الطنطاوى

1833

دار نشر .. أنباء روسيا
للمراسلات :
القاهرة – مدينة العبور
44719 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي
ص . ب . 72
Tel. : + (202) 24 77 38 70
Fax : + (202) 24 77 38 71

دار نشر



رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير
د . حسين الشافعي